دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالبحوث الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط - المغرب

عدد ممتاز



العدد الثاني عشر
السنة الأولى

ذو القعدة ١٣٧٧ - يونيه ١٩٥٨
الثمن ١٠٠ فرنك



في المغرب ازمة مستفحلة خانقة ، لا تتحدث عنها الصحف ، ولا تفكر فيها الحكومة ، ولا يتناولها الناس في أحاديثهم وتعليقاتهم العابرة ، كانها غير موجودة اصلا ، او كاننا لا نحس بها ولا نقدر خطورتها ، ولا نهتم بالآثـــار البعيدة المدى في السوء التي تنتج عنها وتترتب عليها .

هذه الازمة ، هي ما يمكن لنا ان نسميه « ازمة القراء » .

فنحن قوم لا نقرأ ، لان الامية منتشرة فينا من جهة ، ولان غير الاميين فينا ، متأثرون بالبيئة الامية التي يعيشون فيها ، فهم لا يقراون الا نادرا ، وللتسلية فقط ، او عندما تكون القراءة متصلة باعمالهم اليومية التي يزاولونها ويجدون انفسهم ملزمين بادائها .

وازمة القراء عندنا يعرفها جيدا باعة الكتب ، ويعرفها المشتغلـــون بالصحافة ، ويعرفها كل من كتب عليه ان ينتج ادبا او علما ، وان يحـــاول الخروج بانتاجه الى النور ، ومع ذلك فنحن لا نتحدث عن « ازمة القراء» ولا نفكر في نتائجها الخطيرة وعواقبها الوخيمة، تلك النتائج والعواقب التي تتعدى كل ما ذكرنا الى شيء آخر اهم منه ، هو انها تقف سدا منيعا في وجه كـــل محاولة جدية في ميدان البحث والكتابة والتاليف والانتاج الادبي من شعر او قصة او غيرهما من انواع الادب .

ان الكاتب او الشاعر يجب ان تتوفر له دوافع اخرى ، غير الدافع الذي ينبع من أعماقه ، يجب ان يتوفر له التشجيع المادي والمعنوي معا، يجب ان يجد صدى لفنه ولفكره ، ويجب ان يشعره الناس انهم بحاجة الـــى انتاجه ، كحاجتهم الى الطعام واللباس والسكنى ، وانهم مستعدون ان يبذلوا من وقتهم ومالهم في سبيل الحصول عليه والاستفادة منه والتمتع به .

اما قصة الشمس التي تضيء لانها لا تملك الا ان تضيء ، والزهرة التي تعبق بالعطر لانها لا تملك الا ان تفعل ذلك ، فقصة قديمة هزيلة ، لا تعتمد على غير الزخرف اللفظي والرومانسية الرخيصة الكاذبة .

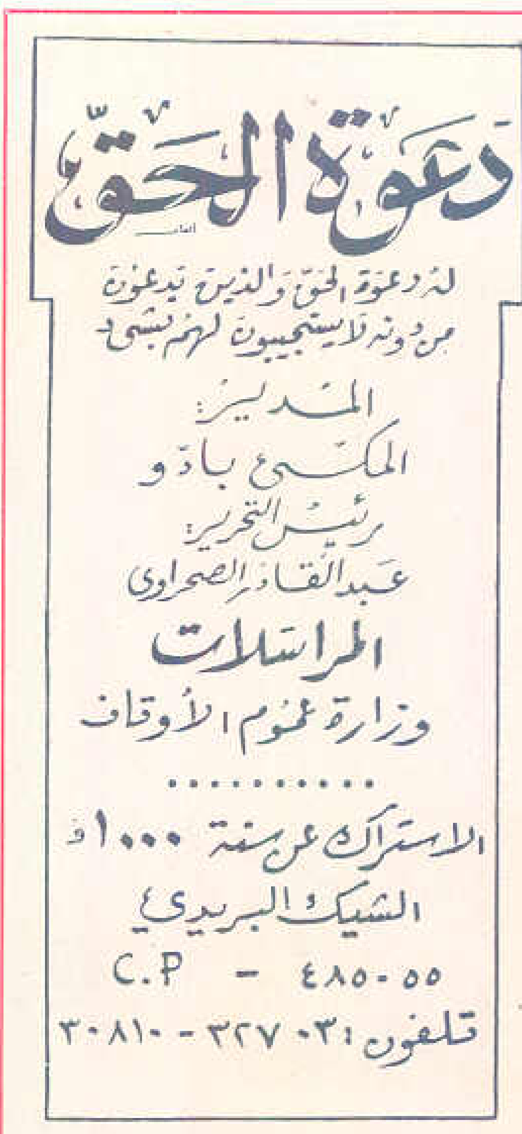
وهكذا يبدو ان علينا لكي ننجح في بعث الحركة الفكرية التي ننشدها ان نبدأ من أسفل ، من القاعدة ، من تعليم الناس ان يقراوا ويكتبوا ، من الالف والباء .

وعلينا ايضا ـ وهذا هو الجانب المضحك في القضية ـ ان نبحث عن الوسائل التي يمكننا بها ان نشجع المثقفين على القراءة ، كما يفعل النـاس عادة في المدارس وفي رياض الاطفال ، كان ننوه بهم ونكتب اسماءهم علـــى لوحات الشرف ، ونخصهم بالجوائز والهدايا والالعاب .

قد يكون عذر هؤلاء انهم لا يقرأون الانتاج المغربي لانهم لا يجدون فيه متعة ولا فائدة ، ولكنهم مطالبون مع ذلك ان يقرأوه ، وان يبدوا رايهم فيه وان يحاولوا نقده وتقويمه ، هم مطالبون ان يفعلوا ذلك كواجب وطني ، فقد يعد التقاعس عن أدائه خيانة وتقصيرا واخلالا بالواجب .

فما راي السادة المثقفين ؟ السادة الارستقراطيين !! ما رايهم في الواجب الوطني الذي يحتم عليهم أن يتواضعوا ، وان ينزلوا الى دنيا النـــاس ، وان يقولوا لهم أحسنتم اذا أحسنوا ، وأن يقولوا لهم اسأتم اذا اساءوا !!

دعوة الحق



صورة الغلاف

باب « منصور العلج » في ساحة « الهديم » بمكناس ، بناه المولى اسماعيل العلوي من ملوك الدولة العلوية الشريفة ، واتم بناءه ولده المولى عبد الله . وذلك في اواخر القرن الثامن عشر .

يعتبر باب « المنصور العلج » من معالــم مكناس الشهيرة ، ومن الآثار الفنية الضخمة، التي لا تزال قائمة تشهد بروعة المجهود الكبير، الذي بذله المولى اسماعيل ، ليجعل من مكناس ـ عاصمة ملكه ـ مدينة لا تقل روعة عن اكبر العواصم العالمية .



شكر وتقدير

تغتنم اسرة مجلة « دعوة الحق » فرصة انتهاء سنتها الاولى ، لترفع الى صاحب الجلالة الملك سيدي محمد الخامس ، آيات الامتنان والشكر والعرفان ، على ما يحيط به جلالته هذه المجلة من العناية والرعاية والعطف ، وتدعو الله مخلصة ان يحفظ جلالته ، ويكلأه بعين رعايته التي لا تنام ، حتى يتحقق لهذه الامة الوفية المخلصة في عهده الكريم ، جميع ما تصبو اليه من مظاهر العزة والسيادة والتقدم والازدهار .

كما تتوجه اسرة المجلة بالشكر الى ولي عهد المملكة المغربية ، ورئيس اركان القوات الملكية المسلحة الامير الجليل مولاي الحسن على ما ابداه سموه من التفهم والتقدير لرسالة هذه المجلة واهدافها في كلمته القيمة التي نشرت بالعدد الثاني من هذه المجلة .

وتشكر اسرة المجلة ايضا ، الاميرة الجليلة لالا عائشة ، التي تفضلت فبعثت للمجلة بكلمتها الرائعة التي نشرت بالعدد السابع ، مقدرة في سموها اخلاصها ، وتفانيها في العمل من اجل النهوض بالمجتمع المغربي ، ومن اجل رفاهيته وسعادته .

*

وان المجلة لتعتبر نفسها مدينة بما اتيح لها من نجاح ، لحضرات السادة العلماء والكتاب والشعراء ، الذين لم يبخلوا عليها بانتاجهم القيم ، من بحوث ومقالات وقصص وقصائد شعرية وغير ذلك ، مقدرة فيهم جميعا اخلاصهم للفكر ، وشعورهم بالمسؤولية ، واستعدادهم للتعاون .

*

والمجلة اذ تنهي سنتها الاولى ، تعد قراءها الكرام ، انها لن تدخر اي مجهود في سبيل ان تعود اليهم في سنتها الثانية ، اوفر نشاطا واستعدادا ، واغزر مادة ، واحسن شكلا ، مما عودتهم في سنتها الاولى .

فالى اللقاء في العدد الاول من السنة الثانية ، وكل عام وانتم بخير .



التفكير الاجتماعي

للزعيم الاستاذ
علال الفاسي



ان الفكر في موضوع ما ، يجب ان يكون مبنيا على اسس من النظر ، وطريقة من الفهم لا يتصور الاستنتاج ولا الاحصاءات بدونها .

والاجتماعيات بصفة خاصة تعتمد على حكم سابق على حالة من الحالات بانها حسنة ، او انها قبيحة ، وذلك الحكم هو الذي يكون المشكلة الاجتماعية أو لا يكونها .

فالمجتمع الذي لا يؤمن بتحريم البغاء ولا يرى فيه حالة تتنافى مع الخلق او مع الدين ، لا يمكنه ان يعتبر وجود البغاء فيه مشكلة يجب حلها .
وكذلك الوسط الصوفي الزاهد لا يعتبر الفقر فيه ازمة ، ولا يحتاج اهله للبحث عن متوسط الدخل او كثيره ، ولا عن الاحصاءات التي تؤدي للبحث عن موارد جديدة .

وقضية الملعونين في الهند كانت امرا طبيعيا بمقتضى النظام البرهمي ، لان الجميع يؤمن بان وجود فئة من الشعب محكوم عليها بكونها طبقة سفلى امر عادي ، لا يتألم له احد ولو كان من المنبوذين انفسهم . حتى اذا تطور الفكر الهندي عن طريق الاتصال بالمسلمين اولا ، ثم عن طريق الفكر الديمقراطي الذي يأبى ذلك الفرق الشاسع بين الطبقات ، تهيأ الوعي في وسط المنبوذين ، واصبحوا يكونون مشكلة اجتماعية يحتاج حلها الى اتخاذ تدابير للوصول الى تحقيقها عن طريق القانون وطريق الدعوة المبنية على دراسة الوسط واحصاء وسائله المختلفة .

وهكذا يمكن ان يقال عن طبقة العمال الذين كانوا موضع استغلال للراسمالية امدا طويلا ، فقد كانت الاجرة مبررا لاستخدام العامل واستغلال فائض قيمته ، دون ان يكون في ذلك مايعاب على الآجر اذا هو وفي العامل أجره المشروط . وسواء اعترته آفة او اصابه اذى او استخدم النهار كله وطرفا من الليل فان العبرة بما جرى عليه العرف وما قصده المثل الذي يقول : (من تحت كراه يموت) فلما شعرت الطبقة العاملة بوجودها عن طريق احساسها بالضرورة الاجتماعية التي تفرض عليها التكتل للبحث عن عدالة اجتماعية ، تكونت مشكلة العمل وراس المال وعلاقة احدهما بالآخر ، واصبحت الافكار والنظريات تتزاحم في اعطاء الحلول المختلفة بناء على المبادىء الاقتصادية أحيانا او الاخلاقية اخرى .

فالفكر الاجتماعي اذن لابد ان يكون مسبوقا بوعي سابق ، مبني على عقيدة مسلم بها. وقد احتاط على البعض طريقة البحث عن تطبيق الخدمات الاجتماعية لتحقيق حلول المشاكل المعترف بها على وسائل النظر لمعرفة ما اذا كانت هنالك مشكلة اجتماعية ام لا ، مع ان محل الفكر هو تعريف المشكلة الاجتماعية ، ومناط الخدمات هو طريقة حلها. فاذا نظرنا لمجتمع بائس فقير، فيجب قبل كل شيء ان نقتنع بان الفقر مشكلة ، وان على المجتمع ان يحلها ، اما اذا كنا ممن يؤمنون بان الفقر فضيلة ، او ممن يقولون بان الانانية وحدها التي تستطيع ان تتحكم فى مصير الاشخاص ، فالضعفاء والذين لا يقدرون على الكفاح يجب ان يموتوا كما هو مذهب بعض الفوضويين ، ووجودهم لا يكون مشكلة لانهم اما ان يكافحوا للتغلب على القوت واما ان ينقرضوا، او اذا كنا من اتباع بعض الطرق المسيحية او الهندية الذين يصومون اياما عديدات ثم يكتفون بالماء او ببعض الحشائش ويعيشون مجتمعين فى قرية خاصة ، فمن العبث ان نحاول ايجاد فكر اجتماعي مبني على هذا الاساس . اما اذا اعترفنا بان الفقر مشكلة فيجب حينئذ ان نبحث هل وجوده امر طبيعي ام انه ناشيء عن ظلم المجتمع وسوء توزيع الثروة ، وحينئذ فيجب ان نكون ممن يؤمنون بان الله خلق للناس كلهم ما فى الارض جميعا ، وان الاقل الحيوي حق لكل احد . وحينئذ فقط تاتي مرحلة البحث : هل للفقراء حق معلوم فى اموال الاغنياء يجب ان يؤخذ من هؤلاء ويرد على اولئك كما تقتضيه تعاليم الاسلام والنظريات الاشتراكية الحديثة ، ام ان المسالة راجعة الى طريق الصدقة الاختيارية كما هي مذهب المسيحيين وبعض انصار « التضامن »من اتباع الديموقراطية الفردية .

وإذن فكلما حاولنا ان نقوم بعمل ما ، او نتخذ اتجاها، يجب ان ندرسه بعمق؛ ولكن لا يمكننا انندرس شيئا الا اذا آمنا بمبادىء اولية تصبح من المسلم بها عندنا ، وهكذا فى البحث عن مشاكل الاجتماع وطرائق حلها ، لايمكننا ان ننفك عن عقيدتنا العامة التي تصاحبنا فى كل الاحوال . وبما اننا مسلمون ومن انصار التقدم فى اطار الاسس الاسلامية ، فلا يمكننا ان ندخل فى ميدان العمل للمجتمع الا على اساس انه مجتمع اسلامي ، وان مصلحته فى تقويم اخلاقه وفى اصلاح ما اعوج من شؤونه ، بناء على ما تقتضيه رغبته المبنية على العقيدة التي يؤمن بها .

وهنا تعترضنا بعض المسائل، التي يوجد لها مبرر مثلا فى حكم المجتمع المغربي المبنى على فهم الناس للدين فيها فهما خاطئا ، فيجب قبل كل شيء أن نتفق مع مواطنينا على تقويم ذلك الفهم ، وهذا كقضية تعدد الزوجات او الطلاق مثلا ، فقد جرى العرف باعتبارهما امرا عاديا على الصفة التي كانا عليها ، وقد ادى درس الحالة الاجتماعية الى التحقق من بعض الاضرار الناشئة عن استعمالهما فى غير حدودهما الشرعية. ولكن اصبح من الضروري ان يفهم الناس الحقيقة الاسلامية فيهما لينظروا اليهما نظرتهم الى مشكل اجتماعي يجب حله ، والا لم يكن للقوانين مهما شرعت أثر عظيم فى تكوين وعي اجتماعي او فكر عام ضدهما. حقيقة ان من طبيعة المصلح ان يغير من امر المجتمع ، ولكن يجب ان يقتنع الناس بان ما يدعوهم لتغييره او اتباعه يتفق مع الاصلاح الذي يرغبون فيه . فالاصلاح كيفما كان يستند هو الآخر الى عقيدة يجب الاقتناع بها او نظرية يجب توضيحها للناس وجعلهم يقبلونها . وهكذا يتكون الفكر الاجتماعي من وجود الضرورة الاجتماعية التي يحس المجتمع بها ويتحرك للعمل لها بعد ان يكون حولها نظرية مبنية على المثل العليا التي يستوحيها من شعوره ومن المبادىء التي آمن بها من قبل .

واذا كانت علوم الاجتماع او الخدمات الاجتماعية قد تقدمت تقدما محسوسا فى الغرب الذي نأخذ عنه اليوم ، فان الاستعمار قد كون كذلك اجتماعيات المستعمرين ، وحاول ان ينحرف بهم عن الاتجاه الصحيح الذي كان يجب ان يسيروا فيه ، وقد اصبح الاجتماع كعلم ، خاضعا للنظريات المختلفة، فاجتماعيات البورجوازية الامريكية غير اجتماعيات المدنية الاشتراكية ، واجتماعيات الدول الاستعمارية الغربية غير اجتماعيات الدول المستعمرة ، ولكل من هذه كتب وآداب تقرأها فيخيل اليك انها تمت للحقيقة بصلة ، وما هي الا تسجيل لواقع ادى اليه ظرف خاص تم تفسيره بمقتضى ما تؤمن به كل طائفة ومازين اليها من ضروب معيشتها ونظرتها الخاصة للحياة .

ومن المعلوم ان الباعث الاول على الاستعمار هو ايجاد الاسواق الاقتصادية للدولة المستعمرة ، وايجاد اليد العاملة والجنود التي تحمي النظام الاستعماري ، وقد استطاعت الدول الغربية ان تسخر لهذا الغرض كل الاسباب التي كانت فى متناول يدها ، ولكن السيطرة على بلد ما ، لا تعني دوامها . لذلك فكر المستعمرون فى ضرورة سيطرة روحية واجتماعية على على المستعمرات ، تضمن لهم البقاء فيها الى اطول امد ممكن . وهكذا اصبح من الضروري العمل على

تغيير الذهنية الاهلية ، ومحاولة خلق رجل اهلي على صورة المستعمر ، بحيث ترى الذي يحمل اسم (محمد) او (عبد القادر) وكانك ترى (جبريالا) او (جاكا) يفكرون تفكيرا واحدا ويحكمون على الاشياء حكما واحدا طبقا للمنهج الذي قصده المستعمر .

ولتحقيق هذا الهدف البعيد ، فقد اعتمد المستعمر على عناصر ثلاثة مهمة :

الاول ـ اللغة

الثاني ـ المدرسة

الثالث ـ القانون

فقد بذل المستعمر كل ما في مستطاعه لاحلال لغته الخاصة محل اللغة القومية ، فعل ذلك في المصالح العامة وفي التجارة وفي المدرسة وفي كل النواحي ، ولم تمض مدة قليلة حتى اصبح الشباب في المستعمرات لا يتكلم في المسائل ذات الاهمية ولا يكتب حولها الا بلغة المستعمرين .

ومن المعلوم ان الغاية ليست هي احلال كلمات محل اخرى ، ولكن احلال فكرة محل اخرى ، لان الكلمة هي التي تشتمل على كثير من الاعتبارات والنظريات ، وهي التي تلهم المتكلم اساليب من النظر ومن الفهم ومن السلوك لا يستطيع غير الكلمة ان يفهمه اياها . وقد نجح المستعمرون في هذا نجاحا كبيرا حتى انهم استطاعوا ان يجعلوا في الشباب من يقدر على التفكير بلغتهم ولو تكلم او كتب بلغته هو ، فاللغة الاجنبية مهدت للمستعمر سبيل السيطرة على فكر المستعمر ـ بالفتح ـ وتوجيهه الوجهة التي يريدها الاجنبي ولو في اثناء مقاومته له ومحاربته اياه ، لقد اصبحت الكلمات العربية مثلا فارغة من معانيها الاصلية في نظر العرب انفسهم ، ولكنها عامرة بالمعاني التي تشتمل عليها الكلمات الاجنبية التي تقابلها عادة في الاستعمال ، ونشا عن ذلك تحول في مدلولات القيم وفي مفهومات العقائد والديانات ،وهكذا تغلغل الاستعمار في صميم حياتنا في افكارنا ودياتنا ومبادئنا ، فنزع عنها ما هي قائمة به في اعماقنا ، واذا بنا نجدها خارجة عن وجودنا وغريبة عنا ، فنحكم عليها بما يحكم به الاجنبي ونبني عليها ما يبنيه الاجنبي من احكام ونظريات ، طبقا للتطورات التي حصل هو عليها ، والظروف التي تفاعلت في نفسه هو حولها .

فلناخذ مثلا ، كلمة الدين ، هذه الكلمة التي تعني في اللغة العربية نوعا من الايمان الذي يظهر اثره في السلوك وفي الطاعة ، وتعني في الاصطلاح الاسلامي ما شرعه الله على لسان انبيائه من الاحكام كمعرفة الصلاة والصيام والزكاة ، وهو بذلك صلة قربى بين الانسان وبين ربه ، ورابطة اجتماعية بين معتنقيه ، تحملهم على نوع من المحبة وضروب من الاخوة لا يستطيع غير الدين ان يحملهم عليها ، وهي ابعد ما تكون عن وجود وساطة بشرية او نظام كهنوتي يخضع المتدين لفئة من الاحبار او يجعلهم متحكمين في ضميره او مالكين لمصيره ، فالدين يعني قبل كل شيء اختيار امن الانسان لا يريد به الا مرضاة خالق اعلى ، وهو بذلك بداية التحرر من كل سيطرة ارضية كيفما كان لونها ، لان كل خضوع لغير اوامر الله يعتبر في نظر الدين اشراكا به وطغيانا يجب ان يقاوم وان يرفض .

فاذا نحن اخذنا الكلمة التي نستعملها عادة مقابل الدين وجدناها هي : (Religion) ـ راجيون ـ ولكن هذه تعني معاني اخرى غير ما اسلفناه ، فهي تشير قبل كل شيء لنظام كهنوتي فيه الرهيب وفيه الاعتراف ، وفيه سيطرة البشر على اخيه ، وتحكمه في غفران ذنبه وقبول توبته و (Religiosité) « روليجيوزيتي » تعني استسلاما كاملا لهذا النوع من العبودية ، واشراكا في العبادة نفسها بغير الله عن طريق الامتثال ـ ولا اقول الطاعة ـ لكل ما يامر به رئيس الديانة او ينهي .

وطبعي ان هذا النوع من الفهم الغربي لمدلول الدين ، طبقا للمحتويات التي كونتها ظروف المسيحية الاولى ، والتي كان الاسلام ثورة عليها واصلاحا لها ، كان له اثر متناقض في نفوس الغربيين منذ بداية الاصلاح الديني البروتستانتي ، ثم اثر اخطر منذ ان طغى رجال الدين على اهل الدين ، واصبحوا يمنعونهم من الدراسة ومن المعرفة ، ويحولون بينهم وبين التطور في نظام الحياة والاخذ باسباب الرقي المادي . ونشا عن ذلك ان احس المجتمع بضرورة التحرر من الدين ، بالمعنى الغربي ، اي من الثورة على سيطرة الكنيسة وتحكم الرهبان ، والتحرر من الاستقراطية الاقطاعية التي ما كانت تبحث عن مرضاة الشعب وربه ، بقدر ما كانت تبحث عن غفران الاب وربط احسن الصلات بالبابا .

وهكذا وقعت حركة افكار سرعان ما اصبحت فصولا ممتعة تكون قسما مهما من آداب الغرب الذي يبحث عن الحرية وينشد الانعتاق ، وكان من نتائج

ذلك قيام الثورات المختلفة التي حسبت ان خطأ وان صوابا ان اول ما يلزم عمله لتحرير الشعب هو استبعاد المظاهر الاقطاعية بكل ما كانت تتمثل فيه ، واصبحت الدولة نفسها لكي تتمكن من تحقيق اهدافها في التنظيم وفي الاصلاح ، مضطرة لان تعلن انفصالها عن الكنيسة اي عن (Religion) (رليجيون لا عن الدين ، لان المجتمع المسيحي لم ينفك في غالب رجاله عن الايمان بالعقيدة الدينية ، ومتمسكا بالاخلاق المسيحية ، وفعلا امكن للدولة ان تحل محل الكنيسة في غير العبادة الفردية ، اي في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية ، وان كانت لا تختلف في اعمالها عن مقتضيات الدين وروحه اذا نحن اخذناه بالمعنى الذي نفهمه نحن من الدين .

ولنضرب لذلك مثلا امر الطلاق ، فالمسيحية الكاثوليكية تحرم الطلاق بكل معنى الكلمة ،وتجعل الزواج ابديا ، ولكن هنالك بعض الحالات القليلة تسمح فيها بوقوعه متى عرض الزوج او الزوجة ذلك على البابا وقرر هذا وقوعه . كما ان هنالك حالات الانفصال الجسمي الذي يقع هو الاخر بناء على موافقة رجال الدين ، فلما وقعت الثورة على الكنيسة لم يتحرر العالم المسيحي من نظرية منع الطلاق ، ولكنه توسع في فهم الحالات التي يقع فيها ، ونقل اختصاص الكنيسة الى اختصاص القضاء ، فاصبح من الممكن للمحكمة متى عرض الزوج او الزوجة عليها خلافهما ان يقرا الفصل الجسماني او يحكما بالطلاق او ان يرفضا ذلك ، فالمسالة اذن لم تخرج عن الاساس الذي بني عليه الزواج المسيحي ، وكل ما هنالك انها خرجتا عن الدين ، بالمعنى الكنسي للكلمة .

فاما عندنا ، فقد نسينا مدلول (الدين) بالمعنى الاسلامي ، وهو مجرد تشريع ، وملانا الكلمة بما تدل عليه الترجمة الفرنسية ، فاصبحنا بطبيعة الحال نفهم من معنى الدين ما تحتويه كلمة (Religion) (رليجيون) واصبحنا نفكر في امر الدين بما يفكر به الغرب ، وما نقراه من آدابه الموجهة قبل كل شيء لنقد مجتمع مبني على تحكم الكنيسة وصعوبة الطلاق ، ولو في حالات تلبس احد الزوجين بالزنا ، وقيام ارستوقراطية اقطاعية يحميها رجال الكنيسة وتستعبد معهم الشعوب . وهكذا وجدت عندنا مشكلة فصل الدين عن الدولة مثلا ، ومشكلة الطلاق وما اشبه ذلك مما هو بعيد عن ان يكون مشكلا في وطننا .

فالدين بالمعنى الغربي لا وجود له في بلادنا ، والدولة والدين شيء واحد ، لان الدولة لابد ان تقوم على عقيدة او على خلق ، ولا بد ان تكون حامية لقانون، وهي المسؤولة عنه وعن ايجاده اذا لم يكن موجودا ، وكل ما هي مطالبة به ان تكون موافقة لرغبات الامة في تصرفاتها وفي اعمالها ، فالدولة الاسلامية ليست دولة « اكليريكية » بالمعنى الذي يفهمه الغرب ، بل يمكننا ان نقول انها « لايكية » بطبيعتها ، لا لانها منفصلة عن الكنيسة ، ولكن لان الكنيسة غير موجودة وليست من طبيعة الدين الاسلامي ولا جزءا منه .

والطلاق في الاسلام يختلف تماما في مدلوله وفي اصله عن الفصل الجسماني ، وعن الطلاق الذي يحتاج الى اذن الكنيسة ، لان الكنيسة اولا غير موجودة ، ولان المتحكم في شأن الفرد هو ضميره ، وكل ما هنالك ان العصمة بيد الزوج على اساس ان الرجل هو رئيس العائلة وان عقد الزواج يكون قائما على هذا الوضع ، وللزوجة ان تشترط ان يكون لها مثل ما للزوج من حق، وهذا اذا سارت الاحوال في العائلة سيرها الطبيعي ، اما اذا خرجت عن ذلك فان القضاء يتدخل للاصلاح بقدر الامكان ، او لارتكاب اقل الضررين ، وهو التطليق للاسباب الشرعية التي تقتضيه .

فتفكير المسلمين عوضا عن ان ينفذ الى ظروف التطور الغربي في امر الطلاق وكونه امتدادا للمعنى المسيحي ، وتدخل المحكمة فيه انما هو تحرر من تدخل الكنيسة ، بينما الاسلام يجعل الاشياء في يد الافراد ، الا اذا احتاجوا الى تدخل الحاكم ، بناء على ان انصاف الناس بعضهم البعض يغني عن القضاء على حد قول الشاعر :

لوانصف الناس استراح القاضي
وجنح الجميع للتراضي

عوضا عن ان ينفذ لذلك ، سيتخذ من تشابه الكلمات ضرورة التشابه في الفكر وفي الحكم عليها ، وهذا من آثار السيطرة الغربية على تفكيرنا ، حتى اصبحنا نزن الامور لا بقيمتها التي نعطيها لها ، ولكن بحسب القيمة التي تعطيها ظروف التطور الغربي المسيحي لها .

وهذا الاختلاط في الكلمات بين مدلولها العربي ومدلولها الاجنبي ، صعب على شبابنا التفاهم مع بعضه، فاصبح الذين يتقنون اللغات الاجنبية يتكلمون بعربية غير مفهومة باعتبار المقاصد التي يعطونها لها ، واصبحوا هم ايضا لا يفهمون اخوانهم الذين يتكلمون بالعربية حسب مدلولاتها التي اعطاها لها الفكر العربي او المغربي على الاقل .

فانت متى تحدثت مع بعض اخواننا من المثقفين عن وجوب الطاعة ... لووا رؤوسهم وهم معرضون ، وقالوا : اننا نريد الحرية ، ان العهد الذي يؤمر فيه المرء فيطيع ، والعصر الذي فيه مطيع ومطاع قد ذهب كله الى غير رجعة . فاذا سالتهم ماذا تريدون اذن ؟ قالوا : نريد الامتثال ، وكان موسيقى هذا (الافتعال) اوقع في نفوسهم طمانينة لا حد لها ، لانهم خرجوا عن المالوف من الطاعة العربية ، وجاءوا بما يعبر عن مفهومهم من الطاعة الغربية ، ولكنهم في واقع الامر يخطئون ، فالطاعة ، تعني قبول الامتثال او الاجتناب قبولا نفسيا مبنيا على طواعية واختيار ، لان الطاعة ليست امرا فقط ولا نهيا فقط ، ولكنها اختيار لسلوك فيه اتباع وفيه ترك ، اما الامتثال فهو يقتضي الخضوع المطلق لما يريده الغير ، وهي اقرب ما تكون الى كلمة (Conformisme) (كونفورميسم) والعبودية التي يفرون منها انما تتحقق بهذا الامتثال الذي يفنون به.

ويمكننا ان نذكر كثيرا من هذه الكلمات التي اصبحنا نفهمها على غير وجهها ، ونفكر بمقتضى فهمنا الخاطيء لها تفكيرا ابعد ما يكون عن الصواب أو على الاقل عن ما نرغب ان نفكر فيه . فالصلاة في مدلولها الاسلامي غيرها في المدلول الفرنسي ، والخلق ، والآداب ، والشريعة ، والشورى ، والحكم ، والزكاة ، والملك ، وغير ذلك من الكلمات التي يختلف تفكيرنا الاجتماعي حولها باختلاف المدلول الذي نعطيه لها .

فالسيطرة عن طريق اللغة احدثت وتحدث في وسطنا خسارة لا حد لها ، ولا يمكننا ان نعتبر انفسنا احرارا بمعنى الكلمة الحقيقي ، الا اذا حررنا فكرنا من اللغة الاجنبية ، وحررنا كلماتنا القومية من المدلولات الاجنبية عنها ، واني اعتبر هذه الخطوة اساسية لتحقيق فكر اجتماعي صحيح .

**

اما العنصر الثاني ، فهو المدرسة ، وطبيعي ان هذه من وسائل نشر اللغة ونشر الفكر الذي يريده المربون ، وقد تعمد الاستعمار ان يتخذ سياسة تعليمية تقوم على اساس التمهيد لتكوين الجيل الذي يريده . فهو من جهة لا يعطي من المعرفة الا بمقدار ما يتوقف عليه الحاكم الاجنبي، والمعمر والتاجر الاجنبيان، من خلق معاونين اويد عاملة تساعد المختصين من الاجانب في كل ما يريدون ، ومن جهة اخرى يحاول ان يجعل من برنامجه الفكر الذي يؤمن به الاهلي ويعمل له ، حتى يصبح تعبيده امرا ميسورا لانه سيصبح ذاتيا مقبولا . ولقد راينا المدرسة الاهلية كيف تجرد من اللغة ومن الدين الاهليين ، وكيف لا يعلم فيها الا تاريخ الغاليين والسكسونيين ، ولا يعرف منها الا جغرافية الارض الفرنسية وما اليها، وحتى بلادنا لم تكن تذكر فيها الا بقدر يسير ، وكجزء من مجموعة الاتحاد الفرنسي وشعوبه ، واصبحنا نحن العرب المسلمين نتحدث عن آبائنا الغاليين ، ولا نرى من الحضارة واساليب الحياة وادب السلوك واخلاق المدنية الا ما يعلمنا اياه الاجنبي او يريد منا ان نفعله . حتى اذا خرجنا من التعليم الابتدائي الموجه ودخلنا الى ميدان اوسع نسبيا، لم نعرف الحرية الا من طريق الادب الاجنبي ، ولم نرها الا على الصفة التي عينتها ظروف الثورة الفرنسية وآدابها .

ومن حسن الحظ ان ثورة عارمة نشات من شرق اوربا زعزعت الثقة فيما قاله الغرب وما كتبه ، ووضعت مقاييس الغرب وتفكيره في الاجتماع وفي الاقتصاد موضع التفيير من جديد ، فشعر العرب بمقدار الخطا الذي وقعوا فيه ، فاخذوا يبحثون عن التخلص من آثار الغرب في افكارهم وفي انظمتهم ، ولم تعد الديمقراطية الفردية وآثارها المثل الاعلى الذي لا يمكن لاحد ان يطعن فيه او يظهر غير راض عنه .

ولكن العرب لم يتعظوا الى الحد الذي لا يغترون فيه بالدعوة الجديدة ،فقد كان عليهم ان يرافقوها الى حد التحرر من مقاييس الغرب ، ثم يستقلوا في دراسة امورهم مستوضحين احوالهم من وعيهم الباطني ، غير ناسين ان هذه الثورة العارمة وان عارضت اساليب الغرب ، فانها في واقع الامر ليست غير تطور منطقي للديمقراطية الغربية ، ولا يمكن ان تتحرر من آثار الاسرائليات الاولى في نفوس شعوبها .

فالمسالة اذن تستوجب منا ثورة في الفكر تخرج بنا من اطار السجن الذي وضعت المدرسة الغربية افكارنا فيه ، وانطلاقة ذاتية تجعلنا نحس بوجودنا الخاص وتثبته ، ونستمد منه ومن مختلف مظاهره ومعالمه وعوامله، العناصر التي نكون بها فكرنا الاجتماعي، في تحرر من سيطرة الغرب وتقاليده سلبا وايجابا .

ونحن بحاجة الى مدرسة جديدة تعلمنا الى جانب العلوم التي لا تختلف باختلاف الشعوب ، وجودنا كما هو ومن اين يبتدىء واين ينتهي . تعلمنا جغرافية ارضنا والارض التي تمتد اليها ، وطبيعة اجوائها

والتفاعلات الانسانية التي كونت تاريخها ، والحضارة التي امتهدت بها ، وكيف كانت صلتها بالغير والعواطف الانسانية التي تبلورت في الدين وفي الخلق حتى كونت هذا التراث الاسلامي الذي نعتز به .

اننا نريد من المدرسة المغربية ان تعلمنا انسانيتنا لا انسانية الآخرين .

ومن المعلوم ان الانسان ليس هو ما يعرفه من هذه القواعد في النحو والصرف ، ولا ما يحفظه من هذه النواميس العلمية او الرياضية ، لان ذلك كله لا يعدو ان يكون صناعة ابتكرها الانسان او اكتشفها ليحقق بها انفعالات الحياة له . ولكن هذا الابتكار او الاكتشاف كان نتيجة لشيء آخر اعظم واهم ، هو الذي يكون الانسان في ماهيته ، هو صفاته التي يمتاز بها عن غيره من الحيوان ، هو الفكر الذي يعقل به ، وحب العمل الذي يميزه ، والناموس الذي يضفي عليه طاعة يقدر بها على معاشرة الآخرين ومؤانستهم ، ويخلق بها حضارته الخاصة التي فيها من المظاهر ما يعجب ومن الاسرار ما يتفق ومجموع فكره وناموسه وعمله . هذه الانسانية التي يعتمد عليها كل شعب في دراسته العامة ، والتي لا يمكن ان تتحقق الا اذا اجتمعت فيها كل المقومات القومية الخاصة التي ذكرناها .

واذن فالمدرسة القومية يجب ان تخلق منا اناسا على فطرتنا لا على صورة الآخرين ، اي اننا نريد منها ان تشذب حيويتنا وما يحدثه الوسط الذي نحن فيه من انحرافات عن فطرتنا ، عن طريق ردنا لانسانيتنا التي هي الفطرة .

والسياسة التعليمية اساسية في توجيه المجتمع وفي خلق الجيل الواعي الذي يؤمن بالعقيدة ويكافح من اجل العمل بمقتضاها ، واول واجباتنا ان نعيدها حيث يجب ان تكون ، لا حيث وضعها المستعمر ، ومتى فعلنا ذلك فاننا سنصبح مهتمين بتعليم ابنائنا التفكير، وندلهم على طرائقه ، ونحبب لشعبنا العمل ، ونعلمهم وسائله ونهييء لهم مراكزه ، ونضفي عليهم من ناموس دينهم ما يجعلهم يؤمنون بالعقل ويصدرون عن القلب ويعملون لصالح المجموع .

**
*

اما العنصر الثالث فهو القانون، وقد اراد المستعمر ان يتخذه وسيلة لادماجنا في وجوده ، فعمل قبل كل شيء على اقناعنا باننا امة لا قانون لها ، ووجه النور على بعض الاعراف الجاهلية التي ارادان يردنا بها الى ما قبل التاريخ ، حيث كان هو قبل ان تدخل المسيحية لاوربا ، وقبل ان يحمل العرب شريعتهم وتقاليد فروسيتهم الى بلاده ، متخيلا انه متى بعث في نفوسنا حب التفكير في واقعنا العرفي ، الا واحسسنا بضرورة الخروج من عادات تعتبر المراة متاعا يباع ويشترى ، ولا ترى لخلق العائلة الا صورا بدائية تختلف عما نؤمن به في قرارة انفسنا ، وحينئذ سنجد من هذه المحاكم الاجنبية التي اسسها والقوانين التي دونها ، ما نعتبر الوصول الى تطبيقه علينا مثلا اعلى نجاهد من اجله . وبذلك ننشد (التفرنس) عن طريق القانون، وبما ان لنا من التقديس للشريعة ما ليس لغيرنا، فاننا سنعتبر القانون المسطور وحده الموجه لنا في اعمالنا والمسير لاخلاقنا ، وهكذا يقضي على اخلاقنا الاسلامية ، التي تعتبر الحسن حسنا ولو لم يكن مدونا في قانون ، والقبيح قبيحا ولو لم تصدر ضده ظهائر ولا مرسومات . ولكن اسلاميتنا كانت اعمق مما حسبه المستعمر ، فلم تمس المحاكم الشرعية في البربر بسوء حتى ثارت ثائرتهم وعم رد الفعل في جميع البلاد ، وكما ادرك هو قيمة القانون في تعبيد الشعوب ادركنا نحن قيمة التمسك بالشريعة الاسلامية في اثبات وجودنا وتحقيق حريتنا ، وكان للدفاع عن الشرع الاسلامي فضل تكوين هذه الحركة الوطنية التي دفعت بالشعب للعمل حتى نال الاستقلال . واخذ يعيد النظر في قوانينه في دائرة الروح الاسلامية والخلق الديني .

والسلوك الفردي شيء ضروري في امر القوانين ، لان المشروع لا يتدخل عادة الا اذا حكم المجتمع على شيء بالحسن او القبح . والمجتمع لا يحكم الا بمقتضى اصول اخلاقية يؤمن بها ويمضي عليها . وقد يخالفها احيانا ولكنه يقر دائما باستنكار فعله ما دام مؤمنا بتلك الاصول .

وقد نظر اسلافنا نظرة عميقة لهذه المعاني ، فابتكروا ما سموه باصول الفقه ، وهو ما اطلق عليه الشيخ علي عبد الرازق والعلامة ماسينيون (اجتماعيات الاسلام) ، ذلك انهم نظروا في ظروف التشريع وفي الغاية منه وتتبعوا نظائره ، فخرجوا باصول عامة لا يمكن للقانون ان لا يعتبرها، كما لا يمكن للفكر الاجتماعي ان يكفر بها .

فهنالك اشياء اجمعت الملل والنحل على حفظها كالارواح والاموال او الدين والعرض ، فكل قانون مهما تطور في تفاصيله لابد ان يراعي حماية ارواح المواطنين

الا بالحق ، ورعاية اموالهم سواء كان ذلك عن طريق الملكية الخاصة او المشتركة ، والمحافظة على خلق العائلة التي لا ينكر ضرورة بنائها احد ، والدين، اي الطاعة التي يقرر المرء ان يسلك عليها .

وهنالك مبادىء كالعدل والمساواة لا بد من مراعاتهما في ادق تفاصيلهما . وقد تتطور في ادراكهما ، ولكن يجب ان نسعى دائما لتحقيقهما .

ومما يدخل فيه ، عدم الضرر وعدم الضرار على السواء ، **فالاول** يحمي حق الفرد ، **والثاني** يفرض عليه واجباته ، لان الضرار هو عدم مجاوزة الحد ، او هو عدم العبث باستعمال الحق .

وهذه اصول لابد ان نراعيها حينما نفكر في العمل، وعلاقته بصاحب راس المال ، سواء كان فردا او جماعة او حكومة . وبشمول تفكيرنا في جوانبها يمكننا ان نقرر الاسلوب الضروري للمجتمع ، لان الغاية ليست هي ايجاد طريقة للحياة كيفما كانت اشكالها ، ولكن الغاية هي تحقيق عدالة اجتماعية لا ضرر فيها ولا ضرار ، وهما العدل والاحسان اللذان امر الله بهما عباده . فالعدل هو عدم وقوع الضرر ، والاحسان هو عدم مجاوزة الحد في اكتساب الحق ، لانه من باب احسان العدل واتقان الحكم ، وليس هو الصدقة ، كما يحاول المستغربون ان يقولوا ، بناء على ان الكلمتين قريبتان من مدلول (العدل والصدقة المسيحيتين) .

فالتحرر اذن من القواعد الاولى للتقنين الغربي . والنظر في اصول تشريعنا ، اي في اجتماعيات الاسلام ، وفتح آفاق جديدة فيه ، مما يساعدنا على تكوين الفكر الاجتماعي القومي ، في بعد عن تاثير الاجتماعيات الطبقية او غيرها ، لانك حينما تقرأ هذه الاجتماعيات الاجنبية تجدها فروضا وتخمينات تتناقض باعتبار العقيدة التي يؤمن بها اصحابها . وبما ان لنا عقائدنا الخاصة فلا بد من ان نستخرج ما تستوجبه من اجتماعيات تخضع لحكم اخلاقي يختلف عن احكام الآخرين .

ان هذا لا يعني ابدا اننا سنعتزل كل تفكير اجنبي ، او انه لن يكون هنالك التقاء بيننا وبين نظريات الآخرين ، بل ان الامر بالعكس ، قد نلتقي كثيرا وتستمد من بعضنا اكثر ، ولكن يجب ان نصل الى كل شيء بمقاييسنا وبمجهودنا الخاص . وهكذا نكون احرارا في اكتشاف آفاق انسانية ربما لم يكتشفها الآخرون ، وربما اصبحت موضوع اقتباس واقتداء بنا من الغير .

ففكرنا الاجتماعي اذن ، يجب ان يستمد عناصره من وجودنا ، واحكامه من اخلاقنا ، ثم عليه بعد ذلك اذا اقتبس من اساليب الغرب التقنية ما يستطيع ان يصل به الى استخراج الواقع الذي يريد ان يحكم عليه ، من تقسيم للبيئة التي يدرسها ، واحصاء للنوع الذي يبحث عنه ، وطرائق لتحقيق العلاج الذي سيطبقه . ومعنى هذا ، ان الفكر الاجتماعي يجب ان :

1) يتبلور اولا في مرحلة العقيدة التي ستكون معيار الحكم على الاشياء .

2) ثم في الوسائل التقنية التي تصور الواقع كما هو باسبابه ومسبباته .

3) ثم في الفكر الاجتماعي الذي يحكم على هذا الواقع باسبابه ومسبباته . وحينئذ يمكننا ان نتناول بعضا من مشاكلنا الاجتماعية لنرى كيف نساير هذه المراحل ، في اطوارها .

فقضية البغاء ، لا يمكن ان تعتبر كما قلنا مشكلة اجتماعية الا في البلد الذي يؤمن بخلق العائلة طبقا لمقتضيات دين ما او نظام ما . وبما اننا مسلمون فلا شك اننا نعتقد تحريم البغاء ، ففكرنا الاجتماعي لا يمكن ان يحكم فيما يخص البغاء الا بضرورة علاجه . وهذه هي المرحلة الاولى .

ثم نأخذ العدة للمعالجة، فنبحث عن مدى انتشار هذا الداء في المجتمع المغربي ، وما هي البيئات التي ينتشر فيها اكثر من غيرها ، وكم عدد الزانيات المسجلات رسميا وعدد غير المسجلات ، وما هي الاسباب التي تحملهن على البغاء ، هل هي سوء التربية، ام الرفقة السيئة ، ام الفقر ، ام احدى الامراض الخبيثة الخاصة .

ومتى اتممنا هذه الدراسة بالوسائل التقنية الحديثة وارجعناها لاسبابها ، امكننا علاجها بما تقتضيه عقيدتنا التي تفرض ان لا يضار احد ولا يضر احدا . وامكننا ان نجعل القانون المتعلق بالبغاء خاضعا لهذه الاعتبارات التي رايناها تخفيفا وشدة ووجودا وعدما . فالمريض يجب ان يعالج ، والفقير يجب ان يبحث له عن وسيلة للكسب ، وغير ذلك يجب ان يتخذ له ما يقي

منه او يعالجه . ومن هنا نجد ان فكرنا الاجتماعي حينما يصل للمرحلة الثالثة يجد ارتباطا متينا بين مشكلة واحدة وغيرها من المشاكل ، فالبغاء يجر الى مشكلة الفقر والغنى ، وهذه تجر لامر توزيع الثروة وتنظيم الموارد ، ويجر ايضا الى قضية الصحة ووسائل العلاج وتمكين المواطنين منه ، كما يجر الى امر الاسرة وبناء دعائمها ، والمدرسة وعدم اقتصارها على التعليم ، وحماية النظام العام ، ومسالة الكبت الجنسي والزواج المبكر وتعدد الزوجات ، وتكاليف العائلة وهل تتحملها الدولة او الفرد ، والموارد القومية وضرورة تنميتها ، والتصنيع وراس المال والعمل ، والهجرة من البادية الى المدينة ، والفصل بين الرجل وزوجه عن طريق هذه الهجرة ، ورعاية الشباب في سن المراهقة ، ونظام الحضانة واليتم والابومة ، واشياء كثيرة اخرى .

وهكذا ندرك اننا لا نستطيع تكوين فكر اجتماعي منفرد حول مشكلة ما ، الا اذا وضعناها في اطار فكرنا الاجتماعي العام الذي يقوم على عقيدة وعلى خلق .

ومثل هذا يمكن ان نقوله عن الخمر وعن المخدرات التي ربما يتعاطاها الناس لمجرد التخفيف من الهموم التي تحل بهم ، فيؤدي ذلك الى البحث عن الهم واسبابه ، الامر الذي يجر الى سرد كل ما تقدم وغيره

اما اهم مشاكل الاجتماع فهي قضية توزيع الثروة ، فالذي لا شك فيه ان الملكية الحالية طغت على حدودها الشرعية ، واصبحت طمعا قويا يبعث الناس على الحصول عليها بمختلف الوسائل حلالا كانت او حراما ، وذلك ما ادى الى امتلاك طبقة خاصة من الناس كل وسائل الانتاج ، خصوصا منذ ان اكتشف البخار ، ونشأت الصناعات الثقيلة ، وتضخمت الراسمالية الغربية ، وشاع الربا واصبح النظام الاقتصادي يقوم على اساس التوفير والاحتكار ، فاستعبد الاغنياء العمال وازداد ذوو الثروة ثراء وذوو الفقر فقرا ، واصبح واضحا بينا ان الاحتيال على السرقة وعلى الاثراء شيء معترف به ومشروع في كل القوانين المعمول بها . وجاءت الثورة الفرنسية ومثيلاتها فاعطت للملكية قدسية ما اعطتها لها الديانات ولا النظريات الفلسفية من قبل ، فتكونت الديموقراطية الفردية ، واصبح بعض اذكياء الطبقة الوسطى يحلون محل الاقطاعية الاولى ، فكان هذا النظام الراسمالي العصري الذي ترزح تحت اعبائه عن طريق الاستعمار الغربي ، وكان رد الفعل الاشتراكي الذي اعطى هو

الآخر للملكية قيمة عظمى ايضا بصفة سلبية ، فحصر كفاحه كله من اجل القضاء عليها . ولكن الواقع ان الملكية ليست من القداسة بالذي يجعلها في الدرجة التي وضعتها فيها الديمقراطية ، ولا التي وضعتها فيها الاشتراكية ، لانها لم تكن الا وسيلة من وسائل الاستقرار للنظام الاقتصادي ، فهي مباحة ما دامت لم تحدث ضررا باحد ، ثم هي بعد ذلك من السهل ان تتكيف على الطريقة التي تقتضيها مصلحة المجتمع واقامة العدل بين الناس .

فالمسالة هي ليست فيمن ذا الذي سيكسب وسائل الانتاج ، ولكن فيما هي الوسائل التي تجعل النتائج مقسمة بعدل بين جميع الذين يبذلون الجهد في خلق عمل ما ، او في المساعدة على انجازه .

ولذلك فالقضية تستدعي حصول وعي اجتماعي للمطالبة بالعدل . ثم قيام تعاون بين الحكومة والشعب، لاحصاء ممكنات الثروة الوطنية ، ووسائل تعميم الاستفادة منها للجميع ، عن طريق ايجاد العمل وتسهيل وسائله وايجاد التشريعات التي تحمي الصناعة بقدر ما تحمي العامل .

ودينا الاسلامي الذي يامرنا بالعدل والاحسان ، لا يمنعنا من ان نتطور في تفكيرنا فيما يخص المجتمع التطور الذي يحسن من احوالنا ويصلح من شؤوننا ، وقد عرف الاسلام نفسه ضرر امتلاك وسائل الانتاج فهدى الى اصلاحه بقدر ما تدعو اليه الحاجة ومقدار التطور الاقتصادي ، ومن مظاهر ذلك كون عمر بن الخطاب جعل اراضي السواد وقفا على المسلمين عموما، تدفع لمن يشتغل فيها مقابل خراج يعطيه للدولة ، وكذلك معظم اراضي المغرب من هذا القبيل كما تدل على ذلك انظمة الجماعة .

ومن ذلك نظام الوقف الذي يجعل الموقوف ملكا للطائفة الاسلامية تستغله لفائدة اعمال البر او المعرفة اوغيرها مما تقتضيه المصلحة العامة مما لايختلف مع مقاصد الواقفين ، وقد هاجم نظام الوقف (دمونبين) واضرابه من المفكرين الغربيين الذين ياخذون نقطة البداية في فكرهم من تاثير الراسمالية والاقتصاد الفردي ، ولم ينتبهوا الى ان الوقف من مظاهر الاشتراكية الاسلامية التي ارادت ان تحل المؤسسات العامة محل الملكية الفردية وان لم تقض على هذه بالمرة .

وقد ذهب مالك الى منع كراء الارض مطلقا ، وقال ان على مالك الارض ان يزدرعها بنفسه او ان يتـــرك غيره يزدرعها بدون مقابل .

والمهم من هذا هو ان معاودة النظر فى شان توزيع الثروة وفقا لما تقتضيه العدالة الاجتماعية فى غير تطرف ولا اضرار باحد ، من اهم ما يجب ان يستعد له الفكر المغربي ويعمل له الجميع .

وفى انتظار القيام بعمل حاسم لاصلاح مجتمعنا ، فان علينا ان لا نغفل عن كون الحكومة والنظام كيفما كان لونه ، ليسا الا من وسائل العمل لتحقيق الاهداف الحسنة . والا فعلى الشعب ان يبذل جهده هو الآخر لمساعدة الدولة على انجاز الاصلاحات التي يرغب فيها.

وطريقة ذلك ان يفكر فى موضوع ما ، ثم يضـع الخطط التي تمكنه من الوصول لانجازه ، ويجمع مـن حول ذلك الموضوع مجموعة من الذين يرغبـون معه فى العمل له ، ويعرضون الامر على الحكومة التي تنظر اليه بعناية ، وتدرسه بعطف، ثم تساعدهم على بذل نشاطهم فى تحقيقه .

وقد اعطى حزبنا قدوة طيبة لذلك فى طريــق التوحيد التي وضعنا خططها وجمعنا من حولها اولئك الذين استجابوا لنداء جلالة الملك فى شانها فكانــت تجربة مبشرة بالاستعداد الشعبي للقيام بجلائـــل الاعمال .

وقد اسسنا جمعية بناة الاستقلال التي اعلنت عنها فى خطابي الافتتاحي لمؤتمر الشبيبة الاستقلالية ، وغايتها هي ان تتصرف للخدمات الاجتماعية وتوجه نظر الجمهور المغربي لاداء واجبه فى بناء وطنه وتدعيم اقتصادياته ، وقد شاركت هذه الجمعية فى غابـــات الشباب وفى مشروع الشجرة ، وهي مستعـــدة الآن لمهاجمة مدن الصفيح فى طنجة وفى غيرها من مــدن المغرب .

وامامنا اليوم هذه الحملة التي تبتدئها الامـــة لمقاومـــة الاميـــة والتـربيـــة الاســاسيـــة ، فهي خير مثال للعمل الاجتماعي الذي ينشا عن فكر اجتماعي واضح ، وتتخذ له اساليب الانجاز الصحيحة، ويكون له من الانسجام مع رغبات الشعب ما يضمن استجابته له .

فالتعلم الاساسي واجب على كل مسلم ومسلمة، هذه عقيدة لا يتنازع فيها احد من ابناء قومنا ، والحاجة الملحة تهيب بالجميع لان يتعلم ، والذين حرمــوا فى الصغر لظروف خاصة من الحصول على القسط المعقول من الدراسة يشعرون بمرارة الجهل والحرمان الناشيء عنه ، كل ذلك اهاب بالحزب ان يؤسس العصبة المغربية لمقاومة الامية وللتربية الاساسية ، وان يطلب من جميع افراد الشعب أن يشاركوا فى حملته ، وعرض الامــر بعد ذلك على وزارة التربية الوطنية فتبنت الموضوع ، وقام جلالة الملك نفسه بواجبه اتم قيام ، اذ تقدم هو لاعطاء الدرس الاول ، ثم هب لامتحان تلامذتـــه فى الحملة الاولى ، وقد راينا نتائج الحملات السابقة عظيمة بالنسبة لآثارها فى عشرات الآلاف من الرجال والنساء، الامر الذي يبشر بنجاح كبير فى المرحلة التي ستبدا فى هذه الايام .

ولكن الحملة هذه المرة لا تقف عند تعليم الاميين القراءة والكتابة ، ولاكننا نريد منها ان تصبح وسيلــة لنشر قسط من المعرفة يفتح آفاقا لايجاد جامعـات شعبية يتدارك فيها الكبار ما فاتهم مــن التعلـم فى صغرهم . لان الامة على عجل من امرها ، وهي تريد ان تجند كل الطاقات الشعبية للحاق بالقافلة الانسانية التي سبقتنا فى ميدان العلم والثقافة .

هــــذه مناهـج التفكيـر الاجتمـاعـي ، اذا نحن سلكناها ولم نتناس وجودنا ، فاننا نستطيع ان نحقق بها اصلاحا اجتماعيا ينهض نفوسنا ويصلح مـن احوالنا من الوجهة المادية والخلقية ، وانني آمل ان اجد فى الشباب الاستقلالي ، الحواريين الصالحين لتحقيق بعث اجتماعي دعامته العدل ، واساسه اخـــلاق القرءان .

« ان الله يامر بالعدل والاحسان ، وايتــاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكـم لعلكم تذكرون »

النظام الراسمالي الجديد

للاستاذ السيد ابي الاعلى المودودي. امير الجماعة
الاسلامية بباكستان
ترجمة الاستاذ محمد عاصم الحداد

ان النظام الاقتصادي الذي نهض بنيانه على النظرية المطلقة للاقتصاد الحر، يصطلح عليه بـ « النظام الراسمالي الجديد » (Modern Capitalism)

مبادىء الاقتصاد الحر الجديد

واليك ، فيما يلي ، المبادىء الاساسية لهذا النظام.

1 ــ حق الفرد فى الملكية الشخصية :

وهذا الحق لا ينحصر فى ما يستعمله وينتفع منه الانسان بنفسه من الاشياء كالملابس والاواني واثاث البيت والمراكب والماشية ، بل يشمل ايضا تلك الادوات والمرافق التي ينتج بها مختلف الاشياء الاستهلاكية ليبيعها من غيره ، كالماكينات والآلات والاراضي والمواد الخام . اما القسم الاول فلا خلاف فى حقوق الملكية الفردية فيه ، وقد سلمت به النظم الاقتصادية كلها . ولكن النزاع ، كل النزاع ، فى القسم الثاني أي وسائل الانتاج : هل يجوز فيها ايضا حق الملكية الفردية ام لا ؟ فاولما يمتاز به النظام الراسمالي فى هذا الباب انه يسلم بهذا الحق بل هو حجره الاساسي الذي ينهض عليه بنيانه فى حقيقة الامر .

2 ــ حق الحرية فى السعي

اي ان للافراد حقا فى ان يستعملوا ما بأيديهم من الوسائل فى اي ميدان من ميادين العمل شاؤوا ، ولا يكون الا لهم او عليهم كل ما يحصل نتيجة لمساعيهم من المنافع او الخسائر . فكما انهم يتحملون عواقب الخسارة فكذلك لا ينبغي ان يقيدوا بشيء فى ارباحهم ، ولهم الحرية التامة ان يتسعوا فى انتاج بضائعهم وان يبيعوها بما شاؤوا من الثمن القليل او الكثير ، ويستخدموا العدد الذي يشاؤون من الرجال اجرة او مشاهرة، ويقبلوا، فى امر متاجرهم ومعاملهم ومصانعهم، ما ارتضوه من الشروط والتبعات ، ويضعوا ما شاؤوا من الضوابط واللوائح . وينبغي ان تتم سائر المعاملات بين البائع والمشتري والاجير والمستأجر والخادم والسيد بالحرية الكاملة فيما يتعلق بالتجارة او الصناعة، وينبغي ان يجري وينفذ فيهم كل ما اتفقوا عليه ، فيما بينهم ، من الشروط .

3 ــ كون المنفعة الذاتية هي الدافع الى العمل .

والذي يعول عليه النظام الراسمالي ، فى انتاج المرافق الاستهلاكية وترقيتها وتوفيرها ، هو طمع الافراد فى فوائدهم الذاتية ومنافعهم الشخصية ، وهو مما قد فطر عليه كل انسان ، وهو الذي يدفعه الى بذل السعي والجهد فى اعماله .

يقول المدافعون عن النظام الراسمالي : انه لا يمكن ان يوجد ، فى الحياة الانسانية ، دافع الى العمل خير من هذا ، بل لا دافع غيره . فعلى قدر ما يضيق امام الانسان مجال السعي لمنفعته الذاتية تفتر همته ويقل فيه جهده وسعيه واما اذا جعلت باب المنفعة الشخصية مفتوحا واكثرت من فرص الرقي ليكسب كل انسان ما يستطيعه ، فان الانتاج يزداد بنفسه ويرتفع مستواه ، وتستمر سائر الوسائل الممكنة تستعمل ، وتتسع للادوات المنتجة دائرة استهلاكها اتساعا على اتساعها ، ويكفل دافع المنفعة الشخصية وحده ان تنال المصلحة الجماعية من الافراد خدمة لا يمكن ان يسدوها اليها بطريقة اخرى غيرها .

4 ــ المنافسة بين الافراد :

يقول انصار النظام الراسمالي : ان هذه المنافسة (Competition) هي التي تحول دون تجاوز اثرة الافراد وحبهم لذواتهم حدودها فى الاقتصاد الحر ، وهي التي تقيم بينهم الاتزان والاعتدال . وذلك ما قد ضمنته

الطبيعة نفسها ، فانه اذا كان فى السوق الحرة عدد كثير من الذين ينتجون شيئا واحدا وعدد من التجار والمشترين كذلك ، فلا بد ان يتعين لقيمة السلع معيار متناسب لاجل المنافسة فيما بينهم ، فلا تتجاوز منفعة الافراد حدودها المعروفة ولا تقل عنها الا فى أحوال شاذة مؤقتة وكذلك لا يزال الاجراء والمستاجرون يقيمون لجعالتهم ومشاهراتهم معيارا متزنا بانفسهم بفضل المنافسة بينهم بشرط ان تكون هذه المنافسة بينهم حرة عامة غير مقيدة بنوع من الاحتكار .

5 ـ الفرق بين حقوق الاجير والمستاجر :

وفى النظام الراسمالي ينقسم رجال كل مؤسسة تجارية او صناعية فرقتين :

آ) الملاك الذين ينشئون التجارة او الصناعة ويديرونها ويتحملون على عواتقهم الادارة فى كل حال : خسارة كانت او منفعة .

ب) والاجراء او المستخدمين الذين لا علاقة لهم بالمنفعة او الخسارة فى قليل ولا كثير . وانما يصرفون اوقاتهم وجهودهم ومواهبهم فى هذه التجارة او الصناعة وينالون فى مقابلها جعالة معينة . فكثيرا ما تنهال على التجارة والصناعة الخسارة على حين يظل الاجير ينال اجرته المعينة . وربما بارت التجارة وافلس الملاك ؛ واما الاجير فغاية ما يحدث له ان يغادر هذا المعمل او المتجر ويشتغل فى غيره . فيقول المدافعون عن النظام الراسمالي : ان هذه الصورة للمعاملة تقضي بنفسها ان كل ما كان من ربح فى التجارة او الصناعة ــ بموجب العدل والنصفة ــ انما هو حق لمن يتحمل خسارتها ويجعل ماله ونفسه عرضة للاخطار . اما الاجير ، فلا ريب انه يستحق جعالته المشروعة التي تتعين فى السوق بالمعروف على حسب نوع عمله وكميته ، فليس لهذه الجعالة ان تزيد بحجة ان التجارة ــ او الصناعة ــ رابحة سائرة بالربح ، ولا أن تنقص بحجة ان التجارة ــ او الصناعة ــ قد منيت بالخسارة . ان عمل الاجير يجعله مستحقا لاجرته المتعينة فى كل حال ، وهذه الاجر والجعالات لا تنقص ولا تزيد الا حسب القانون الفطري الذي به تنخفض او ترتفع قيمة سائر السلع والبضائع فى السوق . فان قل المستأجرون وكثر الراغبون فى العمل فلا بد ان تنقص الاجرة بنفسها . وان قل الاجراء وكثر الراغبون فى الاستئجار فلا بد ان ترتفع الاجرة ، ولا بد ان يعود على الاجير الماهر النشيط عمله باجرة وافرة ، ولا يزال صاحب العمل او المتجر يستميله الى نفسه بالانعام عليه وترقيته . وكذلك يجد الاجير ويكد فى الاجادة فى عمله وترقيته على حسب ما ينال من الاجرة ؛ فيكون مما يوده الملاك والمستأجرون ان ينفقوا قليلا ويربحوا كثيرا ، فيميلون ــ طبعا ــ الى خفض الاجور . وبالجانب الآخر يكون مما يوده الاجراء والعمال ان يسدوا حاجاتهم باكثر رفاه ورفاء ويرتفع مستوى معيشتهم شيئا فشيئا ، فهم دائما متطلعون الى الاستكثار من اجورهم ، ومن الطبيعي ان بهذا التضاد نوع من المشاكسة والمحاربة بين الاجراء والمستاجرين : الا ان الاجر لا يزال قدرها يتعين بسائق الفطرة ويرضى به كل من الفريقين بالتفاعل بينهما ، كما هو الامر فى كل شأن من شؤون الدنيا .

6 ـ التعويل على الاسباب الفطرية للارتقاء :

يقول المدافعون عن النظام الراسمالي : انه اذا كان الربح فى التجارة كله يتوقف على قلة الانفاق وكثرة الانتاج ، تظل مصلحة التاجر الذاتية نفسها تضطره الى ان يختار للاستكثار فى انتاجه احدث الطرق العلمية واحسنها ، وان يتعهد آلاته وماكيناته بالاصلاح والتنظيف وان يقتني من المواد الخام الكمية الوافية بالثمن القليل ، وان يظل يعمل الفكر والروية فى ترقية طرق تجارته وصناعته . فهكذا يظل يتحقق كل ذلك ويتم بطبيعة الاقتصاد الحر وما يكتنفه من الملابسات المخصوصة من غير تدخل خارجي او حيلة متصنعة ، ولا تزال القوانين الفطرية تستخدم جهود الافراد ومساعي الطوائف الفردية وتنتفع منها فى الترقية والرفاهية الجماعية، مما لا يمكن ان يتم بتدبير اجتماعي (Social Planning) على الوجه المراد ، فان هذا تدبير فطري لاينفك قائما بعمله من حيث لا يشعر به حد .

7 ـ عدم تدخل الدولة :

يقول المدافعون عن هذا النظام : انه لا يمكن ان يتم العمل على الفلاح والرفاه الاجتماعي ، على احسن وجه حسب المبادىء المذكورة، الا اذا كان الافراد احرارا فى اعمالهم من غير ضغط ولا تقييد ، وقد وضعت الفطرة فى القوانين الاقتصادية تلاؤما بحيث انها اذا عملت ــ جميعا ــ متحدة متعاونة انتجت ما فيه خير جميع الناس ، افرادا وجماعات ، مع انه لا يعمل ولا يسعى كل فرد الا لمنفعته الذاتية ، كما قد تقدم بيان ذلك . ومن الطبيعي ان الافراد كلما تراءى لهم جزاء اعمالهم وجهودهم فى صورة المنافع الشاملة غير المحدودة ، بذلوا كل ما اوتو من قواهم ومواهبهم ليحرزوا اكثر

ما يقدرون على اقتنائه من الثروة ، مما يكفل من المنتجات والمصنوعات احسنها واكثرها . واذا حصلت المنافسة العامة بين التجار والصناع المهيئين للمواد الخام في السوق الحرة اعتدلت الاسعار واتزنت الاثمان بنفسها ، وارتفع مستوى المنتجات وتبين ما يحتاج اليه المجتمع من الادوات ؛ فاذن ليس من عمل الدولة في كل حال ان تتدخل في العمل الفطري لنمو الثروة وتخل توازنه ؛ وانما من عملها ان تولد احوالا تحافظ على الحرية الفردية محافظة شديدة ، وعليها ان تحقق الامن وتقيم النظام والادارة وتحافظ على حقوق الملكية وتفي بالعهد بقوة القانون وتحمي البلاد وما فيها من التجارات والصناعات من الحملات والاخطار الخارجية . ومن واجب الدولة ان تكون محققة للعدل في البلاد مشرفة على احوالها ساهرة على شؤونها ، وليس من واجباتها ان تكون هي التاجر او الصانع او مالك الارض ، او الا تدع التجار والصناع وملاك الاراضي ، بتدخلها في شؤونهم ، يقومون باعمالهم كما يشاؤون .

علل الفساد واسبابه

تلك هي المبادىء التي عرضت ، وابدىء واعيد في ذكرها عند نشوء النظام الراسمالي الجديد . واذا كان فيها جانب من الصدق مع نوع من المبالغة ، فقد جعلها اهلها مسلما بها في العالم عامة . والحقيقة ان هذه المبادىء ما كان فيها شيء جديد ، وانما هي مما لم يزل يجري عليه نظام الاقتصاد البشري منذ اول امره . وان كان فيها شيء جديد قائما هو تلك الشدة المتطرفة المبالغ فيها التي اختارتها طبقة البورجوازيين في تطبيق بعض المبادىء على اقتصاد عهد الانقلاب الصناعي . زد على ذلك انهم لم يشيدوا نظامهم كله على المبادىء الفطرية التي مر ذكرها آنفا بل مزجوها بطائفة من المبادىء الخاطئة . ثم انهم ضربوا صفحا عن مبادىء اخرى لها اهمية بالغة في النظام الاقتصادي الفطري كاهمية ما ذكر من مبادىء الاقتصاد الحر . وكذلك نفوا كثيرا من المبادىء التي عرضوها بانفسهم لما انطوت عليه نفوسهم من الاثرة وحب الذات . فهذه الامور الاربعة هي التي سببت تلك المفاسد التي ما زالت تتولد في النظام الراسمالي الى ان تفاقم امرها واستفحل شرها حتى قامت الدنيا في وجهها ثائرة هائجة .

ففي ما يلي نستعرض هذه الاسباب على وجه الايجاز :

1 — ان القوانين الفطرية التي ما زال هؤلاء القوم يستشهدون بها في كل مرة تأييدا للاقتصاد الحر ، لا تصلح الى حد تلك المبالغة التي جاؤوا بها ، لا في اقوالهم فحسب بل في اعمالهم ايضا . وقد صدق اللورد كينز (Keyns) عندما قال « ان الدنيا لا تحكمها القوانين الخلقية والفطرية بقوة تحصل بقسرها الموافقة بين مصلحة الافراد الذاتية ومصلحة المجتمع الجماعية بنفسها . وان استنبط احد من مبادىء الاقتصاد ان الاثرة المتنورة دائما تسعى الى الفلاح والاسعاد الاجتماعي فلا يصح هذا الاستنباط كما لا يصح القول بان الاثرة تكون دائما متنورة . فان الذي نراه في اكثر الاحيان ان الذين يبذلون مساعيهم لاغراضهم الذاتية يكونون بالغين في الضعف والسفاهة حتى انهم لا يكادون يقضون اغراضهم فضلا عن ان تتم على ايديهم الخدمة للمصلحة الجماعية خدمة لازمة ابدية . ولا يقتصر الامر على انه لم تكن هذه الاقوال صحيحة من جهة العقل ، بل الذي شهدت به اعمال الراسماليين من طبقة البورجوازية انه لم تكن اثرتهم متنورة . فانهم قد اجتمعوا على مصالح الجمهور المستهلكين والاجراء العاملين والحكومة المحققة للامن والرفاهية ، وتآمروا على ان يحتجنوا لانفسهم كل ما يأتي به الانقلاب الصناعي من المنافع والارباح ؛ فجاءت مؤامرتهم هذه مدحضة لاكبر دليل كانوا يقدمونه تأييدا للاقتصاد الحر وهو ان الاتزان في المنفعة بين الجميع يقوم بنفسه بتفاعلها الفطري فيما بينها . ومن اجل ذلك اضطر الاقتصادي الشهير آدم سميث (Adam Smith) ، وهو اكبر محام للاقتصاد الحر ، الى القول :

« قلما يجمع التجار واهل الحرف والصناعات مجلس من المجالس ، الا انتهى بمؤامرة منهم على مصلحة الجمهور ، او قرار لرفع اسعار البضائع ، حتى لا تكاد تخلو المناسبات التي يتسنى لهم الاجتماع فيها من اقتراف مثل هذه الجريمة الشنيعة » .

وكذلك كانت دعواهم في الملكية الشخصية وحرية السعي بأن الافراد متمتعون تحت هذه العناوين بحقوق لا ينبغي ان يضرب عليها حد من الحدود ، مبالغا فيها الى حد بعيد . فانه اذا تصرف الرجل في ملكيته على وجه يمس معيشة الوف من البشر ، او اخترق لمنفعته الذاتية طريقا يأتي على المجتمع بضرر في صحتهم او اخلاقهم او عافيتهم وراحتهم ، فما الموجب بان يسمح له بكل ذلك ، ولم لا يضرب عليه القانون حدودا تمنع استمتاعه بحقوقه من ان ينقلب ضررا على المصلحة الجماعية ؟ ابداوا واعدوا في مبدا

عدم تدخل الحكومة ــ قولا وفعلا ــ وتجاوز هذا الامر حدوده المعقولة كل التجاوز ، حتى جاء بما جاء به من النتائج السيئة والعواقب الموبقة . فانه اذا بدا الافراد الاقوياء يتآمرون فى اجتماعهم على الضعفاء الكثيرين ويستغلون ضعفهم استغلالا فاحشا ، وظلت الحكومة ساكتة واجمة ، بل محافظة على مصلحة هؤلاء الافراد الاقوياء ، فلا بد ان يفضي الامر الى الاضطراب والفوضى . ومن المعلوم ان الاضطراب اذا ظهر ، لا يتقيد لظهوره بالطرق المستقيمة المشروعة .

2 ــ ولقد كانت هذه المغالات فى مبادىء الاقتصاد الحر غلطة عظيمة فى عصر الانقلاب الصناعي خاصة ، لان الانقلاب قد جاء بتغيير اساسي فى طريق الانتاج ؛ ذلك ان الاعمال التي كانت القوى الانسانية والحيوانية تقوم بها من قبل ، اصبحت تقوم بها الطاقة الآلية ، وكان من نتيجة ذلك ان اصبح عشرة رجال يتجزون من العمل ما كان يتجزه الوف منهم من قبل ؛ فمن صميم طبيعة هذا الطريق للانتاج انه يشغل قليلا من الناس ويعطل منهم العدد العديد . فى مثل هذا الطريق كانت الدعوة المطلقة الى الملكية الفردية وحرية السعي والمطالبة بعدم تدخل الحكومة فى سعي الافراد مبنية ، من اساسها ، على الخطا الفاحش . كيف يمكن ان يباح لفرد او طائفة من الافراد ان ينشئوا معملا كبيرا لانتاج نوع خاص من البضائع لمجرد ان بايديهم من الوسائل والثراء ما يقدرون به على انشائه ، ثم يتركوا وشانهم لا يابهون ، فى قليل ولا كثير ، لما قد يعود به عملهم هذا من التاثيرات السيئة فى معيشة الوف من اهالي البلاد ممن كانوا ينتجون ذلك النوع الخاص من البضاعة نفسها فى بيوتهم ومتاجرهم ومعاملهم اليدوية الصغيرة ؟ وليس معنى ذلك انه ما كان ينبغي ان تسخر طاقة الآلة فى صناعة المنتجات والادوات اصلا ، انما المراد انه ما كان ينبغي ان يؤذن باستعمال هذه القوة اذنا مشاعا عاما ، وكان على الحكومة ، منذ اول الامر ، ان تفكر فى تهيئة الاسباب ــ فى الوقت نفسه ــ لمعاش اولئك الذين جاءت هذه الصناعة الجديدة معطلة لهم ولشؤون معاشهم .

فلما لم يكن الامر كذلك ، نشات مسالة البطالة كمسالة دائمة فى المجتمع الغربي على نحو لم يعهده التاريخ البشري من قبل ، وذلك بسبب طريق الانتاج الميكانيكي ؛ ومن المعلوم ان البطالة ليست مسالة واحدة بل هي مورثة لكثير من المسائل ، وهي الموجب الاكبر والسبب الاعظم لكثير من معضلات الحياة الانسانية المادية والروحانية والخلقية والمدنية . ومن ههنا ينشأ السؤال التالي : هل لفرد او طائفة من الافراد ان يتصرفوا فى ملكيتهم على وجه تتولد معه مثل هذه المعضلات العديدة فى الحياة الاجتماعية ؟ وكيف يسوغ لرجل قد اوتي حظا من العقل ان يدعي لمثل هذا التصرف الظالم انه من اثرة الافراد المتنورة التي لا تزال بنفسها تسدي المعروف الى المصلحة الجماعية وتخدمها خدمة دائمة؟! اما الراي فى مثل هذه التصرفات الفردية بانه على الحكومة القومية ان تاذن بها اذنا عاما ثم تسكت عليها وتغمض عينيها عن الآثار التي تصيب حياة الامة كلها من جراء اعمال شرذمة من الناس ، فهو راي لا يقوم على اساس معقول .

3 ــ فلما عطل طريق الانتاج هذا الوفا ، بل مئات الوف ، من الناس واضطروا جميعا ان يخرجوا من مدنهم وقراهم وحاراتهم وازقتهم ويقصدوا هؤلاء التجار واصحاب المعامل والمصانع يلتمسون منهم لانفسهم الرزق بطريق الجعالة او المشاهرة ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك ان اضطرهم الجوع ان يشتغلوا عند اولئك الراسماليين باجرة قليلة عرضوها عليهم . ثم انهم ما وجدوا وجه المعاش كلهم ، بل ظل عدد كبير من الرجال القادرين على العمل من غير عمل دائم . والذين اسعدهم الحظ ووجدوا لانفسهم الشغل ما كانوا ليساوموا الرسمالي ليقبل معهم باحسن الشروط، لانهم هم الذين جاؤوا اليه يلتمسون منه الرزق ، وانهم لو لم يقبلوا ما عرض عليهم الراسمالي من الشروط لما وجدوا شيئا يمسكون به ارماقهم ، ولو انهم اصروا على شروطهم وابوا النزول عنها ، لوجد الراسمالي الوفا غيرهم يتهافتون على ابوابه ملتمسين منه العمل يتنافسون فى الوصول اليه على شروطه . وهكذا ثبت الخطا فيما جاءت به الطبقة (البورجوازية) من استدلال فى تايد مبدئهم القائل بان الاجور العادلة المتزنة تستقيم بنفسها فى المنافسة العامة بما يكون بين الاجير والمستاجر من التفاعل والاخذ والرد ؛ لان المنافسة فى هذه المعاملة كان يفقدها شرط التساوي بين المتنافسين . بل ما بقي للمنافسة مجال فى هذه الصورة من المعاملة . وانما اصبحت صورة المعاملة ان استولى رجل واحد على رزق الوف من عباد الله واحتجزه لنفسه من دونهم ، ولما جاؤوا اليه يتضورون من الجوع ، ابى ان يعطي العمل الا واحدا من عشرة او عشرين منهم . فالظاهر فى مثل هذه الاحوال ان القوة ــ قوة المساومة والبت فى الامر ــ تجمعت كلها بيد رجل

واحد . وليس فى احد من هؤلاء الالوف من ملتمسي الرزق القدرة على ان يرغم هذا الرجل الواحد المستبد على اجابة شروطه . فمن اجل ذلك كان كلما نمت وانتشرت الرأسمالية فى عصر الانقلاب الصناعي هذا ، عم فى المجتمع الفقر والضيق والعسرة على ما كان فيه من البطالة . والذين قصدوا مراكز الصناعة والتجارة الكبيرة واجتمعوا فيها ابتغاء للكسب والاجرة والمشاهرة وجدوا السبل ضيقة فى وجوههم واضطروا ان يرضوا بالعمل المرهق ساعات طوالا بأجر زهيد . واخذوا يعملون فى المعامل والمصانع كالانعام ، ويقضون ايام حياتهم فى بيوت مظلمة ضيقة تشبه مرابض الماشية ؛ فساءت صحتهم ، وانحطت عقلياتهم ، واضمحلت اخلاقهم ، وقد تركت فيهم يد الاثرة تأثيرا فاحشا حتى زالت المواساة والمودة من قلوب الآباء والابناء والاخوان ؛ وثقل الاولاد على الآباء والنساء على الرجال ، حتى ما بقيت ناحية من نواحي الحياة سليمة من الآثار السيئة لهذا الاقتصاد الحر الخاطيء المتطرف .

4 — زد على ذلك ان هؤلاء البورجوازيين الذين كانوا دعاة الى الجمهورية والتسامح والحرية ، والذين جاهدوا جهادا طويلا وجادلوا جدالا عنيفا فى سبيل نيل حق التصويت لانفسهم بازاء ملاك الاراضي ، لم يرضوا ان ينال حق التصويت اولئك الملايين من العامة الذين صاروا هم اولياء رزقهم ومالكي ناصية معاشهم . ثم ان هؤلاء كانوا يرون لانفسهم حقا فى ان يتحزبوا ويؤلفوا المنظمات لانفسهم ويحددوا باتفاقهم اسعار البضائع ومشاهرات العمال ، بل كان هؤلاء البورجوازيون مصرين على ان من حقهم ان يعطلوا الوفا من العمال دفعة واحدة بان يغلقوا دونهم ابواب مصانعهم اذا شاءوا ويضطروهم باجاعتهم الى ان يرضوا بالعمل فى مصانعهم بالاجور القليلة والمشاهرات الزهيدة . ولكنهم ما كانوا ليسلموا للعمال بحقهم فى الاضراب عن العمل والمطالبة برفع الاجور والمشاهرات . وكذلك كان هؤلاء البورجوازيون لا يرون باسا فى ان يعزلوا ويعطلوا عن العمل رجلا اشتغل فى معملهم او متجرهم وما زال فى خدمتهم حتى ادركه من الهرم او المرض ما لم يعد معه قادرا على العمل ؛ ولكن صراخ هذا العاجز الهرم المبعد عن العمل : اني قد افنيت شبابي وقوتي فى ترقية تجارتك او صناعتك ، فمن لي الآن آوي اليه واستجديه ما يقوم باود حياتي ؟ ! فما هذا الصراخ فى سماع رجل من البورجوازيين الا كصيحة فى الصحراء او نفخة فى الرماد . فانت ترى ان البورجوازيين نسوا ههنا حجتهم التي كانوا يستدلون بها على ان المصلحة الفردية هي الدافع الصحيح الوحيد الى العمل . نعم ! انهم لو يزالوا يذكرون ، عن انفسهم ، انه ان كانت لهم فرص المنفعة واسعة غير محدودة جاؤوا بالعمل الكثير وتمت على ايديهم الخدمة للسعادة والرفاهية الاجتماعية بنفسها ، ولكنهم نسوا ، عن عمالهم والمشتغلين فى مصانعهم ، انه من كانت منفعته ضيقة ؛ لا محدودة فحسب، وكان حاله مفعما باليأس ومستقبله مظلما ، فما له ان يرغب فى عمله ويشتغل به عن طيب خاطر ويجهد فيه نفسه وقوته .

5 — وعلى كل ذلك فقد تنكب هؤلاء طرق التجارة والصناعة الفطرية المتزنة ، واخترعوا لمصلحتهم الذاتية طرقا تخالف المصلحة الجماعية وتضادها فى صميمها ، وترتفع بها الاسعار ارتفاعا متصنعا فى السوق ، ويقف بها انتاج الثروة ويدب دبيب البطء فى سير الرقي .

فمن هذه الطرق انهم يشترون بقوة ثرائهم ادوات الحاجة والبضائع الاستهلاكية ، ويدخرونها عندهم ادخارا فاحشا حتى تكاد تنعدم من السوق فيكثر طلبها طبعا ، وهذا يمكنهم من ان يرفعوا الاسعار فى السوق على وجه غير طبيعي .

ومنها انه يتوسط ، بين منتجي البضائع ومستهلكيها الحقيقيين ، مئات من الناس ، يتبايعونها فيما بينهم واحدا بعد واحد معتمدين على اموالهم المدخرة فى المصارف وما يملكون من وسائل المواصلة السريعة كالهاتف واللاسلكي ، حتى ترتفع بهذه العملية اثمانها بما ينال كل واحد منهم عليها من المنافع واحدا بعد آخر ، من غير ان يقوموا بخدمة فى انتاج هذه البضائع او اصلاح شأنها حتى يكون لهم استحقاق مشروع فى نصيب من المنافع .

ومنها انهم يحرقون البضائع المنتجة ويقذفونها فى البحر مخافة ان تصل منها الى السوق كمية كبيرة فتصير سببا فى نزول اسعارها .

ومنها انهم ينتجون بفضل اموالهم الوافرة وثرواتهم المنتجة شيئا من انواع الكماليات للترف والتنعم ، ثم يرغبون الناس فيه وينشئون له الطلب فيهم بفضل الدعايات والاعلانات وتوزيعه فيهم مجانا الى غير ذلك من الحيل المتنوعة ، ويجعلونه من حاجات اولئك الفقراء والاوساط من الناس الذين لا يكادون يقدرون على القيام حتى بضرورات حياتهم على الوجه الصحيح .

ومنها انهم لا ينفقون اموالهم ولا يصرفون جهودهم فى اعداد ما يفتقر اليه الناس اشد الافتقار فى واقع الامر ، ويبذلون اموالهم وجهودهم كلها فى انتاج البضائع والمنتجات التي لا حاجة للناس اليها ؛ وما ذاك الا لان النوع الاخير منها اجلب للربح والمنفعة اليهم من النوع الاول .

ومنها انه يحاول رجال منهم تحلية منتجاتهم المضرة للصحة ، الهدامة للاخلاق ، والقاضية على المدنية والثقافة ، يحاولون تحليتها ، بفضل اموالهم ، فى اعين الناس ويرغبونهم فيها بانعاش عواطفهم الدنيئة ويسلبونهم نصيبا وافرا من دخلهم القليل بالتلاعب بعقولهم ، مع ان هؤلاء الدهماء لا يكاد دخلهم يكفي ليمسكوا به رمقهم ورمق اهلهم .

واضر هذه الطرق واشدها خطرا انهم يغيرون على حقوق الشعوب المستضعفة لاجل مصالحهم التجارية والمالية ، ويقسمون العالم الى دوائر للنفوذ والسلطة ويتقدم كبار المتمولين فى كل امة يتخذون شعوبهم آلة لقضاء مآربهم واغراضهم المتطرفة المتزايدة، ويلقونهم فى تناحر مستمر لاتكاد تنحل عقدته فى ميدان الحرب ولا فى مؤتمرات الصلح .

فهل ترى انه بهذه الطرق تتم الخدمة للمصلحة الجماعية بنفسها ان ترك الافراد وشأنهم يعملون لمصالحهم الذاتية كيفما يشاؤون ؟ كلا ، بل انهم اثبتوا باعمالهم ان الاثرة غير المقيدة قلما تكون عادلة ، ولاسيما اذا ارتكزت فى يدها القوة الاقتصادية والسياسية وكانت هي الواضعة للقانون ؛ فى مثل تلك الظروف لا تتبدل ظروفهم فى الغالب فى خدمة المصلحة الجماعية ، بل بالعكس تصرف فى طرق تؤثر المصلحة الفردية على المصلحة الجماعية ، ولا تبالي بها اصلا .

6 — وادهى من كل ذلك انهم اباحوا للافراد وجعلوا من حقهم المشروع ان يكنزوا المال ويعطوه الناس بالربا ومما لا شك فيه ان الربا ما زال ، منذ قديم الزمان ، موجودا فى اكثر مجتمعات العالم باعتباره سيئة بغيضة احتملتها قوانين العالم على كره منها فى اكثر الاحيان . ولكن الذي امتاز به مفكرو طبقة البورجوازيين فى الجاهلية الغربية الجديدة ، بعد الجاهليةالعربية القديمة ، انهم جعلوا الربا هو الصورة المشروعة الوحيدة للتجارة ، والبناء الصحيح الوحيد للنظام المالي كله ، ووضعوا قوانين البلاد على طرق جعلتها سندا وعونا لمصلحة المرابي دون مصلحة المدين ، فاصبح ارفه الناس واسعدهم فى المجتمع من جمع المال وكنزه بطريقة من الطرق او حيلة من الحيل . اما اصحاب المواهب الفكرية ، والقائمون بالعمل ، وواضعو المشروعات التجارية ومنظموها ، ومسيرو التجارة فى كل مرحلة من مراحلها والقائمون بجميع الخدمات المتعلقة بانتاج الادوات الاستهلاكية وتهيئتها ، فاصبحوا جميعا لا يقام لهم وزن ازاء ذلك الفرد الذي يقرض ماله للتجارة ثم يجلس فى بيته وادعا مطمئنا . فهؤلاء كلهم ليست لهم ارباح مضمونة ولا معينة . واما هذا الذي يعطي ماله بالربا فمنفعته معينة ومضمونة . وهم كذلك لا يزالون يخافون على اموالهم انواعا من الخسارة ، واما هو فلا يخشى شيئا من ذلك ، فالربح له مضمون على كل حال . وهم مضطرون ، بطبيعة الحال ، الى رعاية تجارتهم والتفكير فى مصيرها وما يؤول اليه امرها من ربح او خسارة ، واما هو فليس يشغله شيء من هذا ولا يهمه الا رباه : فان وجد السوق نافقة قدم امواله فيها الى ان يظهر له ان فرص الربح على وشك الانتهاء ، وان وجد السوق كاسدة امسك واسرع فى استرداد ما يكون قد استغل فيها من راس ماله الى ان تنتاب الدنيا كلها نوبة شديدة من الكساد والبوار . فكل قد يواجه الخسران والضيق والخطر فى كل حال ، اما هو فغاية ما يصيبه فى ماله انما هو كثرة او قلة فى المنفعة . وهو لا يستعبد التجار والصناع وملاك الاراضي فقط ، بل يوقع الحكومات فى اشراكه ايضا ، فتراها تنشىء بامواله الشوارع وسكك الحديد والترع وما اليها من المشاريع الاخرى فى البلاد ، ولا تنفك تجبي الضرائب فى سبيل الوفاء بدينها والربا المترتب عليه من كل واحد من اهالي البلاد اعواما طويلة قد تتعدى الى القرون . والعجيب انه ان تعرضت الامة لحرب من الحروب لا تبالي بمن قتل او جرح او نكب فى بيته او أصيب فى ابيه او ابنه او اللاتي اصبن فى ازواجهن من النساء ، فان هؤلاء جميعا قد تتخلى عن الوفاء بحقهم خزانة الدولة بسهولة ، اما الذين اقرضوا الدولة من ابناء الامة فلا تزال الخزانة تؤدي اليهم رباهم الى مئات السنين ، وقد يضطر اولئك الذين كانوا قد ضحوا بانفسهم فى تلك الحرب الى الاكتتاب مع غيرهم لاداء هذا الربا . هكذا يظلم هذا النظام المالي المبني على الربا العاملين الحقيقيين المنتجين للثروة من كل جهة ومن كل وجهة ظلما شاملا ؛ حيث قد فوض ازمة الاقتصاد الاجتماعي كله الى طائفة من المتمولين والراسماليين المستأثرين الذين لا تهمهم سعادة المجتمع ولا فلاحه ولا يسدون اليه نوعا من الخدمة . لكنهم لما كان فى

ايديهم روح الشؤون الاقتصادية كلها وهو راس المال ، وقد اعطاهم القانون الحق في جمعه واكتنازه والمرابة فيه ، لم يكونوا المستغلين الرئيسيين للثروة الناشئة من جهود المجتمع العامة فحسب ، بل اصبحوا قادرين ايضا على ان يستخدموا المجتمع كله في مصالحهم الشخصية ويلعبوا بمقادير الدول والشعوب .

7 ـ ان المجتمع الجديد الذي تكون على اسس الراسمالية الجديدة هذه كان خلوا من المواساة والتعاون والتراحم والتراؤف وما اليها من العواطف الانسانية الشريفة ، وزاخرا باخس الصفات ، فلا تلاشى منه حق الاخ على اخيه في التكافل والتساند . ولقد كان صاحب اختراع كل آلة جديدة فيه يعطل مئات والوفا من العمال دفعة واحدة في جانب، وبالجانب الآخر تخلت الحكومة والمجتمع والاغنياء والمتمولون عن العناية بكفالة العاطلين أو العجزة ممن لم يعودوا قادرين على العمل . بل لم يقف الامر عند هذا الحد فحسب ، بل قد انشا هذا النظام الجديد في الافراد اخلاقا من الاثرة والغش لم يعد بعدها من واجب احد أن يقيل لاحد عثارا . واذا كان هذا النظام قد فكر في شيء من العلاج للنكبات أو الامراض وما الى ذلك من حالات الطوارىء الاخرى ، فانما فكر فيما يتفق مع صالح أولئك المتمولين . وأما الذين لا كسب لهم وانما يكسبون ما يمسكون به رمق حياتهم ، فمن اين يجدون المعونة لانفسهم في النوازل والطوارىء ؟ . . هل هذا سؤال لا يجيب عليه النظام الراسمالي الجديد الا بان يذهب الرجل من هؤلاء المنكوبين الى احد المتمولين ويستقرضه ما يمكن استقراضه على اسعار فاحشة من الربا بعد ما يقدم اليه ما يملكه من الملابس والاواني وحلي نسائه رهنا لهذا الدين . فاذا لم يستطع ان يؤدي اليه دينه مع الربا الفاحش ، استقرضه مرة اخرى على اسعار باهظة من الربا ليؤدي ما كان عليه من اثقال الربا السابقة .

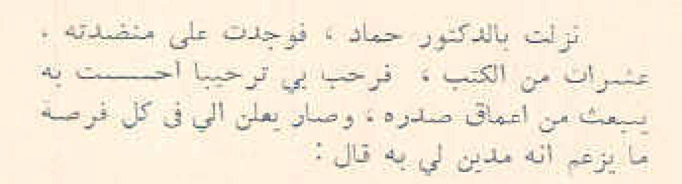
8 ـ من الظاهر انه اذا كان في المجتمع مئات الالوف من العاطلين وملايين ممن لا يكسبون الا قليلا لا يمكنهم من شراء البضائع التي يرون الدكاكين والمتاجر مكتظة بها في الاسواق على حاجتهم الشديدة اليها ، فليس للصناعة ولا للتجارة مجال للازدهار . ومن هنا نرى انه ، وان كان في الدنيا من وسائل الارتقاء ما لا ياتي تحت العد والحصر ، وفيها ملايين من القادرين على العمل وهم في حاجة الى تلك الوسائل ، ومع ذلك فان البضائع التي تنتجها مصانع الدنيا ، وان كانت اقل مما هي قادرة على انتاجه ، لا تزال الاسواق غاصة بها لان الناس ليس عندهم من الاموال ما يمكنهم من شرائها . وكذلك يتعطل الوف العمال لان البضائع التي تنتج في المصانع لا تستهلك في الاسواق على كونها محدودة ، فلا تكاد تعود بمنفعة على اصحاب المصانع ، فضلا عن ان يتجرا أحد منهم على بذل المال في ترقية الوسائل الاخرى .

فبهذه الصورة تستاصل استدلال الرجال البورجوازيين ، الذي جاؤوا به تأييدا لدعواهم بان سعي الافراد لمنافعهم الشخصية في الاقتصاد الحر لا يزال بنفسه يهيء الاسباب لرقي الوسائل والذرائع وزيادة الانتاج ، فانه قد اثبتت التجارب انهم قد انشأوا العقبات والعراقيل في سبيل منفعتهم انفسهم ، فضلا عن الرقي والزيادة في الانتاج .





8



بقلم الأستاذ الكبير
السيد المختار السوسي

نزلت بالدكتور حماد ، فوجدت على منضدته عشرات من الكتب ، فرحب بي ترحيبا احسست به ينبعث من اعماق صدره ، وصار يعلن الي في كل فرصة ما يزعم انه مدين لي به قال :

ان تغيرا عظيما دخل في حياته ، فانقلبت به عاداته ، وانعكست به افكاره ، فهو الآن غيره يوم الزيارة الاولى .

فكنت اجيبه بان الفضل حقيقة لله وحده ، ولهمته الطموح ، ونشاطه في البحث ، ولبراءته من الغرور والغطرسة وعدم الانصاف ، فبهذه الثلاث يحرم كثيرون من شبابنا مما حصل عليه الآن حماد .

ثم لم ابطىء كثيرا بعد دخولي الى الدار حتى دخل علينا شاب مجليب مطربش وعليه الزي المعهود من الشبان الفاسيين او الرباطيين الذين تثقفوا بالثقافتين الاهلية والغربية ، فلهم شهادة القرويين ، كما لهم شهادة اخرى في اللغة الاجنبية وعلومها ، فقدمه الي حماد باسم فلان بنيس ، كما قدمني اليه وقال له : ان هذا هو الذي تتشوق الى التعرف به ، فاذا بهذا الشاب هو الذي كتب به الي حماد ، ثم كان اول ما جال في صدري ان اعرف ما هو سبب اتصال هذا السيد بحماد ، مع ان حالة حماد التي يتملص منها لم اكن لارضاها لهذا السيد ، كما لا ترضاها له طبقته من الشباب الكثير .

وبعد لاي عرفت سبب الاتصال بينهما ، فقد كان بنيس حقيقة ممن نبذوا عفاف طبقته ، فكان يرتطم في الذي يرتطم فيه حماد ، فلم تمنعه جبته ولا طربوشه ولا ثقافته القروية ان يشاطر حمادا في كل ما يجول فيه من الرذيلة ، ومن الاستهتار بالخلاعة وترك الدين والخلق والحشمة ، واذا كان حماد معذورا بسبب بيئته ، فكيف يعذر هذا الذي قضى ما قضى في بيئة دينية تمت الى الفضيلة — ولو اسما — برحم مبلولة ، فقلت في نفسي ما قاله من راى غرابا وحمامة يطيران معا ويقعان معا ، فتعجب مليا في الذي وصل بينهما ، حتى رآهما معا يعرجان في مشيتهما ، فادرك اذ ذاك سبب المواصلة ، واذا ظهر السبب بطل العجب .

كنت اتعجب من عبارة الرسالة الاخيرة من حماد فان لهجتها تبدلت بسرعة ، وتحولت عن المنهج الذي كانت عليه سابقاتها ، فهل يكون لهذا الخدن يد في ذلك، فلئن كان هذا صحيحا فان حمادا حينئذ في خطر، فلايبعد ان يستزله هذا الرجل بكيفية شيطانية فتذهب كل اعمالنا في انقاذه سدى .

جال هذا الفكر في عقلي ، ثم تقوى فيه حين اكتشفت من بنيس ما اكتشفت بقرائن الاحوال فقط ، فعزمت ان لا افارق حمادا بعد، لحظة، حتى اوصله الى المكانة التي اقوده اليها ، واسوقه نحوها بحول الله لا بحولي .

داولت حمادا في غيبة من بنيس ، فادركت منه ان الصحبة بينهما قديمة، ولما كان حماد يعتاد الصراحة

الى مدى بعيد ، كان يصرح بما كانا قضياه معا في المباهج ـ وانا اعرف ما يقصده امثاله بالمباهج ـ فقلت له : ومتى اتصل بك اخيرا بعد اندفاعك هذا الاندفاع الجديد في طريق ابحاثك ؟ فقال : لعل بعض من طرقتني من اصحابنا ورأى مني اعراضا عنه، واشتغالا بما انا فيه، اخبر بنيس فولج على الدار في الساعة التي توصلت برسالتك المسوقة فيها بنود الديانة التي اجمع عليها الفلاسفة الروحانيون ، فلما طالع الرسالة القاهالي وهو يمد شفتيه الى احد شقي وجهه ويهز كتفه ، ولم يقل لي شيئا ، كانه اراد ان يحترم شعوري ، وان لا يتداخل في امر يعنيني وحدي قبل ان ادعوه الى الدخول فيه ، فحين القى الرسالة باشمئزاز قلت له :

الم يعجبك ما في الرسالة حتى رميت بها هكذا ؟ فقال :

ان هذه ابحاث لا ناقة لي فيها ولا جمل ، فقلت لـه :

اولست مسلما ؟ فقال :

بلى ! ولكن ولكن ولكن . وصار يكرر الكلمة كانه يريد ان يقول شيئا فلم يطاوعه لسانه ، ثم ضحك ضحكة هزتني ، وقال وهو يمد الى يده :

دعني من هذا وقم الى ليلة انس هيأتها لك خاصة لترى براعة الجمال الاهلي، فقد صرت دائما تزعم ان الاوربيات هن البارعات وحدهن ، فقلت له :

اتذوق حقا حلاوة دين ، ثم تسترعى افكارك بعد، امثال هذه اللذات ؟ فانني منذ ذقت منذ ايام لذة دين الفلاسفة الروحانيين لا ازال في نشوة عظيمة لم اجد معها بعد داعيا الى الالتفات الى نحو ما تقول. اتدري يا صاحبي انني وقعت في هذه الايام على اكتشاف عظيم ملأ جوانب صدري عظمة ؟ فقال وهو مكفهر الوجه :

احسب ان السقطة التي نالتك بعد ملاكمة فلان امام متجري هي التي كستك خجلا امام الناس ، فانزويت عنهم ، خصوصا حين علمت ان تلك الراقصة ضحكت كثيرا على ذقنك ، فخاصرت في الليلة الثانية من القى عليك درسا قاسيا من القوة والجلد ، حين ارسل اليك قبضته العظيمة فخررت بها صعقا .

فقلت له :

كلا والف كلا ، فان الذي فاجأني فغير حياتي لم يكن فيما اعرف عن طريق تلك السقطة ، ودخلت معه في ملاجة ومحاورة ، الى ان قلت له :

ان عقلي لم يدرك في هذه اللذات التي امضينا فيها ما امضينا من شرخ شبيبتنا فائدة ، فان في صون الاخلاق والعفاف مروءة وابقاء على المال .

فلما رأى بنيس مني الجد ، وانني اعرض اعراضا عما دعاني اليه ، وعدني بدراسة الموضوع معي ، وصار يظهر لي مما يقول رجحان عقل ، وبراهين مقبولة ، وهو الذي ابدني في الذي قراته من الرسالة الاخيرة ، فياله من نابغة له حجي واسع ، وذكاء فائق .

اخبرني حماد بكل هذا ، فادركت باستشفاف وتوسم ، ان بنيس ممن لا مبدأ لهم ، وان كان يتمتع بالذكاء النادر ، فعرفت انه يقدر ان يحول بين حماد وبين سعادته ، وارتأيت ان احول بينه وبين حماد بكيفية لا يشعر بها الرجلان ، فأثنيت على حماد حين تثبت ولم يسلس القياد لبنيس ، فتبسم وقال : ان مما انشدني بنيس وهو يحاول ان يستجرني الى ما يريد :

تكثر ما استطعت من الخطايا
فانك بالغ ربا غفورا

تعض نوامة كفيك مما
تركت مخافة النار السرورا

ومما انشدني ايضا :

خلقت الجمال لنا فتنة
وقلت لنا في الكتاب اتقون

فانت جميل تحب الجما
ل فكيف عبيدك لا يعشقون

ثم قال اتوافق هذه الابيات الاسلام حقا ؟ فقلت له وانا انظر اليه بجد :

عد عن هذه النظريات السافلة ، فان من يجالس الفلاسفة العظام مثلك ، ويرى لنفسه حرمة ، لا يفضل له وقت يمضيه في النظر الى هذه السفاسف ، فاقبل على اتمام ما انت بصدده بكليتك كما يفعل اعاظم الرجال ، فقد قال (شارل ديكنس) وقد سئل عن سر نجاحه :

(انني ما مددت مرة يدي الى امر لا اقدر ان انصرف اليه بكليتي) .

فانصرف بكليتك الى ما انت بصدده فلعل بين جنبيك كنزا لا يزال مدفوعا الى الآن ، ان استثمرته وزحزحت عنه ما غطاه اصبحت من اسعد العالمين .

***

استعجلته فى السفر نحو المؤتمر ، وقد عرضت عليه ان نمضي الليلتين الباقيتين دون افتتاح المؤتمر فى مكان اخترته ننفرد فيه ليتم لي تمهيد الرجل الى ما يراد منه ، فلا يلج المؤتمر حتى يكون فيه استعداد تام لقبول ما اعرف انه سيروج فيه .

كذلك فعلنا فانتبذنا عن بنيس من غير ان نتعرض الذكره بطرف لسان ، ولما استرحنا قلت لحماد : الى ما وصلت اليه فى البحثين الاخيرين اللذين دارت حولهما المراسلة الاخيرة ؟ وهل اقتنعت بان للعقل مدى لابد ان ينتهي اليه فيقف ولا يتجاوزه ؟ فان اقتنعت ، ولابد ان مثلك يقتنع لان ذلك من البديهيات، فهل عندك بعد ما تقول فى محاولتك ادراك حقيقة الله ، وفى انكار المعاد ؟

فقال : ان الحقيقة ان مجالات العقل وان كان يظهر انها فيحاء متسعة ليست كما يتبادر بادىء بدء ، فقد امعنت وحاولت ان اجد لكلامي الذي كنت قلته اولا دعامة ، ولكنني رجعت بخفي حنين ، فالانسان ضعيف، قصير مدى العقل رغم انفه، وان كان متى ادرك قوة ما، يرى نفسه قطب الكائنات وسيد العالم ومدبر السماء والارض ، واما ما ذكرت من ادراك حقيقة الله ، فانني اقر لك انني لا ادري شيئا من تلك الحقيقة ، لعجز عقلي وقصور مداركي ، وانما عرفت بما قلته من ان الفلاسفة ما ذهبوا الى ان الله متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانساني الا لقاعدة عندهم : ان المثل يتعرض دائما لما يتعرض له مثله ، فكل مثلين لا بد ان يسيرا على خطة واحدة ، فلما وجدوا ان الاكوان تتغير بالوجود والفناء ، ايقنوا ان الله الذي منه تغييرها بقدرته ، لابد ان يخالفها فلا يتغير ، فليس الله اذن مثل الاكوان كلها ، فكان متميزا بذلك عن العوالم الكونية وعن النوع الانساني ، وقد ظهر لي انني صرت اقتنع شيئا فشيئا بما ذهبوا اليه .

واما قضية المعاد فانني بعد ان نظرت وبحثت واستفرغت جهدي ، اقتنعت تمام الاقتناع به ، لما ذكرته لي فى جوابك الاخير ، وهي ادلة عقلية بديهية عند ذوي الالباب ، وقد تعجبت من نفسي كيف غفلت عنها .

فقلت له : اذن انت تعتنق الآن مذهب الفلاسفة الروحانيين اعتناق الموقن باحقيته ، فتقبل كل ما ذكره (جول سيمون) و (كارو) فى بنود تلك الديانة ؟

فقال نعم ، ولي الفخر بان ادركت ما يدركه امثال هؤلاء الفلاسفة العظام ، وانا الان اعجب غاية العجب من نفسي كيف كنت اجهل هذه الديانة العظيمة التي هي تاج المدنية ولباب ابحاث عظماء الفلاسفة ، فانا الان اشعر بانني اليوم غير امس ، عقلية وادراكا وسعة نظر، فاين ما انا فيه الآن من انظار واسعة تجول فيما وراء المادة الصماء ، فاتغلغل حيث تتغلغل انظار امثال (جول سيمون) و (كارو) ، مما كنت فيه قبل فى تلك الحياة التعسة حياة البطالة واللعب والجري وراء لذات المادة ، فياليت كل من كنت معهم اذ ذاك ، ادركوا مثل ما ادركت ، ليتذوقوا مثل ما اتذوقه الآن فى مذهب هؤلاء الفلاسفة الكبار ، فلو رايتني عشية امس ، وانا اقرأ مقالات للفيلسوف (فلامريون) لرايتني اسبح فى سعادة وحبور وهناء لم اكن لاجدها بين المغازلات والمراقصات .

فقلت له بعد محادثات طويلة فى ان سعادة المرء انما هي حقيقة فيما ينبعث من اثناء صدره : الآن وقد ادركنا حقيقة ما ادركه الفلاسفة الغربيون العظام ، ينتظرنا بحث مهم هو من تتمة موضوعنا هذا ، فهناك هذه الاديان التي انبعثت من المشرق ثم انتشرت فى ارجاء العالمين القديم والجديد ، او لا ترى ان هذا الدين الذي يضم عليه اخوك السيد العربي يديه ضمة البخيل كفيه على درهميه ، ينبغي ان يبحث فيه ، وانا وكل اهل هذه الاقطار الشرقية تدين به ، وترى له اعظم واكثر مما ترى الآن لديانة الفلاسفة الروحانيين ، ولا يخفى عنك ان المؤتمر الذي سينعقد فى الغد ، سيكون هذا الدين محور ابحاثه .

فقال : اوليس ان المؤتمر انما نعقده للمناظرة فى حالتي انا وفى حالة اخي السيد العربي ايتهما اليق لهذا العصر ؟

فقلت : او تجهل ان اخاك السيد العربي لم يتكيف الا باحوال دينه الذي ارتضاه وجعل فى يديه مقاليده ، كما انك لم تتكيف كذلك الا بالاحوال التي اتخذتها لك دينا وارتضيت لك افعالها ، وجعلت فى مبادئها مقاليدك؟

فقال انني اليوم على مذهب دين عظيم هو لباب البحث العصري ، وهو عصارة القرائح الغربية النافذة

لما وراء المادة ، فكيف انزل بهذا الدين العظيم الى دينكم هذا الخرافي الذي يزخر بالهمج الرعاع الانذال مفترسي التيوس حية ، واكلة الجمر المتوقد والاحناش في الاسواق ؟ فهل تعدني عاقلا ان اردت ان انزل بدين الفلاسفة العظام من العلماء الغربيين الى ن اضعه ازاء هذا الدين الهمجي ؟ اتدعوني الى هذا ثم تراني من ذوي الالباب ؟

فقلت : اتئد عافاك الله ولا تستعجل ، ولا تمدن لسانك في دين لم تعرفه بعد ، ولا تؤاخذ اهله بسفلة ينتسبون اليه انتساب سفلة الغربيين الى المدنية الغربية التي ترى لها ما ترى من سمو المدارك ورجحان العقل ، والتزام الفضيلة ، فحسبك ان تعرف هذا الدين من اسسه ومن اصوله ومن منابعه الخالصة ، ثم لك عقلك بعد ذلك ، فاما ان تقبله فتكون احد اهله ، فالحق احق ان يتبع ، واما ان تزداد بصيرة فيما انت عليه الان ، وتعض عليه النواجذ الى الابد . اقول له هذا وهو مطرق اطراقا يسوده الصمت والسكون .

فقلت له : ارفع راسك ، وقل ما بدا لك بكل حرية ، فانني لا ازال لك اليوم كما كنت لك امس ، وهاك يدي عهدا وثيقا ان هذا الدين ان لم يظهر لك واقنعتني بانه ليس بدين الحق ولا بدين المدنية ، ان اعلن على الملا البراءة منه ، ثم أضع يدي في يدك على السواء ، فنبقى على مذهب الفلاسفة الروحانيين الى الابد .

فقال : يا فلان ، قد اوقفتني والله في موقف يصعب علي صعوبة عظيمة ، كانما احاول ان احمل على كاهلي كل جبال الدنيا ، افانزل بنفسي حتى اساوي بها انفس الهمج الرعاع اذناب الانسانية ، وقمامة العالم ؟ ابعد ان كنت اعدني متمدينا شرقيا ذا مبدا عظيم احلق في اجواز الفلاسفة الا علين المفكرين ، اسف الى دركات مغفلين لم يعرفوا بعد من نور المدنية الوهاج ولا من الفكر العصري الوثاب الا كما يعرفه الحيوان الاعجم من العقل الانساني ؟ حقا انه لموقف ما مر بي مثله في كل حياتي ، ولا كنت اظن قط بانني اقف فيه يوما ما من ايام حياتي ، عش رجبا تر عجبا .

فتركت الرجل يهذي هذيان المحموم ، يتفجر تعصبه على امته المسكينة بما يحتوي عليه من مقت شديد كانما وترته اهله وماله ، فقد راينا الرجل يرضى كل الرضى ان يصبح لكل اجنبي ، ثم لا يحمل على نفسه هذه الحملة ان تبين له خطاه في الاصاخة اليه ، واما امته المسكينة التي اشرب بين دراساته بغضها ومقتها وازدراءها واتخاذها المثل المضروب في الانحطاط والهمجية والرذيلة والجهل العميق ، فانه لا يرضى حتى ان يصيخ الى قولتها ليتبين له اهي على الحق ام على الباطل ، ولم تقدر دراسته للفلسفة ولا اعتناقه لمذهب الفلاسفة الروحانيين ولا اجالته الفكر والبحث فيما وراء المادة ان يخفف من مقته لها ، فهكذا هذه الطبقة التي سقطت في هوة عميقة قلما تصعد منها الا ان يشاء الله

فقلت له بعد ما افرغ ما في جعبته على راس امته: دع عنك الآن هذه الامة وما اتصفت به ، فانما ادعوك الى النظر في دينها فقط بكل عقلك ، فهل تستبعد ان يكون اصل الدين صحيحا ، ثم يحرف اتباع الدين ذلك الاصل ، فيسقطون مثل هذا السقوط ؟ فقال : لا بل ذلك ممكن ، وهذا لا استبعده .

فقلت : ارايت هذه المدنية التي خلبت نفسك ولا ترى الحياة بدونها ، او ليس ان اصول الفضيلة التي يرفع نبارسها الفلاسفة فيها غير ما يتمشى عليه فيه غالب ابناء المدنية ، والا فما هذا الجشع الهائل الذي يسود هذه المدنية ؟ وما هذه الامواج الزاخرة من الرذيلة والحسد والبغضاء بين افرادها فضلا عما بين اممها ؟ وما هذا التناحر على اكتساب الدرهم فيها تناحرا يهلك الرطب واليابس ؟ فاين موقع تلك الروح التي يجتهد اولئك الفلاسفة في رفع اعلامها الى اوج كل بيئة ؟ بل اين آثار النفوس التي تعير ادنى اصاخة للمثل العليا التي لا يزال غالب الجرائد تفيض به اعمدتها فيضا ؟ فما يكون عذرك ازاء بيئة مدنيتك من الاعذار ، فهيء منها لهذه الامة التعسة التي حملت عليها حملتك الشعواء وصوبت نحوها سهامك النافذة . فقال : انني اعهد منك دائما كلما تفاوضنا في شيء فخالفتك فيه ، ان انقاد اليك اخيرا مرغما ، بما لا تزال تلقيه على من براهين لا اجد غالبا مناصا من الانقياد اليها ، وان لم اكن احيانا انشرح بها صدرا ، واطيب بها نفسا فكانك تسحرني .

فقلت له : انني لا اجاذبك الا من جهة عقلك ، ولا احب منك الا عقلك وحده ، واما عاطفتك التي لا تنقاد غرائزها الا بمالوفاتها وعاداتها فلا شان لي معها، ولولا انني اعلم انك عاقل وانك منصف وانك تطيع لما يملي عليه عقلك حججه ، وان لم ترضه عواطفك ، ولا طابت به مشاعرك ، لما اهتممت بك اهتماما انفق فيه من نفيس عمري ، ومتى كانت الحقائق بنت العاطفة والشعور ؟ .

واما ادعاؤك ان كلامي يسحرك ، فاعلم ان الحق هو الذي يلقي عليك جاذبيته ، ويرسل اليك كهرباءه ، ولا يظهر المنصف من غير المنصف الا بالانقياد للعقل ، سواء انقادت مشاعره وعواطفه او لم تكن من المنقادين، فاحمد الله على ما اتصفت به من الانصاف ، ثم على ما تخلقت به من الصراحة ، فكل من لم يتصف بالانصاف ولا كان من ارباب الصراحة ،فلا خير فيه ، فان الحق حق دائما ، وهو دائما كالشمس في رابعة النهار وضوحا واشراقا ، وانما يختلف الناس في الانقياد اليه ، والاقدام نحوه بكل شجاعة تدوس على العاطفة والمالوفات .

ثم قلت له : دعنا من كل هذا ، فان الوقت قد ازف ، فهل تجد منك استعدادا تاما لخوض هذا المبحث الجديد في نظرك انت ، وان لم يكن في نظري وفي الواقع الا تتمة لما كنت فيه منذ شهر ؟

فقال : كل شيء اقبله منك الا المساواة بين بحث يدور حول ما عند الفلاسفة العظام من الغربيين ، وبين بحث مسف الى الدركات حول الخرافات المتكاثفة الذي تموج فيه امم الانحطاط والتاخر والجهالة ، امم الشرق، فلو كان في الشرق ادنى ذرة من الحق ، لما اصطدمت الديانات التي ابتلى العالم بها من عند هؤلاء الشرقيين وهذه المدنية الغربية المحلقه الى كل علياء بعقل جبار ، وخطا واسعة ، وتجريبات ميزت ما عند الامم ، فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ، فقد ظهر ان تلك الديانات الموسوية والمسيحية والمحمدية من الزبد الذاهب جفاء ، بل من الغثاء الذي تغادره السيول جانبا ، بل من المكروبات التي تعشش في الصدور فتتاكل بها الانسانية وتصدا بعض العقول . فبالله عليك خبرني هل تقدمت امم الغرب الا يوم نبذ قادتها وعلماءها ظهريا ديانات الشرق جمعاء؟ اولا تعرف كل هذا ؟ او لم يبلغك ما كتبه امثال (فولتير) من المجلدات الضخام في انقاذ الانسانية ، فكان له تاثير عظيم مهد السبيل الى الثورة الفرنسية 1789 م ؟

فقلت : اسالك سؤالا واحدا فاجبني عنه ، وهو هل يجد الاطباء وعلماء التشريح في ادمغة الشرقيين والغربيين من فرق في تجاويفها ؟ وهل الغدد التي تكون في اجساد الغربيين خلت منها اجساد الشرقيين؟ فقال : لا ، والحق يقال ، ولكن اين ما نحن فيه من هذا ؟

فقلت : من اين جاء جدود السكونيين والجرمانيين والقوطيين وكل امم اوربة ، اوليس انها كلها وردت من ءاسية ؟ فقال بلى .

فقلت ان الشرقيين والغربيين اذن من سلالة واحدة ، وعقولهم ومداركهم متقاربة ، تجد من هؤلاء ومن هؤلاء تشابها في الذكاء في طبقات ، وبلادة وتغفلا من طبقات اخرى .

فقال : لا ها الله ، لا نعمد الى عقول اخترعت القطار والسيارة والطيارة والغواصة والمذياع والهاتف وكل ما تفتخر به المدنية اليوم ، وتدين به في تقدمها وتفوقها ، فنحكم بانها عقول همج رعاع ذوي اوساخ ومدارك سخيفة ، فاين ءاثار عقول هؤلاء الشرقيين ؟

فقلت له : ان لكل وقت مخترعات ومكتشفات ، فمن يا ترى الذين اخترعوا المسائل الاولية في هذه المدنية، فمن استخرجوا الحديد والنحاس والمعادن اولا، ومن الذين اهتدوا الى السفن البحرية ، واخترعوا بيت الابرة والساعات الوقتية وصناعة الحرير واستنبطوا الزجاج واخترعوا البارود ومبادىء المطبعة، ورفعوا امثال الاهرام وبنوا السدود ، واخترعوا تطعيم الاشجار ، واخترعوا الكاغد والكتابة ورتبوا العلوم ونظموا الاسرة ، ونشروا نظام الحكومات والامم بعضها ازاء بعض ، واكتشفوا واخترعوا مئات بل ءالافا مما يعد اسا لهذه المدنية . اليست العقول التي فعلت كل ذلك عقول الشرقيين ؟ فالى اين ذهب علمك بالتاريخ، فهل جهلت ما اثره الفنيقيون والمصريون والاشوريون والصينيون والهنديون امس ، ثم اخذ اليونان عن المصريين ، ثم الرومان عن اليونان ثم العرب عن اليونان والرومان والفرس والصينيين والهنديين ،ثم الاوربيون اليوم عن العرب ؟ او لا تقع اثناء ما تطالعه من كلام المنصفين من علماء اوربة على ثناء عطر على مدنية العرب، كالعلامة (دوزي) والفيلسوف (غوستاف لوبون) والمؤرخ (سيديو) اقرا مؤلفات دوزي ، ومدنية العرب لغوستاف لوبون ، واسمع ما قاله سيديو : ان العرب هم اساتيذنا ومعلمونا . وقال فلان الامريكي ما معناه : اننا لا نزال نتعجب من العرب ، فكم فكرة نحسب اننا السابقون اليها ثم ينكشف الغيب من ثنايا التاريخ عن ان العرب سبقونا اليها . ثم قلت له بعد ما سردت عليه نصوصا من علماء اوربيين منصفين : ان العلم مشاع بين الناس اجمعين ، وفوائده ليست شرقية ولا غربية ، والمدنية لا تستقر في امة بالخصوص ، فقد صارت تتنقل من امة الى امة ، حتى بلغت اليوم اوجها. وسطعت انوارها ، فالقت عصاها امام كل انسانية ، فلا يضير الغربيين امس استغراقهم في النوم ، وجهلهم العميق في المدنية ، حتى كان الانكليزيون في الوقت الذي

تزدهر فيه مدنية الشرق على ايدي العرب . همجا لا يعرفون كيف يلبسون ، وانما لباسهم المعتاد جلود الضان والمعز يسلخونها فيقلبونها فيولون الصوف والشعر الى اجسامهم ، كما لا يضير الشرقيين اليوم تاخرهم عن شأو امم اوربة ، وانما عليهم ان لا يستنكفوا ان يقتبسوا منها ما يلائم مزاجهم وبيئتهم من الحضارة والصنائع والعلوم ، فاذا بهم بين عشية وضحاها امثال الغربيين سواء بسواء ، وهذا عين ما يفعلونه بالتدريج .
ثم قلت له بعد ان اسهبت في الموضوع : اتظن ان ما اخترعه الشرقيون او اكتشفوه في عالم الطب والهندسة والحساب والنجوم بمراصدهم المعلومة في بغداد والشام وما وراء النهر والاندلس وصقلية ، وما اكتشفوه في عالم النباتات والمعادن وما اخترعوه من كماليات المعايش لا يكون له مثل ما كان اليوم القطار وما ذكرته معه ، فان لكل جديد في وقته من اللذة والروعة ما يخلب الالباب ، ويستوقف الابصار ، ثم ما يدريك ان تكون مدنية اليوم كلا شيء في مدنية الغد . او نسيت ان لمؤلفات الفارابي وابن سينا وابن رشد وابن الطفيل وامثالهم عظيما في تكوين فلسفة هذا العصر وتوجيه عقليته الى ما تتوجه اليه ؟ او ليست كتب هؤلاء تدرس في كليات اوربة الى ما قبل قرن بقليل ، ولا يزال كثير منها يراجع الى الآن ، فان جهلت كل هذا فراجعه في مظانه .

الآن وقد سمعت ما سمعت : الا تزال تعزف عن النظر الى ما عند الشرقيين آباء مدنية امس ، والتلاميذ والعشاق لمدنية اليوم ؟ وما يدريك انك تقع في دراسة دينهم على ما كنت تظنه بمبعد منه جهلا منك ، كما وقع لك امس القريب يوم ان وليت وجهتك الى دراسة ما وراء المادة ، ثم لم تنشب ان وقعت فيما وراء المادة بدراستك على ما تتعجب به من نفسك حين كنت له قبل من الجاهلين .

ان الحق يا هذا حق ، ليس بشرقي ولا غربي ، والشمس في الغرب هي هي في الشرق ، فما لكم ايها المفتونون بالغرب وبهرجته ومادته المصقولة اللماعة تصدفون ، ومن الحقيقة تستنكفون ، فانى تؤفكون ؟ ام انتم قوم اغرار اغمار تجهلون ؟ .

فقال : لا واخلك الله بقولك هذه ، فانها لكلمة غير لائقة بادب مثلك ، فان للكلمة الشائكة تاثيرا في النفوس ، فتثور منها عصبية تعمي الابصار وتاتي على نور العقول وتغيض حلم الحليم .

فقلت : مسامحة ، فان الانسان وان بلغ من سعة الصدر ما بلغ ليحرج ويضيق اذا راى الحق يغمط والنور الوهاج ينظر اليه كما ينظر الى الظلمات .

فقال : الحمد لله على ما وفقني الله من الثبات امام كلمتك هذه ، وحين كان الحق هو طلبتنا معا ، فانه لا يضيرني ان ادخل معك في الذي تريد بكل اقدام .

فقلت : الحمد لله الذي وفقك الى الحق المبين ، ولولا انني اعلم منك استعدادا لما ادعوك اليه لما بذلت هذا المجهود العظيم ، ولكن من تطيب منهم السرائر امثالك لا يخيب عندهم ناصح ، والآن نختتم الموضوع ، فالله يوفق ويسدد .

ثم قلت له : ان تنس كل شيء فلا تنس ان لا تفلت منك مثل هذه الكلمة الشائكة نحو اخيك السيد العربي وان سمعت منه ما سمعت ، فذلك اليق بك . فلا تقف في مثل موقفي تعتذر منه كما وقفت انا ءانفا حين بدر مني ما بدر اقدم الاعتذارات .

فقال : انني اعدك بذلك وعدا وافيا ان شاء الله ان شاء الله ، فصار يكرر ان شاء الله ، فاردت ان يبرد الجو قليلا بنادرة احكيها تذكرتها الآن . فقلت له :

ذكرتني الآن وانت تكرر ان شاء الله حكاية جحى. فقد ذكروا انه خرج من داره بدراهم مصرورة في طرف عمامته التي القاها وراء ظهره متدلية ، فقيل له الى اين؟ فقال اني ذاهب الى السوق لاشتري لي بقرة . فقيل له قل ان شاء الله . فقال : اقول لكم انني ساشتري بقرة ، والبقر موجود في السوق ، والثمن معقود في طرف العمامة المتدلية من وراء ظهري ، ثم تقولون ان شاء الله ، انني ساشتري البقرة ولا شيء يمنعني والسلام . فرءاه بعض اللصوص وهو يجول بين زحام المتزاحمين في وسط السوق ، وشاهد ما في عمامته المتدلية ، فتبعه حتى وجد منه غرة اثناء زحام شديد . فقرض طرف العمامة بمقراض ، فلما اشترى جحى البقرة اهوى الى عمامته ليؤدي الثمن ، فلم يجد شيئا ، فوقف واجما فعرف من اين اتى !! فصار يقول ان شاء الله . فقيل له ماذا وقع لك ؟ فقال سرق مني الثمن ان شاء الله ، ثم صار لا يقول كلمة الا واتبعها ان شاء الله ، فحين طرق الباب وقيل له من الطارق ؟ قال جحى ان شاء الله ، فقيل واين البقرة ؟ فقال سرق المال الذي ذهبت لاشتريها به ان شاء الله ، ثم لم يزل ذلك ديدنه كلما كلم اهله .

فلما سمع حماد الحكاية ابتسم ، وقال : انك لذو نوادر فلولا ان الجد يشرك أحيانا بصلابته وتجهمه ووقاره لكان لك في سوق النوادر رواج ما مثله رواج . ثم قمنا من المجلس وانا احمد الله على النجاح .

الفخر الرازي في عالم الفلسفة

للمرحوم العلامة الفقيه
محمد السائح

يسر مجلة « دعوة الحق » ان تنشر هذا البحث القيم للمرحوم العلامة الفقيه السيد محمد السائح ، عن (الفخر الرازي في عالم الفلسفة) والمجلة تشكر الاستاذ الحسن السائح الذي استجاب لرغبتها ، فوضع رهن اشارتها هذا البحث لتنشره تحية لذكرى والده العظيم وتعميما للفائدة ، وتعريفا بالفكر المغربي .

دعوة الحق



معلوم ان الخصب الفكري لم يكن وقفا على فلاسفة اليونان ، ولا ان التراب العربي كان لاستنبات التراث اليوناني فحسب ، من غير ان يناله بصبغته ، ولا ان يدخل فيه من عناصره .

فان العبقرية العربية الجبارة ابرزت فلاسفة لا يشق لهم غبار ، فيهم الرازي الذي تحاول اليوم الحديث عنه ، الا ان شخصية الرازي الفلسفية ليست جلية لكل احد، فهو في عالم التفسير اشهر منه في عالم الفلسفة، وفي ناحية الجدل وعلم الكلام اسير ذكرا وابعد صيتا من نواحيه العلمية .

والواقع ان الرازي بما اوتي من المشاركة بمعناها التام في مختلف العلوم ، فيلسوف بحاثة مدقق ، غير ان عدم الالتفات الخاص لناحيته الفلسفية كان له اكبر الاثر في تحويل انظار كثيرة عنه ، كما ان امتلاء الجو الفلسفي بصدى الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن الطفيل ، واضرابهم ، لم يسمح بسماع ذكر الرازي جليا ، لهذا كان اهتمامي بهذه الناحية من نواحي علومه المتنوعة اكثر ، الامر الذي حملني على ان آثرتها بهذا الحديث بوجه اخص ، تحريكا للافكار ، وتنبيها للاذهان على ما كان لسلفنا من الزعامة في مختلف العلوم ، حثا للخلف على تحدي السلف ، سيما في هذا العصر الذي انبثقت فيه عناصر العلوم ، وانفهقت حياضها ، وادرك اهل التفكير عيانا ان لا حياة لهم الا بالتروي من معينها .

حياة الرازي وعصره

الرازي هو شيخ الاسلام محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين البكري ، المولود بالري ، سنة ثلاث واربعين او اربع واربعين وخمسمائة ، والمتوفى بهراة سنة 1205 ، العربي المنصر ، ومن تاريخ اشراق نور الوجود عليه ، تعلمون انه كان في آخر دولة بني العباس، والتتر على الابواب ، حيث كان ظهور جنكيز خان وعبوره نهر جيحون سنة 606 وكان العصر اذ ذاك من اوسع عصور الدولة خلافا فكريا ، كما كان اوسعها خلافا سياسيا ، واني اعرض هنا صورة مصغرة تشخص ذلك العصر الذي كان يعيش فيه الرازي ويستمد منه حياته العقلية ، بقصد ربط افكاره بعصره فاقول :

لا يعزب عن الفكر ما بلغه الملك العربي من الاتساع وترامي الارجاء والاستيلاء على اطراف المعمور شرقا وغربا ، وان حكم العرب قد امتد من نهج التاج غربا ، الى نهر الكانج شرقا ، مع ما كان يقوم به من نشر الدين والثقافة العربية ، وضروري ان اتساع جوانب هذا الملك العظيم يقضي باندراج شعوب كثيرة في بحبوحته وتحت ظل رايته ، وضروري ايضا ان هذه الشعوب الكثيرة من فرس وتركوروم وسريان وغيرهم لها اديان تدين بها وءاراء تتبع امزجتها ، ومعلوم ايضا ان منهم من اعتنق الاسلام ، ومنهم من بقي على دينه تحت حكم الاسلام ، ومعلوم ما كان بينهم وبين العرب من الامتزاج والاتصال المباشر ولا سيما في عصر بني العباس .

لا شك ان هذا التلاقح الفكري ينتج افكارا وءاراء لم تكن معروفة للعرب وهم بين الشيح والقيصوم ، وكذلك كان ، فقد ظهرت فيه ءاراء مختلفة ، ومذاهب متنوعة ، ونظريات ونحل ، ولا سيما فى العلم الالاهي ، وكان ذلك موضوع البحث والجدل فيما بينهم ، كما ان ذلك الامتزاج راض اذهانهم وحبب اليهم البحث والنظر، ونبههم الى علوم الامم التي كملت فيها العلوم ، فكان مما اهتموا به علوم اليونان ، وهي امة كملت فيها الحكمة فى الاحقاب المتطاولة ، فدرسوها وحذقوا فيها ، وافرغوا جدلهم فى اساليب منطقية ، وقوالب منظمة ، كما كان البحث عند اليونان ، واصبحت الفلسفة لديهم موردا لا ينفد لهذه الابحاث ، كما تسلحوا بها للمناظرات

وكان المعتزلة اول من استعمل هذا السلاح الجديد للرد على المخالف فى الدين ، ونشا فيهم عباقرة مثل الجاحظ والنظام وابى الهذيل العلاف ، وكان لهم بذلك جهاد فكري واسع ، كما كان ذلك الاسلوب الجديد مثارا للخلاف بين المتكلمين المعتمدين على المنطق والتفكير العقلي ، وبين اهل الحديث المعتمدين على خالص النقل ، وكان من خلفاء بني العباس من يعضد المتكلمين ومنهم من يظاهر المحدثين كما يقصه التاريخ ، واثر هذا الخلاف واضح فى كتب علماء ذلك العصر ، ككتاب الحيوان للجاحظ ، وكتاب مختلف الحديث لابن قتيبة ، كما ان الحافظ الذهبي فى الميزان ، كثيرا ما يبني تعديله وتجريحه على هذا الاساس ، وعلى ارومة هذا المنزع ، الامر الذي يوقعه فى التعصب احيانا كما فعل فى ترجمة الاشعري والفخر الرازي الذي نتحدث عنه اليوم .

ولم يقف هذا الصراع عند اصحاب الاراء المذهبية، بل جاوزه الى حلقة الفقهاء مع اتفاقهم فى اصول التشريع . ومنشا ذلك ان تشدد ابي حنيفة فى شروط العمل بالحديث ، كثيرا ما يوقعه فى ترك العمل باحاديث ثابتة عند اهله ، فيشنعون عليه بانه قدم رايه على السنة .

وفى تاريخ بغداد تشنيعات كثيرة على هذا الامام الاعظم ، ومنشؤها ما ذكرنا ، وهكذا تشعب الخلاف وتمددت اقطاره ، وحمي الوطيس واحتدم النضال الى حد قد يمضي احيانا الى الكيد للمخالف او تحكيم حد السيف .

وان فتنة القول بخلق القرءان ما كانت الا ثورة من هذا البركان ، وقد امتحن فيها فحول عظام من ائمة الاسلام ، كالامام احمد بن حنبل ، واحمد بن نصر الخزاعي ، وغيرهما . وقد شغلت شطرا من ايام المامون واستوعبت ايام المعتصم والواثق ، الى ان ارتفعت فى خلافة المتوكل .

وان واقعة التتر ببغداد كانت بتحريض ابن العلقمي الرافضي وزير المعتصم لهولاكو ، وتهوين امر بغداد عليه ، وكانت الفتنة ببغداد لا تزال متصلة بين الشافعية واهل السنة ، وبين الحنابلة وسائر المذاهب كما بتاريخ ابن خلدون وغيره .

وهذه الري بلد الرازي كانت ميدان حرب بين ثلاث طوائف : الشافعية ، والحنيفية ، والشيعة ، كما بمعجم البلدان لياقوت .

وبالجملة فقد كانت هذه العصور زيادة على افتراق وحدتها السياسية ، متحالفة متشاكسة مماوءة الجو بالشقاق والجدال ، جدال بين المسلمين واهل الملل ، جدال بين الطوائف ، جدال بين المتكلمين والمحدثين ، جدال بين ذوي المذاهب الفقهية .

فى هذا الجو نشا محمد بن عمر الرازي بمدينة الري . ومنه استمد معارفه ، فتلقى الفقه على والده خطيب الري وكان من تلامذة محيي السنة ابي محمد البغوي ، وعلي الكمال السمعاني ، كما تلقى الحكمة عن المجد الجيلي بمراغة ، وكان المجد من الاعلام فى زمانه . ومهر فى علوم الاصول والفقه والكلام وعلوم الاوائل .

تنقلات الرازي واتصاله بالسلطان علاء الدين خوارزم شاه :

دخل الرازي خوارزم ، وجرت بينه وبين المعتزلة هناك مناظرات فيما يرجع الى المذهب والاعتقاد ، اقتضت الى خروجه منها ، ثم عبر الى ما وراء النهر ، فجرى له نحو ما جرى له بخوارزم واستقض مضجعه، فانقلب الى الري ، ثم اتصل بالسلطان (علاء الدين خوارزم شاه محمد تكش) فتحفى له وحظي لديه ، وهذا السلطان من اعاظم الملوك قدرا ، عقد ابن الاثير فى تاريخه ، لصفته وسيرته ، فصلا مما جاء فيه : انه اتسع ملكه وعظم ، واطاعه العالم باسره ، قال : وكان مكرما للعلماء محبا لهم يكثر مجالستهم ومناظراتهم بين يديه . وفى طبقات الشافعية ان عساكره كانت عدد الحصى ، لا يعرف اولها من ءاخرها .

دخول الرازي لهراة :

لمعرفة قيمة هذا الامام عند اهل عصره ، علينا ان نعلم انه لما دخل هراة تلقاه سلطانها وتحفى له ، وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، ونصب له المنبر بالديوان من المسجد الجامع لعقد مجلس الاملاء ، وجعل عن يمينه وشماله صفين من مماليك الترك متكئين على السيوف على صفة رسمية ، وحضر الملك نفسه ، فاشار لـــه بالجلوس حيث عين له ، وكذلك حضر هذا المجلس السلطان محمود بن اخت شهاب الدين القوري ، فاشار اليه الشيخ بالجلوس ايضا حيث عين له .

خصبه الفكري واتساع معلوماته :

كان الرازي يدرس كل ما انتهى اليه مما ابرزته الافكار كيفما كان ، ليقف على حقيقته ويتصل بكنهه ، وكانت له عناية بدرس علوم الاوائل ، بل علمنا انه كان يدرس الكتب القديمة ليحتج على المخالف كيفما كانت عقيدته او نحلته ، وبسبب ذلك ادرك من العلوم ما يمكن للبشر ادراكه ، كما تحدث بذلك عن نفسه .

واذا كانت النفوس كبـــارا
تعبت في مرادها الاجســـام

واذا فحصنا اسلوبه في المناظرة ، الفيناه غزير المادة متدفق المعاني ، يهجم على خصمه فلا يكاد يترك في القوس منزعا ولا في الكاس صبابة ، ولاكننا لا ننكر ان استدلالاته قد تكبو احيانا ولا تاتي بالنتيجة المطلوبة، كما يلوح لنا ان انهماكه في البحث والنظر، وتقليبه للافكار على جميع الوجوه ، وتمحيصه لها من كل النواحي ، وتوسعه في حشد الآراء واستقراء المذاهب كيفما كانت وجهتها ، يلوح لنا ان هذا الاسترسال وهذا النهم الفكري ، قد يوقفه احيانا على شفا الشك والحيرة فيقول :

نهاية اقدام العقول عقـــال
واكثر سعي العالمين ضـــلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى ان جمعنا فيه قيل وقالوا

ويقــــول :

ارواحنا ليس ندري اين مذهبهــا
وفي التراب توارى هذه الجثــث

كون يرى ، وفساد جاء يتبعــه
اللــــه أعلـم ما في خلقـه عبـث

كما انا ندرك منه يقينا وفي غير ما موطن ، انــه يبدي نشاطا وحدة في تقرير شبهة المخالف ، ثـم اذا انبرى لنقضها فترت حدته وسكنت سورته ، وكانه من اجل هذا رماه الذهبي في الميزان بقوله :

له تشكيكات على مسائل من دعائم الدين تورث حيرة .

ولاكنا اذا سبرنا غوره ، ادركنا انه ما كــــان يستسلم لمذهب الشك ، ذلك المذهب المنبني علــى ان الوصول الى الحقيقة متعذر وان ما عند الناظرين انما هو آراء لا حقائق ، وانما الذي كان يقع منه انــــه اذا جاشت نفســه بمعضلة ، واعياه حلها ، اعترف بقصور الفكر البشري ، واسلم وجهه للذي فطر السمــــوات والارض ، وهذا كما في السؤال الذي وجهه عن حكمة الوسائط في الخلق الالاهي ، وعدم الخلق المباشر ، فانه لما لم يهتد للحكمة فيه ، رد الامر الى الحكيم العليم .

وان فطاحلة المستغرقين في البحوث العميقة ، كثيرا ما تلقي بهم بحوثهم في مجاهل شاسعة لا يقف الطرف منها على غاية ، وكثرا ما تقف في وجوههــم سدود لا يستطيعون لها نقبا ، فما يسعهم اذ ذاك الا ان يردوا الامر لربهم ليستمدوا من حضرته ما فيه سكن لارواحهم ، كما يظهر لنا ان ذلك الشك كثيرا ما كان يستجره الى الامعان في النظر الذي يتبعه الوصول الى الحقيقة ، شان كل فكر حر بحاث على الحقائق ، فيكون هذا الشك وسيلة لليقين ، كما هو تفسير شك (ديكارت) الفيلسوف الشهير . كان يشك ليستيقن ، وقد ادرك ابو حامد الغزالي هذه الحقيقة قبل ديكارت بعدة قرون ، كما يعرف ذلك من رسالة حي بن يقظان الاندلسي لابن الطفيل ، وقبله الجاحظ ، واجاد شرحها في كتاب الحيوان .

الاسلوب الذي يراه الرازي في الدعوة :

كان الرازي يرى ان الطريقة المثلى في الدعوة الى الحق هي طريق المنطق ، ولذا كان يفرغ احتجاجـات القرآن في قوالب منطقية ، ويرى ايضا ان دعوة الانبياء كانت على هذه الطريقة بالتاويل المذكور ، الا انه كان كابي حامد الغزالي ، لا يرى ما يراه الاشاعرة من التزام تلك الادلة الكلامية التي قرروها وحتموا السير عليها ، فان بعضها قد يتبين بطلانه ، فيستدل على المطلوب بما

هو اقوى ، فلا معنى للحجر في الاستدلال ، وهي خطوة اصلاحية مهمة في علم الكلام .

ولكن مع هذا ادرك اخيرا ان احتجاج القـــرآن بنهجه الواضح واسلوبه البين ، هو اقوم قيلا واهدى سبيلا ، فقد قال في وصيته المشهورة :

ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رايت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن .

ونحن اذا فكرنا في هذا الموضوع بصفاء فكـــر واخلاص وجهة ، ندرك جليا ان دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم المعتمدة على براهين القرآن ، تناجي الفطرة، وتتصل بالقلب اتصالا مباشرا ، لقيامها على التنبيه على آيات الله في الانفس والآفاق .

اما الجدل المنطقي فلا يكاد يقوى على ادراكه الا من راض فكره بالنظر ، وليس كل الناس بمتاهل لذلك، وانما كان سلاحا في عصور قد خلت ، كان ذلك مقتضى الحال فيها لمقابلة الخصم بالمثل ، وقد هلك كثير من تلك الطوائف في الدهر الغابر ، فليس اليوم لاحياء تلك الخصومة من داع ، على انه قد انكره في تلك العصور نفسها كثير من السلف لما فيه من تحويل العقيدة الاسلامية البسيطة السهلة ، الى عقيدة نظرية معقدة ، ويكفي ان نعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن صفة ربه ، انزل الله سورة الاخلاص : **قل هو الله أحد ..** السورة .

ولو اننا قمنا بدعوة القرآن ، ونبهنا على ما فيه من آيات الله في الانفس والآفاق ، لكان خيرا لنا واهدى سبيلا ، وان احسن كتاب رايته على هذا الاسلوب هو كتاب (آيات الله في الآفاق) او (طريق القرآن الكريم في العقائد) للشيخ محمد احمد العدوي المصري احسن الله اليه ، ولو ان علماءنا قاموا بتفنيد شبه اخرى تطوح بعدد غير قليل من العقول ، وانقذوا الناس من مخالبها لكان خيرا لهم . ولو انهم قاموا بنشر مبادىء الاسلام المطابقة لروح كل زمان ومكان ، وقرروا ما فيه من اليسر والسماحة ورحابة الصدر لكل جديـــد ، لعظمت مثوبتهم عند الله . وقد قررنا في كتابة لنا على حديث « انا امة امية » ابتناء الدين على اليســارة والتقريب وما يسهل فهمه على العموم عاما في العقائد والعمليات ، وان من احسن ما صنف في الدعـــوة الاسلامية كتاب (الوحي المحمدي) للاستاذ رشيد رضا فعلى الشباب ان يعنى به ويهتم بدراسته

الرازي وجمعه بين ثقافات ثلاث عربية وفارسية ويونانية :

ثقافته العربية : العربية لغته ، كما ان عنصره عربي ، وله فيها وفي علومها اليد الباسطة والشـــأو البعيد ، ولو ذهبنا نتحدث عن مباحثه في العربيـــة وعلومها لطال بنا المجال ، وحسبنا ان نرجع الـــى تفسيره (مفاتيح الغيب) ولاسيما تفسير (الفاتحة) لنعلم مبلغ تمكنه في علوم اللسان ، وله تاليف مختصـــر في الاعجاز ، ومؤاخذات جيدة على النحاة ، وشرح سقط الزند للمعري ، ويقال ان له شرح المفصل في النحـو للزمخشري .

ثقافته الفارسية : الرازي كان يحسن اللسان الفارسي نثرا وشعرا ، وكان يعظ به ، ونحن نعلـم ان الوعظ بلسان لا يتاتى الا من حاذق فيه ، عـــارف باساليب التاثير على اهله . وقد قال في تفسيره في ضرب الامثال انه امر معروف عند العرب والعجم ، قال: ويدل عليه عند العجم كتاب (دمنة وكليلة) وامثاله وله مصنفات باللسان الفارسي ، وقد استفدنا من هذا، انه ينبغي للعالم ان يعرف من لغات عصره ما يتوقف عليه سير الحياة وحفظ توازن امته مع الامم ، لا سيما في المستوى العلمي ، وقد كان الرازي قائما بنصـــرة الدين والنضال عن مذاهب اهل السنة ، ولا سيما لما كان بهراة .

ثقافته اليونانية : ان (ابن القفطي) في (اخبار العلماء باخبار الحكماء) يذكر الرازي في صف الفلاسفة، ويحليه بما صورته : **بذ القدماء في الفقه وعلم الاصول والكلام والحكمة ، قال : ورد على ابن سينا واستدرك عليه ،** له تاليف كثيرة في علم الحكمة ، كالملخـــص ، والمطالب العالية ، وشرح عيون الحكمة ، وكتـــاب الاشارات ، وفي الطب ، كالجامع الكبير الملكي ، وكتاب النبض ، وشرح كليات القانون ، قال : الا انه لم يتمه . وفي الهندسة وعلم الاحكام النجومية الخ وقد قال فيه شرف الدين ابن عنين :

غلط امرؤ بابـــي علـــى قاســـه
هيهات قصر عـــن مـــداه ابو علـــي
لو ان رسطا ليس يسمع لفظـــة
من لفظة لعرتـــه هـــزة افكـــل
ويحار بطليموس لو لا قاه عـــن
برهانه في كل شكـــل مشكـــل
ولو انهم جمعوا لديـــه تيقنـــوا
ان الفضيلـــة لـــم تكـــن لـــلاول

وليس من تآليفه (السر المكتوم فى مخاطبة النجوم) خلافا لما زعم الذهبي ، وقد حمل ابن السبكي فى طبقاته على الذهبي فى ذلك حملة منكرة ، ونسبه الى التعصب على الامام ، وانه ليس لذكره فى الميزان من داع حيث ان الرجل ليس فى صف المحدثين .

مادة فلسفته ورسمها :

كانت فلسفته نظرية على راي ارسطو وهي الفلسفة التي اعتنى بها العرب كثيرا ، ويحدثنا ابن القفطي ان الرازي وقف على تصانيف ابي علي بن سيناء والفارابي ، وعلم من ذلك علما كثيرا ، وقد ذكر الغزالي فى المنقذ من الضلال انه لم يقم بنقل علم ارسطو من المتفلسفة الاسلاميين مثل الفارابي وابن سينا .

الرازي يحاول الجمع بين الدين والفلسفة :

يرى الرازي ان الفلك الاعظم هو العرش ، وهذا من محاولة الجمع بين الدين والفلسفة ، وقد حاول هذا غير واحد من فلاسفة الاسلام كابن رشد فى كتاب فصل المقال ، وابن الطفيل فى رسالة حي بن يقظان ، واعظم فيلسوف سعى الى ذلك هو ابن سينا ، قال المازري : اعظم فيلسوف حاول رد اصول العقائد الى علم الفلسفة هو ابن سينا ، قال : وتلطف جهده حتى تم له ما لم يتم لغيره ، وممن تصدى لذلك وافرغ له جعبة معارفه اصحاب رسائل اخوان الصفا .

اما نظري فى هاته المحاولة فهو انها من الاعمال العقيمة ، فان ما كان ثابتا ثبوتا يقينيا لا يمكن ان يتصادم مع الدين بحال ، وما كان من حيز الآراء والظنون التي قد تطفو اليوم وترسب الغد ، فالقرآن اعلى منه منالا ، فلا معنى لهذه المقارنة ، لا سيما ووجهة الدين غير وجهة الفلسفة ، فهذه مسئلة الافلاك وما ارتأى اليونانيون فى حقائقها ، واثبات النفوس لها ، اصبح ذلك من الاوهام والخيالات فى نظر العلم الصحيح، على ان جملة معارفهم فى الهيئة اصبحت اليوم كهباء منثور فى زوايا العلم ، والاحظ بالخصوص على رسائل اخوان الصفا ، فقد اشتملت على فلسفة فيثاغورس التي هي ارك المذاهب الفلسفية وارذلها ، وربما اشتملت على ما هو كفر مع تزيينه والاحتجاج له

بعض نظريات الرازي العلمية مع عرضها على محك البحث الجديد

وقد اوردناها كصورة مصغرة لقيمة تفكيره

البيولوجيا (علم الحياة)

الرازي اول من تحدث عن مذهب النشوء والارتقاء ، واشاد ببطلانه ، تحدث عن ذلك لدى قوله تعالى : (**ومن ءاياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون)** . فقرر ان التراب ابعد عن قبول الحياة من سائر الاجسام ، لان العناصر ابعد من المركبات ، لان المركب بالتركيب اقرب درجة من الحيوان ، والعناصر ابعدها التراب ، ورتب الموجودات من ادناها الى اعلاها : المعدن ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، ثم الانسان .
ثم بين ان نكتة (اذا الفجائية) فى قوله تعالى (ثم اذا انتم بشر تنتشرون) الاشارة الى ابطال التحول ، وان الانسان خلق من اول نشاته انسانا ، لا انه انتقل من مرتبة اخرى قبل الانسانية .

وقد قال محمود بن سالم فى خطبة القاها بالجمعية الجغرافية المصرية : ان جميع معضلات المسائل التي لا تزال قيد انظار الباحثين وغل البابهم ، ناقشها علماء الاسلام من قبل ، ونضرب لكم مثلا مذهب داروين ، فقد وقف عليه مفسرو القراءن وافاضوا فيه، وداروين وءاباء داروين ضمير فى الغيب مستتر ، ولمن شاء التحقيق ان يراجع تفسير الفخر الرازي .

ومما يقوي ما يراه الرازي ويراه ايضا كل معتقد ، ما نشاهده من ان لكل نوع من المخلوقات كيفما كانت درجته اتجاها خاصا وميلا لا يعدوه ، وبهذا نقض الفيلسوف (برجسون) مذهب التطور فى كتابه التطور المبدع ، واجاد القول فى توضيح ذلك ، زيادة على النقوض العديدة التي اوهت هذا المذهب ، ومنها عجزه عن تعليل الالهامات فى الحيوانات ، ومنها ان التحول الفجائي كما فى الشرنقة مما يدكه من اساسه .

الحقيقة الانسانية عند الرازي

الرازي يرى ان الحقيقة الانسانية هي الروح ، وان الانسان ليس مجموع هذه البنية ، ويحتج على ذلك بان اجزاء هذه البنية فى الذوبان والانحلال والتبدل ، والانسان المخصوص باق من اول عمره الى ءاخره ، والباقي مغاير للمتبدل ، ويستنتج من هذا حقيقة الانسان هي الروح ، وهو مذهب النظام ، والحديث عن هذه المسالة شهير ، وقد استفدنا من كلام الرازي قضية تبدل الاجسام بالتحلل والاستعاضة (او قل النمو والذبول) وهو امر معلوم ، حتى ان الجسم كله ليتبدل فى سبع سنين كما اثبته العلم .

البنية ليست شرطا للحياة

ذكر في مفاتيح الغيب ، وفي المحصل ، ان البنية ليست شرطا لوجود الحياة ، خلافا للمعتزلة والفلاسفة، ويعني بالبنية الجسم المتعارف ، وقد بنى على هذا انه يجوز تعلق الحياة ببعض الجسم ، وهذا امر لا نرتاب فيه ، سيما وقد اثبت العلم ان الحياة هي الاصل للمادة، وان الحياة علة الاجسام ، والبرهان عليه ما يشاهد في جماعة (**الاميب**) من تمتعها بكل الخصائص والمميزات الاصلية للحياة ، حتى انها لتبني لنفسها قواقع جميلة ومعقدة التاليف احيانا ، والحال ان هذا الحيوان خال من كل تركيب .

هل الجامع والحافظ شيئان او شيء واحد ؟

المراد الجامع لاجزاء النطفة ، والحافظ لذلك الاجتماع الى قبول الجنين للنفس الناطقة .

هذا المبحث من اجل المباحث ، قال في رسالته المشتملة على اجوبة مسائل المسعودي : واعلم ان الجامع لتلك العناصر غير الحافظ لذلك الاجتماع ، والذي عليه ابن سينا في الشفاء والارشارات : ان الجامع والحافظ هو نفس الام ، وقد اجاد الطوسي القول في شرح المسالة ، وتلخص له ان الجامع للاجزاء الغذائية الواقعة في الماءين هو نفس الابوين ، وهو غير حافظها . والجامع للاجزاء المضافة اليها الى ان يتم البدن ، والى آخر العمر ، والحافظ للمزاج هو نفس المولود .. الخ .

وقد اثبت علم الفسيولوجي الحادث ، انه عند ما يتم التلقيح باتصال الحيوان المنوي بالبويضة التي يفرزها الرحم ، تنقسم تلك البويضة الى عدة خلايا متماثلة . وهو طور العلقة ، لكون تلك الخلايا صغيرة ككريات الدم ثم فيما بعد ، تتنوع خلاياها ويتميز بعضها عن بعض ، لتتخلق منها الاطراف والعظام والعضلات ، واما تغذي الجنين فيكون بواسطة الحبل السري ، وقبل وجوده بطريق الامتصاص ، الى آخر ما هو مبين في ذلك العلم ، وعليه فان الجامع نفس الابوين ، والحافظ نفس الجنين ، وهو ما عليه الرازي .

استعمال الحيوان للدواء الهاما

ذكر في رسالة النفس من مطالبه العلية ، ان وقوع (الصعتر) في الترياق علم من الكركي ، فان بعض الاطباء كان في بعض الجبال يجمع الحشائش ، فجلس في مغارة يستظل وقت الهاجرة ، فراى كركيا يقاتل افعى ، وكلما نهشته الافعى عاد الى (الصعتر) واكل منه ، ويعود اليها ، فعمد الطبيب الى ما هناك من (الصعتر فقطعه ، فنهشت الحية الكركي فجاء الى (الصعتر) لياكل منه فلم يجده ، فبقي زمانا يسيرا ، ووقع صريعا ومات سريعا) .

واستعمال الحيوان للطب الهاما وغريزة امر معروف ، وممن اجاد القول في ذلك ابن طرخان الحموي في كتاب الاحكام النبوية في الصناعة الطبية ، هذا وبعضهم اثبت للحيوان التفكير المنطقي ، حداه الى ذلك عجائب النمل ، وهو قول قد قوبل بالمعارضات الحادة اما المذهب المادي فيرى ان التفكير مجرد تفاعلات كيمائية ، وهو مذهب مرذول ، والراي الصواب ان للحيوان الالهام او قل الغريزة ، وهو التفكير في دائرة محدودة ،وللانسان التفكير المنطقي ، هياه الله له ، وعلم ءادم الاسماء كلها . اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم . والكلام على كنه التفكير واسع المدى .

من فوائد الرازي الطبية

قال ان الدم يتجمع حيث يحتاجه البدن للعمل ، وهذا امر ثابت ، فالدم يتجمع للرحم وقت تكون الجنين ، وللدماغ وقت التفكير ، وللمعدة وقت عملية الهضم ، ولذا لا يحسن العمل الفكري بعد تناول الطعام مباشرة الا بعد مضي ساعة على الاقل .

وذكر ان المواظبة على طعام واحد تضعف الشهية، وقرر في حكمة النوم ، انه لتحصيل الراحة وانبعاث القوة الهاضمة وانفاذ الغذاء الى الاعضاء ، فالنوم راحة للبدن ونمو له .

ومن العلم الطبيعي :

قرر الرازي ان الهواء لا يقبل النور ، وبنى على ذلك ان ضوء الصبح لا يمكن أن يكون من الشمس تناقل من هواء الى هواء ، مبطلا بذلك نظرية ابن الهيثم .

ولكن ارى ان نظرية الرازي مردودة ، بما ثبت من ان هذا العالم مملوء بالاثير ، وان في هذا الاثير تحصل تموجات منها ينشا النور والكهرباء والجذب ، وقد ادرك الجاحظ وهو من علماء العصور الاولى هذه الحقيقة فقال : ان الهواء فيه ظلام الليل وضياء النهار ، وما كان فيه من الاشباح والحركة لا ترى الضياء العارض في الهواء ما تباعد منها الخ ...

وقد اثبت العلم ان نور الشفق يحمل مقدارا كبيرا من الاشعة التي فوق البنفسجي ، وقد قالت اللجنة العلمية التي عينت لدرس صحة الاسلاندين : فلا نعجب ان تعلو ابناء الاسلانديين سمرة الصحة ، فاصفرار بشرتهم فى اثناء فصل الشتاء الطويل ، يجعلهم اشد تأثرا بالمقدار الكبير من الاشعة التي فوق البنفسجي الذي فى جوهم ربيعا وصيفا . ص 208 كتاب (العلم الحديث) .

وليست هذه الاشعة الا جزءا من الاشعة التي ينحل اليها نور الشمس ، تظهر قبلها او تبقى زمنا خاصا بعدها ثم تنسحب مع نورها . وعليه فالراي ما رآه الهيثم من قبول الهواء للنور .

العناصر الاربعة لها هيولى مشتركة

ذكر فى انفجار الماء من الحجر عن الفلاسفة : ان العناصر الاربعة لها هيولى مشتركة ، وقالوا انه يصح الكون والفساد عليها ، وانه يصح انقلاب الماء هواء وبالعكس ، وخرج ايضا تكثير الماء عليها . وقد اجاد القول فى شرح هذه المسالة فيما كتبه على الاشارات ، فان نوزع فى هذا بان العناصر غير المشعة لايمكن تحويل بعضها الى بعض ، اجبنا بان هذه العناصر هي عند التدقيق مواد مركبة من ذرات ، والذرات لا يمكن تحويلها ولا ابادتها بقوة من القوى الطبيعية المعروفة كالحرارة والضغط ، اما المواد فيمكن ان يستحيل بعضها الى بعض بتفاوت نسبة مقادير العناصر ، او قل الذرات الداخلية فى تركيبها ، كما يستحيل العصير الى الكحول ، فقد اثبتوا ان عصير العنب انما به ماء وسكر ، وانه اذا تخمر ، انحل جزء من السكر ، وانفصل عنه ما فيه من الاكسجين والايدروجين والكربون ، ثم تتركب هذه بمقادير جديدة وعلى نسبة معلومة تنشأ عنها المادة الخمرية المسماة بالكحول ، فيصير عصير العنب خمرا بدون ان يزاد فيه شيء او ينقص ، وما ذكره الفلاسفة من تحول العناصر الاربعة الى بعضها ، هو ان تم علميا ، من هذا .

الكيمياء بالاطلاق القديم

الرازي يرى استحالة الكيمياء ، ويرى ان الله تعالى ضرب دونها بابا مسدودا لاختلال نظام التعامل بتيسر الذهب والفضة ، حيث انه لا فائدة فى وجودهما الا التمنية قال : وهذه الفائدة لا تحصل الا عند العزة . اما ما لا مضرة فيه على الخلق ، فقد مكنهم منه ، فصاروا متمكنين من اتخاذ الشبه من النحاس والزجاج من الرمل . والرازي نفسه حاول الكيمياء ولم يؤب منها بنتيجة ، كما ذكر ذلك عنه ابن القفطي ، وقد سلف عنه انه كان يدرس كل علم برز للوجود ليقف على حقيقته ، والدليل الذي استدل به على استحالة الكيمياء خطابة لا غير ، واما البرهان الذي احتج به النافون ، فهو ان الذرات التي تتمكن منها العناصر لا يمكن تحول بعضها الى بعض بقوة من القوى الطبيعية المعروفة كالحرارة والضغط كما اسلفنا .

الرازي ينكر التنجيم

الرازي صرح فى تفسيره بانكار التنجيم ، اعني علم الاحكام النجومية ، واستدل على ذلك بالآيات المبعدة للخلق من علم الغيب . وامر التنجيم مما ياباه الاسلام ، ومما لا ريب فيه انه كان معروفا فى القديم عند الكلدان ثم اليونان ، وقد نفقت سوقه فى دولة العرب ، ولا سيما فى العصر العباسي فى جملة علوم اليونان التي ادخلوها ، كما ان بعض معلومات عنه كانت رائجة فى فجر الاسلام ، ولربما كانت من بقية ما تلقاه القدماء عن الكلدان ، فقد كان منهم من يعتقد ارتباط السعادة والنحوس بالكواكب ، يدل لذلك ما جاء فى منتخب كنز العمال ان عمر بن الخطاب لما هم بالخروج الى الشام ، واراد ان يدلج والقمر فى الدبران ، اراد الربيع بن سبرة الجهني ان يذكر له ذلك ، ولكنه عرف انه يكره ذكر النجوم ، فقال له : انظر الى القمر ما احسن استواءه الليلة ، فنظر فاذا هو فى الدبران ، فقال قد عرفت ما تريد يابن سبرة ، تقول : ان القمر فى الدبران ، والله ما نخرج بشمس ولا قمر ، الا بالله الواحد القهار . واورد نحو هذه القصة عن علي بن ابي طالب حين انصرف من الانبار الى اهل النهروان ، وذكر له مسافر ابن عوف بن الاحمر : ان الساعة غير موافقة للخروج ، فكذبه وخالفه وخرج .

نظر العلم الحديث فى ذلك

اما الآثار الطبيعية للنجوم فامر ثابت لا مرية فيه ، وذلك نحو ما يقع من تهيج قرص الشمس بمقابلة العلو بين زحل والمشتري لها مجتمعين ، كما يحصل فى البحار من مقابلة القمر من التهيج ، ويتبع هذا الهيجان تغير فى الطقس من اشتداد الحر وكثرة العواصف ، ولذلك اثر كبير فى احوال الحيوان والنبات ، وكذلك ما للشمس من اثر فى نمو النبات ، فانه باشعتها يتمكن النبات من تحويل الكربون الذي تمتصه اوراقه الى المادة الخضراء (كلوروفيل) التي هي قوام النبات ، وكذلك ما للقمر من الآثار فى الخصب والمد والجزر

والطمث مما هو معلوم ، وقد اجاد فى المطالب العلية القول فى منافع الشمس والقمر وأتى فى ذلك بما لا غاية وراءه ، وقد نقل كلامه الراغب فى سفينته ص 189 وما بعدها .

وعلى هذا يحمل تسخير هذين الكوكبين فى اية : (**وسخر لكم الشمس والقمر دائبين**) والتنجيم بهذا المعنى مما يعترف به الرازي ، فقد قال : ولو حكمنا باسناد حوادث هذا العالم السفلي الى الحركات الفلكية والكوكبية ، فهذه الحركة مستندة الى الخالق .

وقال ايضا انه لابد من الصانع الحكيم ، سواء قلنا ان وجود المسببات عقب الاسباب امر عادي ، او بقوة اودعها الله فى الاسباب ، وقد تساءل عن حكمة الوسائط وعدم الخلق المباشر ، ولم يحر جوابا ، ورد الامر الى الفاعل المختار .

واما التنجيم بمعنى علم الاحكام الذي يراه المنجمون كالسعادة والنحوسة وطول العمر وقصره وسعة العيش وضيقه ، فهو محط الانكار ، وتحقيق القول فيه لا يتسع له هذاه البحث .

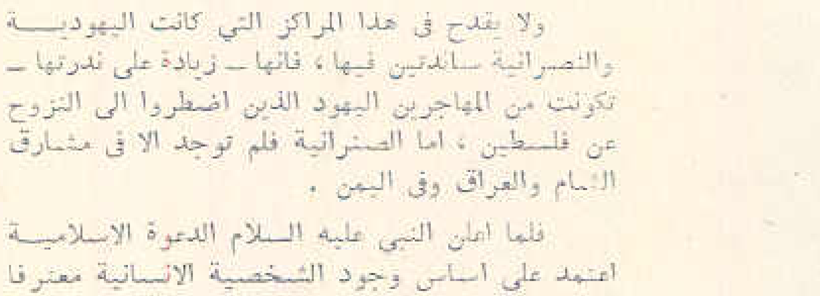


الباب الرئيسي لمدينة (شالة) الاثرية ، وقد بنيت هذه الباب وكذلك أسوار المدينة فى عهد السلطان أبي سعيد المريني سنة 739 ه .

اما المدينة نفسها ـ وهي توجد خارج أسوار مدينة الرباط ـ فيرجع عهدها الى العصر الفينيقي ، حيث كانت من اهم المراكز التجارية ، واحتلها القرطاجنيون ثم الرومان ، واتسعت عمارتها بعد الفتح الاسلامي .

وفى عهد (المرينيين) تجددت معالمها واصبحت مدفنا للملوك . ويوجد بها قبر الملك يعقوب بن عبد الحق المريني . وابنه يوسف ، وابي سعيد ، وابي الحسن المريني ، وزوجته شمس الضحى ام ابي عنان المريني .

عن كتاب (المغرب) للاستاذ الصديق بن العربي .



استقلال الشخصية الإنسانية في الإسلام

للأستاذ :
عبد العزيز بن إدريس



اول تحويل في اسس الدين قام به الاسلام ودعا له ، هو الاحتفاظ بشخصية الانسان ازاء الدين بل وتقويتها وتنميتها .

ذلك ان الطابع الذي كانت تنطبع به الديانات قبل الاسلام هو طابع التسليم واهمال الفكر وانعدام الشخصية والاستبعاد العقلي ، فلم يكن الرؤساء الدينيون يسمحون لاتباعهم ان يسالوا عن الاسباب والعلل ولا ان يحركوا افكارهم وعقولهم فيما يملونه عليهم، بل كانوا يفرضون عليهم قبول كل ما يلقى عليهم، واعتقاد انه الحق والصواب مهما كان بعيدا عن المعقول او مخالفا لابسط قواعد المنطق ، ويعدون الخروج عن هذا المنهاج هرطقة والحادا .

وهذا الطابع من اكبر الاسباب التي جعلت القبائل العربية بعيدة عن التاثر بالديانات الثلاث التي جاورتها قرونا عديدة ، فلم تنفعل لها النفسية العربية لانها مطبوعة على الصراحة والوضوح وحدة الذكاء ؛ التي تتنافى مع السكوت والتسليم واهمال العقل ، تلك الصفات التي اكتسبها العربي من سمائه الصافية وحياته البدائية البعيدة عن كل تزويق وزخرفة .

ولا يقدح في هذا المراكز التي كانت اليهودية والنصرانية سائدتين فيها ، فانها ـ زيادة على ندرتها ـ تكونت من المهاجرين اليهود الذين اضطروا الى النزوح عن فلسطين ، اما النصرانية فلم توجد الا في مشارق الشام والعراق وفي اليمن .

فلما اعلن النبي عليه السلام الدعوة الاسلامية اعتمد على اساس وجود الشخصية الانسانية معترفا باهميتها ، فوجه الخطاب الى العقل ، واحيى الضمير ، وجعل لكل فرد كيانه الخاص، وحمل كل فرد مسؤولية نفسه امام الاله ، واسقط الوسائط بين الانسان وربه مهما كانت قيمتها ، وقضى على الدكتاتورية الدينية ، ومنح الانسان الرشد الفكري والاستقلال العقلي .

وبالجملة فان اعلان الدعوة الاسلامية يعتبر ـ بحق ـ حجرا اساسيا في طريق القضاء على العبودية الفكرية واخضاع الانسان للانسان ، ونقطة الانطلاق في ميدان التحرر الفكري ، وليس هذا امرا كماليا في الاسلام ، بل هو امر حيوي وشيء اساسي ، ومن الامور الضرورية التي لا يمكن للمسلم ان يكون اسلامه مقبولا من ناحية العقيدة الا بالاعتراف بها ، بل هو اول لوازم المدلول الاولى لكلمة الشهادة التي تنزع الصبغة الالاهية عن جميع المخلوقات ، ويرجع الى مبدا الغاء افضلية شخص على آخر وتفوقه عليه بغير الوسائل العادية والاسباب الطبيعية .

والمتتبع لنصوص الاسلام وتشريعاته يصل الى درجة اليقين بان هذا الطابع سار فيها سريان الدم في الجسد والماء في الاغصان .

ومن الممكن استنباط ذلك من الامور الآتية :

1) قوله تعالى في سورة سبا آية (46) يخاطب المعاندين ويدعوهم الى التامل والتفكير : **(قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله ، مثنى وفرادى ثم تتفكرون ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)**

فانت ترى ان هذه الآية لم تطلب منهم استعمال عقولهم فقط ، بل اشارت بتكوين ظرف للتفكير ادعى الى الاستقلال واثبات الشخصية ، ذلك بالابتعاد عن الظروف التي تضعف فيها الشخصية ، والانفراد حالة التفكير ليتمكن منه باستقلال عن جميع المؤثرات .

2) قوله تعالى فى سورة القيامة آية 14 ، 15
(بل الانسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره)
وهاتان الايتان اعطتا للانسان — كشخص مسؤول عن تصرفاته — قيمة واقعية كبرى ، فقد جلعته رقيبا على نفسه يتحمل تبعات عمله وحده ، ولا ينفعه اقناع غيره بحسن سلوكه متى كان ذلك مخالفا للواقع ولو استطاع ستر نفسه بضباب المعاذير .

3) وابرز شيء فى هذا الموضوع هو اكثار القرآن الكريم من استعمال الكلمات الدالة على حركة الفكر مثل العقل ، واللب ، والتفكير ، والتدبير ، والعلم ، والفقه ، والنظر ، والاعتبار ، والتذكر ، ومدح الذين يفكرون ويتدبرون ويعقلون . وذلك لا يوجد فى كتاب سماوي غيره .

4) احتفاظ المراة بشخصيتها ازاء زوجها ، واعطائها الحرية التامة فى التصرف المباشر فى شئونها المالية من دون ان توجب عليها الرجوع اليه واخذ رايه ، وذلك تركيز لاستقلالها الشخصي واعطائها مكانتها بصفتها كائنا بشريا له نفس الوضعية والقيمة التي للرجل .

كل ذلك وغيره يدل على ان الاسلام يريد من الانسان ان يكون مستقلا فى تفكيره لا تذوب شخصيته فى غيره ولا يضمحل وجوده مهما كانت الظروف التي تحيط به والقوى التي يتفاعل معها .

كان لهذه الخطة اثرها الملموس العاجل فى عقلية المسلمين فلم يجد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه غضاضة فى ان يخاطب الحجر الاسود بقوله — والله اني لاعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا انني رايت النبي صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

ولم تجد المراة مانعا من ان تقف فى وسط المسجد وتعلن معارضة عمر فى تحديده للمهر ، وراى ذلك عمر امرا عاديا فقال اصابت امراة واخطا عمر . ووجدت جميع ضروب التفكير المهد الوثير والملجأ الامين فى الوسط الاسلامي ، وترعرعت الفلسفة على اختلاف ضروبها فى المجتمعات الاسلامية وكل ذلك فى اطار الاسلام بل وبمباركته واشرافه .

ونبغ فى العالم الاسلامي فلاسفة كبار ، ومفكرون عظام ، جالوا فى جميع ميادين التفكير من غير ان يروا فى معتقدهم الديني ما يحجر عليهم تفكيرهم ويضيق نطاق عقولهم ، ومن دون ان يروا فى مذهبهم الفلسفي ما يخرجهم عن نطاق الاسلام وتعاليمه .

وهكذا خرج الاسلام بالانسانية من طور الخمول والظلام والركود الى طور كله حركة وبناء ونور واشراق ، وحاز المسلمون شرف الاحتفاظ بالحضارة القديمة ونقلها بامانة الى الاجيال التي بعدهم ، بل لم يكن دورهم مقتصرا على النقل ، فقد استطاعوا ان يكتشفوا مجاهل فى نطاق المعرفة كانت هي الاساس الذي مهد لهذه الحضارة طريق الظهور والكمال .

وبرزوا فى ميدان الدراسات الروحية واتوا فيها بالعجب العجاب واستطاعوا ان يغوصوا فى اعماق بحار لم يستطع غيرهم حتى الوقوف بسواحلها .

وتمكن المسلمون بتطبيق هذا المبدأ القرآني من الاستمرار فى قيادة الفكر وزعامة العالم فى الحضارة والتمدن اكثر من الف سنة .

وهكذا اخذ الاسلام فى طور تفاوته الطابع الحقيقي الذي بينه الله فى كتابه العزيز سواء فى صريح آياته ، او فى مستلزم قضاياه .

وقد اخذ هذا الاتجاه يتحول شيئا فشيئا وبصفة تدريجية ، حتى اصبح لشخصية المسلم ازاء غيره وضعية اخرى ، واصبح لمفهوم كلمة الدين معنى آخر غير هذا المعنى الذي كان لها يوم ارسل الاسلام اشعته الدافئة على المعمور .

اصبح الطابع العادي للدين هو تطبيق مجال العقل وتحجيره ومنعه من اية حركة تحريرية ، وحجزه عن الولوج فى كل الميادين الذي ولجها المسلمون يوم كان الاسلام فى نضارته واشراقه . وقد استمر هذا الاتجاه يعمل عمله حتى اصبحت المثالية فى الاسلام هي الانقطاع عن الحياة والبعد عنها ، فاحرى البحث فيها ومحاولة استكناه حقائقها .

اصبحت المثالية فى الاسلام هي ان فلانا يقاطع اكل البطيخ ، لانه لم يعرف الكيفية التي كان ياكله عليها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وان فلانا اشترى السراويل ولم يلبسه اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم لانه فعل ذلك .

واعتبار ذلك مثالية في الاهتداء ونفاذا الى صلب الدين

واخذ المؤمن المثالي صفة سلب الارادة والقضاء على الشخصية وتوقيف العقل على العمل واعتبار القيام باية حركة فكرية حائلا دون التقدم في ميادين المعرفة والتقوى ، لان فيه اغضابا للاستاذ وحطا من قيمة الشيخ ، وتعرضا لسخط الله ونقمته ، وبذلك صارت وضعية الشيخ او الاستاذ تتقارب الى حد بعيد مع وضعية الراهب او الكاهن وغيرهما من زعماء الاستعباد الروحي .

وهناك كلمة جرت على السن العامة كان لها الاثر الكبير في نفوس عامة المسلمين وهي قولهم (سلم للخاوي تنج من العامر) تكررت على الافواه وكانها ءاية قرءانية محكمة او حديث متواتر وكانت تقضي على كل محاولة لتحريك الفكر وتسكت كل نامة للتحرر .

الى غير ذلك من مظاهر الاسفاف وضروب العبث والاسباب التي ادت في نظري الى هذه الوضعية امور :

1) اعتقاد المسلمين ان القرءان الكريم قد ادى مهمته وانتهى منها وانها قد تبلورت في كتب الفقه والتصوف ، فلم تعد هناك فائدة في تدبره ولا في تلاوته الا على سبيل التبرك .

2) وانتهى هذا الاتجاه الى تحريم تفسيره وفهمه ، واعتبار انه ربما ادى الى الخروج عن دائرة الاسلام !! ولم يتردد شياطين هذه الدعاية من استغلال السياسة لتركيزها في اذهان الناس فاعلنوا ان تفسير القرآن الكريم فيه اساءة كبرى للسلطان لانه يؤدي الى موته ، وقالوا نفس القول في صلاة الاستسقاء ، ولم يقض على هذه الدعاية المسمومة الا جلالة الملك محمد الخامس ، فاصدر امره بدراسة التفسير في القرويين كما اصدر امره باقامة صلاة الاستسقاء عند الحاجة اليها .

3) اقبال جمهور المثقفين على كتب الفت في عصور الظلام والتحجر الفكري مطبوعة بطابع الجمود ومشحونة بالتحذير من كل حركة عقلية ايا كان نوعها ، نازعة من المسلم كيانه الشخصي ، محبذة له الذوبان في غيره .

4) ما فعلته العناصر الهدامة التي تسربت الى اوساط المسلمين ، فقد عملت على القضاء على روح الاسلام ، وبث تعاليم اخرى باسمه لا صلة بينه وبينها وانما هي رواسب متحدرة من اديان وثنية سابقة .

كل هذه العوامل فعلت فعلها في اوساط المسلمين وصار الدين الاسلامي من الوجهة الفكرية شديد الشبه بالاديان التي سبقته ، وتحقق بذلك ما تنبا به الرسول عليه الصلاة والسلام يوم قال: « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع »

وهكذا ران على المجتمع الاسلامي الركود المفجع والنوم العميق ، بعد ان كان يعج بالحركة والنشاط ، واصبح المسلمون اشبه شيء بالموتى ، واوساطهم اشبه شيء بالمقابر .

وبذلك انحرف جمهور المسلمين عن الطريق الذي سنه لهم قرآنهم الكريم المبنى على التحرر ، وتمجيد العقل ، الى طريق كله تنكر للعقل وهضم للشخصية ومحو للاستقلال الذاتي .

وقد كان لهذه الوضعية نتائجها الحتمية وعواقبها الوخيمة في المستوى الفكري والثقافي للمسلمين ، فانكمشوا على انفسهم ورضوا بواقعهم ، وتحجرت عقولهم واغلقوا على انفسهم جميع منافذ الحياة ومنابع النور ، بعد ان كانوا قد خطوا الخطوط الكبرى لبناة الحضارة الحديثة .

وبما ان من سنن الله التي بثها في خلقه ان ينال كل جزاء عمله ، وان يقع تحت حكم ما قدمت يداه ، فقد تاخر المسلمون عن ركب الحضارة وتنازلوا عن زعامة العالم ، وانتزع منهم غيرهم رايتها وهذه الحالة من اكبر الاسباب التي جعلت كثيرا من المستشرقين ينظرون الى الاسلام بمنظار وضيع ويحملونه مسئولية تقهقر المسلمين رغم ما يجدونه في اصوله من نصاعة ونقاوة وحيوية وقوة ، وصاروا يحاولون اقناع المسلمين بالتخلي عن الاسلام كما تخلوا هم عن المسيحية اذا ارادوا اللحاق بهم والوصول الى حيث وصلوا .

وهكذا يسيء الجامدون الى الاسلام من حيث ارادوا الاحسان اليه .

والخلاصة ان الاسلام دين العقل والقوة والصراحة والاعتراف بالشخصية الانسانية وتكوينها تكوينا صحيحا ، وكل ما لاكته السن الجامدين من المتاخرين ، انما هو خروج عن الجادة الكبرى التي خطها الاسلام وانحراف عنها باسم الدين الى اشياء ما انزل الله بها من سلطان . فعلى قادة الفكر في الاسلام ان ينظروا من جديد في ينابيع الاسلام الاولى الصافية ، وان يزيلوا عنها الطفيليات التي اختلطت بها وكادت تخفيها الى غير رجعة ، لولا ان الله تكفل بحفظ شريعته من الاندثار يوم قال « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »

وحدة المغرب العربي

مظاهرها السلالية واللغوية والفكرية

للاستاذ :
عبد العزيز بن عبد الله



باذن خاص من الكاتب الاستاذ السيد عبد العزيز بن عبد الله ، ننقل هذا المقال القيم عن العدد الاول من مجلة (تطوان السنوية) .

وقد استاذنا في ذلك ايضا سكرتير تحرير المجلة الاستاذ السيد محمد بن تاويت ، فرحب به وحبذه ، ونحن نرجو بذلك ان نتعاون على خدمة الثقافة المغربية العربية ، وان نجلوها ونعرف بها ونرسي اركانها . كما نقصد بذلك ايضا تعميم الفائدة واتاحة الفرصة ، للاطلاع ، على أوسع نطاق ممكن .

« دعوة الحق »

المغرب في عرف المؤرخين العرب ، هو مجموع الاقطار الافريقية الممتدة غربي مصر بما فيها برقة وطرابلس ، ولم يكن هذا التعريف بدعا من القول ، لانه يستند الى حقائق انسانية لها مظاهر سلالية واقتصادية واجتماعية ناتجة عن الاطار الجغرافي ، كما لها عوامل تاريخية عن وحدة الفكر والتراث .

وسنستعرض في هذا البحث بحول الله المجالي المختلفة لهذه الوحدة التي تجعل من المغرب العربي قطعة متراصة من القارة الافريقية .

« ان جزيرة المغرب » محاطة بالبحر في اهم جهاتها (شمالا وغربا وشرقا) وتعتبر الصحراء امتدادا طبيعيا لها في الفيافي الافريقية للمقومات الجوهرية التي يرتكز عليها المجموع .

نعم ان هذه الصحراء التي هي أعظم صحراء في العالم ، كانت في الماضي اكثر عمرانا منها اليوم ، كما كانت مسرحا لتطورات عميقة تجعلها من صميم المغرب العربي .

ومع ذلك فان الاقليم الذي تسلسلت فيه الحضارة بكيفية اعمق وابهى ، هو ذلك الجزء الذي يمتد على ضفاف البحر الابيض المتوسط ، الذي كان يسمى بحر العرب ، والمحيط الاطلنطيكي او بحر الظلمات في شريط هائل طوله ثلاثة آلاف ك . م . وعرضه مائة وخمسون ك . م . ولكن مجموع سكان هذا الجزء من العالم يحملون نفس الاسم ، وهو امازيغ ، من طرابلس الى قابس الى الصويرة (سوردون – مؤسسات واعراف البربر بالمغرب ص 27) .

وقد اندهش المؤرخون الغربيون للسرعة الخارقة التي كان المغرب يسترجع بها وحدته السياسية في ظرف سنوات معدودة ، بحيث تمتد المملكة بمجرد

انبثاقها في مركز من المراكز الى اقصى التخوم ، مثال ذلك ان بعض امراء نوميديا (الجزائر الحالية) مثل سيفاكس ملكوا من قرطاجنة الى راشكون (تلمسان) كما امتد نفوذ الفاطميين من القرويين الى فاس ، وابن تاشفين من الصحراء الى قلب الجزائر ، وعبد المؤمن الى طرابلس .

الا ان معظم المؤرخين الغربيين يتحاشون النتائج المحتومة لهذه الظاهرة ، زاعمين ان من خواص المغرب، وكذلك الشرق، انعدام نقطة مركزية اصلية تلتف حولها الامة على نسق ما جرى مثلا في أوربا ، حيث انبثقت نواة مركزية كدولة بروسيا وجزيرة فرنسا وقشتالة وانجلترا القديمة ، ثم ترعرعت تدريجيا الى ان تكونت منها الدول الالمانية والفرنسية والاسبانية والانجليزية، ولعلنا في غير حاجة الى التدليل على ان عناصر الوحدة التي تتوفر جوهريا في المغرب العربي ، وتكاد تنعدم لحمتها بين الشعوب الاوربية ، هي القوام الحقيقي لتلك الظاهرة التي لم تتحقق قط لفاتح اجنبي غير العرب .

ويقول أولئك المؤرخون ايضا ، بان الفكر الشرقي ومنه الفكر البربري يتصور أن تاريخ الشعوب يتسلسل خارج الاطار الجغرافي ، بمعنى ان الوطنية العربية او البربرية لا ترتكز في نظره على التراب ، ولا تستلزم وجود وطن له حدوده وذاتيته الخاصة ، وان الجهاز القبلي الذي هو نواة الدولة يفهمه العرب والبربر مجردا عن قوامه الاقليمي لانه جهاز جنسي قبل كل شيء ، وقد شعر (سوردون) في كتابه « مؤسسات واعراف البربر في المغرب » (ص 438) بما في ذلك من التناقض، فصار يتلعثم في الدفاع عن هذه الفكرة التي روجها اول الامر بعض المستشرقين، والتي تريد ان توفق بين تعلق البربر بوطنه وعدم وجود روابط قانونية بينه وبين هذا الوطن. ولعل هذا الوهم المستتب في اذهان الغربيين راجع الى عدة عوامل ، منها ان الاسلام في عهده الاول لم يول كبير اعتبار للوطنية الضيقة لانه كان يهدف الى نشر فكرة لا تحدها تخوم مصطنعة ، ومنها كذلك ان جوهر القبيلة سلالي ككل قبائل العالم ، ولكن الشيء الذي اغفله هؤلاء المؤرخون هو ان في المغرب قبائل اندمج جانب منها سياسيا ضمن قبائل اخرى ، واعطت بذلك الاسبقية للاطار الجغرافي ، وقد يكون الوازع في هذه الحال ، اما امكانيات اقتصادية اوفر ، واما عواطف خاصة من نوع الحنين الى مسقط الراس ومرتع الصبا، وعلى كل فان نظرية الغربيين في هذا الموضوع تنطوي على شيء غير قليل من الافتعال .

واذا كان هنالك قبائل تنتقل من الجبل الى السهل حسب الفصول انتجاعا للماء والكلا ، فانها تبتعد غالبا عن مركزها الاصلي الذي تقوم فيه مستودعات وبنايات قارة باقل من مائة كيلومتر ، وقد تحدث ابن خلدون عن بعض هذه القبائل فعلل ايضا انتقالها عن مساقط رؤوسها بضيق العيش في اطارها الجغرافي الاصلي لاسيما وانها تسكن الخيام المنقولة .

على انه يمكن ان نرى في هذه الهجرة نفسها دليلا جديدا على ان العقلية البربرية لا تفرق بين أجزاء هذا الوطن الاكبر الذي هو مجموع المغرب وانه متى اعوزت قبيلة من القبائل وسيلة العيش في ناحية انتقلت الى اخرى ضمن الاطار الجغرافي العام بل هنالك قبائل لم تضطرها عوامل من هذا القبيل الى الانتقال الى اجزاء اخرى وكيف لا وهي تشعر هنا وهناك بنفس المناخ ونفس الطبيعة ونفس الذهنية والعواطف .

على ان البحث عن الحيز الحيوي ولو بالانفصال عن المقر الاصلي غير مستعد حتى في اوربا التي هاجر رجالها الى امريكا حيث كونوا لانفسهم موطنا جديدا ، وفي ذلك ما يحدو الاوربيين حسب م . كوتيي الى تغيير نظرهم في ضرورة القوام الترابي للوطن (العصور الغامضة للمغرب ص 93)

ومع ذلك فان هذه الظاهرة او تلك لم تكن حادية لنفي الاطار الجغرافي كبوتقة لانصهار مقومات الوطن.

لا سيما وان بعض فلاسفة الاجتماع مثل رونان لا يتطلبون في تكوين الامر سوى وحدة التاريخ والعواطف

※

فلنستعرض الآن من خلال قبائل زناتة ــ مثلا ــ الدور الذي قامت به العوامل السلالية في تكوين المغرب العربي .

فقد قرر ابن خلدون ــ واقره على ذلك مؤرخون غربيون امثال كوتيي وكزيل ــ ان زناتة الذين خصص لهم سفرا خاصا في تاريخه منتشرون في المغرب من غدامس الى سوس الاقصى بل يكونون معظم سكان مداشر الصحراء وانت تجدهم اليوم في كورارة يتكلمون اللهجة الزناتية وكذلك في مزاب وورغلة وقد لاحظ ابن خلدون وجود زناتة كذلك في ناحية طرابلس ووسط سهول افريقية وجبال الاوراس بالجزائر ، وما زال الى

الآن في جبل نفوسة الطرابلسية « برابرة لهم صلة تاريخية وثيقة بمملكة تاهرت الزناتية » ويشعرون الى الآن بقرابتهم مع المزابيين (كوتيي ص 195) ويؤكد ابن خلدون أيضا ان معظم الزناتيين يقطنون « المغرب الاوسط (أي الجزائر) ومنصب الوادي الزناتي الى اليوم شمالي الاوراس في حدود سهول قسنطينة والتل وقد تغلغلت اللغة العربية في المواطن الزناتية واعترف بذلك بعض المستعربين المعاصرين .

ومن زناتة كذلك بنو يفرن الذين اسسوا ممالك في اغمات وشالة وتادلة حيث ظلوا قابضين على زمام الحكم الى عهد المرابطين في حين اقام بنو عمهم المغراويين ممالك في فاس وسجلماسة وتلمسان وحتى في طرابلس

واذا تتبعنا مواطن زناتة وجدناهم استوطنوا في المغرب الاقصى حيث تسربوا من وجدة وفاس وممر تازة الى سهول المحيط الاطلسي المتسمة كلها بالطابع العربي .

وهكذا نرى ان زناتة التي انتشرت في مجموع افريقيا الشمالية تمثل احدى الدعائم السلالية لوحدة المغرب .

*

ولا يخفى ان البربراما برانس او بتر ونصف هؤلاء البتر من نفوسة ولواتة اي من أصل طرابلسي ولواتة بالخصوص قبيلة اصلها من برقة يقال انها من ارومة قبطية « وقد لعبت دورا هاما في بداية تاريخ المغرب العربي » كما يقول كوتيي وقد غمر اللواتيون الواردون الشرق سفوح جبال الاوراس وكانوا عضوا قويا للدولة الحفصية في تونس ومن فروع البتر المطغريون الذين استوطنوا ممر تازة واحواز تلمسان ، وفي عصر ابن خلدون كان غالب سكان سجلماسة عاصمة تافيلالت مطغريين وانبث المطغريون كذلك في واحات النخيل بين توات وفجيج ، وقد اكد كوتيي أن فجيج هذه كانت في القرن الرابع عشر الميلادي هي البقعة الوحيدة التي احتفظت فيها عائلة مطغرية بالسلطة السياسية (306)

وينتسب المطغريون لبني فاتن الذين توجد لهم فروع اخرى في افريقية وباقي نواحي المغرب لا سيما اقاليم المغرب الاوسط المحاذية للصحراء وهم الذين اسسوا مملكة تاهرت وانتقلوا بعد سقوط هذه المملكة الى جنوب القطر التونسي حيث اسسوا جزيرة جربة ، ومن بين هذه الفروع قبائل مغيلة التي تقطن المغرب الاوسط من مصب شليف الى مدينة مزونة والمغرب الاقصى وبين فاس وصفرو ومكناس وكذلك مديونة في مقطعة تلمسان منها مع عبد المومن الكومي الى المغرب وفي هذه القبيلة فخذة تسمى ندرومة وقد اكد اللغوي الخبير ويليام مارسي ان لهجة ندرومة عربية قديمة ربما دخلت في العهد الموحدي .

وتقطن في نفس المقاطعات مكناسة التي اسست كرسيف ورباط تازة واقامت مملكتين احداهما في التسول (ناحية تازة) والاخرى في سجلماسة ودائرتها ويتجلى من هذا العرض أن البتر او زناتة استوطنوا السهول المتسلسلة بين النجاد والوهاد من طرابلس الى تازة واصلين بحبل وثيق اقطار المغرب العربي وصحراءه .

ذلك هو بعض الدور الذي قام به البتر ، فماذا كان دور اخوانهم البرانس

ان قبائل البرانس التي اتسمت باهمية كبرى في توجيه تاريخ المغرب العربي هي كتامة وصنهاجة ومصمودة .

فموقع كتامة الجغرافي هو الاطار الذي تركزت فيه الدولة الفاطمية والذي كان تابعا لبني أغلب امراء افريقية، وقد اختار الفاطميون مهدية عاصمة لهم، وبعد انهزام ابي يزيد « بو حمارة » ، الذي كان يضعضع اركان الدولة الفاطمية الفتية رجع المنصور الفاطمي الى القيروان حيث اسس المنصورية في ارباضها ثم كان فتح مصر ولعبت كتامة في كل ذلك دورا أساسيا حيث كانت السند الاقوى للفاطميين ، ومنذ ذلك العهد صار الحكم في المغرب العربي الى البربر المسلمين طوال عدة قرون .

والمقاطعة « القبائلية » في الجزائر هي الموقع الاصلي لقبيلة كتامة التي ما زال سكان شرقيها يتكلمون لهجة عربية ، ومعلوم ان اللغة العربية دخلت مبكرا الى تونس وسهول عنابة حيث خلفت مباشرة اللغة البونيقية التي يجمعهما مصدر واحد في حين انها لم تدخل الجزائر — في نظر ابن خلدون — الا في القرنين الثامن والتاسع ، وربما كان لكتامة اثر في تعريب الناحيتين الوسطى والغربية للمغرب الاوسط ، وهذا الدور قامت به كتامة في تاريخ المغرب العربي بل وفي تاريخ الشرق الاسلامي لم يمتد من نصف قرن ولكنه كان بليغا تغلغل في الاعماق حيث ادى الى تاسيس الخلافة الفاطمية وانتقال الكتاميين انفسهم الى الكنانة .

اما صنهاجة فانها قبيلة ترعرعت وامتدت فروعها في أقاليم شاسعة من المغرب العربي وهي تقطن ناحية « القبائل » من الجزائر والصحراء الغربية (حيث يسمون الزناجة ومنها الزنوج في بلاد السنغال) وشرقي الاطلس بين ممر تازة والصحراء وهم الذين ساندوا دولة المرابطين ولا تذكر صنهاجة الا مقرونة بكتامة وينتسب كلاهما الى حمير — على ما يقال — واذا كان اسم صنهاجة قد اندثر في « قبائل » الجزائر فان البربرية قد اندثرت كذلك وخلفتها اللغة العربية الا عند جماعة ضئيلة تسكن بين بليدة والمدية (كوتيي ص 335) .

وصنهاجة الجزائريون الذين استقروا بين المغرب الاوسط وافريقية ليسوا من القبائل الرحالة مثل بني عمهم المرابطين وقد خلف الفاطميين في المغرب امير صنهاجي هو بلقين بن زيري بن مناد الذي اسس مدينة اشير عام 324 هـ . ثم بعدها جزائر بني مزغنة ومليانة والمدية وقد اسس حماد بن بلقين (عام 398 هـ .) القلعة المعروفة بقلعة بني حماد وهي العاصمة الثانية لبني زيري الذين انتقل منهم الناصر بعد ذلك بثلاثة أرباع قرن الى بجاية وهي العاصمة الثالثة والاخيرة لصنهاجة وقد اكد كوتيي ان المملكة الصنهاجية خضعت لتاثيرات الشرق حيث ابرز بيليي في حفرياته الطابع الشرقي الذي تتسم به الهندسة المعمارية (الطابع العراقي في اروقة قلعة بني حماد) (والطابع الفارسي في زخرفة الاواني) .

اما المصامدة فهم سكان الاطلس الكبير الذين ساندوا دولة الموحدين ومنهم ايضا غمارة سكان الريف

وقد اتضح الآن ان مجموع الجبال المغربية و « القبائل الجزائرية كلها من البرانس الذين تعد منهم كذلك قبيلة اوربة وهي قبيلة كسيلة الشهير التي كانت تسكن غربي الاوراس حسب « مسكاري » ويقطن عقبها اليوم في سهول وادي العبدي ووادي العرب ويظهر من كلام ابن خلدون انهم كانوا منتشرين في التل الوهراني وناحية تلمسان وحتى ممر تازة ، وقد انتقلوا بعد مقتل عقبة بن نافع وانهزام كسيلة الى المغرب الاقصى حيث نزلوا مدينة وليلي المعروفة ايضا بقصر فرعون وهذا مظهر لوحدة الجزائر والمغرب الاقصى الجغرافية والتاريخية حيث ان شكلية الاراضي نفسها اقرت رابطة طبيعية بين اقليمي الاوراس والملوية الذين كان امراء نوميديا (اي الجزائر) مثل سيفاكس وماسينيسة وجوكورطا متارجحين بينهما .

ولكن ابن الصحراء من كل هذا ؟ الى اية شعبة ينتسب البربر الذين يتغلغلون في اعماق الصحراء المتاخمة للسودان انهم بربر اشهرهم التوارك او الطوارق الذين يعتبرهم ابن خلدون من لمطة ولمتونة، الا ان علماء النسب يرون في هؤلاء فريقين اثنين احدهما اللمطيون واللمتونيون الذين اسسوا الدولة وهناك فريق آخر وهم ملثمو الشرق المعروفون بالهكار وهم هوارة الذين جاءوا من برقة وطرابلس ولعبوا دورا هاما في تونس والاوراس الجزائرية فهم اذن بتر من بني عمومة البرانس .

وقد يلاحظ انني لم اميز في بحثي هذا بين العرب والبربر وقد فعلت ذلك عن قصد لان هذا الميز يكاد يكون غير موجود سواء اعتبرنا الارومة العربية للبربر تبعا لراي كثير من علماء النسب او اعتبرنا الوحدة الطارئة اثر التوالد والامتزاج بين الجنسين او مظاهر الوحدة الاجتماعية والفكرية او غير ذلك فقد اكد مؤلف « عصور المغرب الغامضة (ص 221 — 225) » ان نتائج الفتح العربي بعد مرور اثنى عشر قرنا تبعث على الدهشة لان المغرب استعرب على نطاق واسع كما تغلغل الاسلام في احشائه وشمل مجموع اجزائه « وقلما احرزت الفتوحات في تاريخ المعمور مثل هذا النجاح . . . لقد شعر ابن خلدون ان امامه بالمغرب وحدة سلالية كبرى » ثم قال كوتيي (ص 254) « اننا نلاحظ خلال مجموع تاريخ المغرب تجاذبا بين الرحل البربر والعرب ذلك ان تشابه مناهج الحياة والعواطف الجوهرية اقوى من اختلاف اللغات » وقد اشرنا الى ما قاله رونان وهو ان من دعائم الوطن الوحدة الروحية واهمها وحدة الدين والعواطف فالمغرب الذي احتك نحو الف من السنين بالحضارة القرطاجنية والبونيقية الشرقية (1) قد احتفظ في قرارة نفسه باحساسات واستعدادات فطرية نصف لا شعورية تتفتح للاسلام « (256) لهذا » فقد اندرج في بحبوحة الاسلام بالمغرب كل من له فكر مثقف وكل من يحس بالحاجة الملحة الى

(1) امتد اشعاع اللغة البونيقية التي كانت تشتمل على نسبة مهمة من العربية من قرطاجنة الى قابس ومن طنجة الى بجاية ثم الى بلاد الجريد والاوراس (تاريخ المغرب — كوساك ص 31) مثال ذلك ما لوحظ في البونيقية من ان لفظ « ملك » لها نفس المعنى في اللغتين (سوردون — الكتاب المذكور ص 38)

لغة مكتوبة والى ادب » (256) والظاهرة الجديدة التي تتحدى تاريخ اوربا كلها هي ان العربي الفاتح » عبر في طفرة واحدة مساحات المغرب الشاسعة ناهجا المسلك الطبيعي الدائم بين الهضاب وممر تازة ... وعبر مضيق جبل طارق متجها لفتح الاندلس ساحبا معه القبائل البربرية لهذا الفتح « ص (257) واغرب من هذا الاندلس الذي هو من طينة سلالية غير طينة العرب ولا البربر علق هو ايضا بالعروبة ومظاهرها » واهمل حتى الادب اللاتني — حسب المؤرخ دوزي — اعمق الاهمال واحتقره ابلغ الاحتقار بينما احس بالادب العربي يلهب سويداءه وشعر بمتعة لا نهائية خالصة » « كان الاندلسي مستعد للتنازل عن الادب اللاتني كله في مقابل تنف من الشعر العربي وهذا معيار لنفوذ العرب وسلاح قوي لكسب القلوب » (256) وما ثورة الخوارج التي امتدت من طرابلس الى تونس الى الجزائر الى طنجة وسهول سبو ثم من قابس الى فجيج الى سجلماسة سوى طفرة نحو دعم وحدة المغرب بايعاز دعاة العرب وتحت شعار الاسلام ولم يكن في هذا اي مظهر مقصود لما زعمه المستشرقون من وجود روح انفصالية بين العرب والبربر او روح الثأر من البربر ضد العرب اذ لو كان ذلك حقيقيا لما اصطبغت الثورة بتلك الروح ولا بذلك الشعار غير ان هذه الثورة ما لبثت ككل الثورات في العالم ان تمخضت عن تيارات عنيفة حادت عن مجراها الاصلي فاشيع باسمها الدمار في افريقية ولكنها ادت مع ذلك الى نتيجتها المحتومة وهي كما يقول كوتي (ص 273) « تركيز السيطرة العربية » في مجموع المغرب من افريقية الى تاهرت الى تلمسان الى مراكش ولعل من اهم رواسب طفرة الخوارج قيام مملكة المولى ادريس الذي احترمه حتى الاغالبة التونسيون — على قول النويري — لقرابته من الرسول واذا كان من عادة امراء البربر الاستناد الى قبيلة مثل كسيلة مع اروبة والكاهنة مع جراوة والفاطميين مع كتامة والمرابطين مع صنهاجة والموحدين مع مصمودة وكومية فان المولى ادريس قد احتضنته مجموعة من القبائل لا واحدة ذكر منها ابن خلدون زواغة وزناتة وسدراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة وجميع القبائل الاخرى التي كانت تستوطن المغرب مثل اوربة ومطغرة (التي ساندت ميسرة من قبل) ومغيلة الجزائرية . هذا علاوة على بني يفرن ومغراوة اي مجموع الكتلة الزناتية من فاس الى الشليف الجزائري ولم يكن مع المولى ادريس سوى بضع مآت من العرب اخترق بهم تامسنة الى تادلة الى الاطلس الكبير بينما اتجه الاغالبة الى نشر الاسلام وحضارته في صقلية وهذه هي المرة الاولى التي تطأ فيها اقدام فاتح اجنبي تراب هذه الناحية من جنوب المغرب « لان الامبراطورية الرومانية لم تستطع قط المساس بهذه الكتلة البربرية الضخمة في المغرب الجنوبي » (ص289)

ويحق للمؤرخ كوتيي القول بان تاريخ المغرب الاقصى يبتدىء من هذه الفترة التي انفتح بعدها المجال واسعا للمرابطين والموحدين نحو الشمال والشرق .

« وقد عاد المغرب الاقصى في عهد المرابطين — كما يقول الاستاذ « طيراس » في تاريخه (ج 1 ص 257) كما كان مغربا مزدهرا تحتف به الطمأنينة والسلام غنيا بموارده الطبيعية ورجاله الشجعان » كما ازدهرت في عهدهم وبفضلهم في الاندلس حضارة الاسلام (ج 1 ص 259) —

وقد امكن لعبد المومن بفضل الفكرة الاسلامية وعزيمته القوية ان يوحد مصامدة الاطلس (ج 1 ص 273) وان يؤسس مملكة مترامية الاطراف تمتد من قشتالة بالاندلس الى الجزائر (ج 1 ص 238) وعبد المومن هذا هو الذي وحد المغرب الاسلامي للمرة الاولى في التاريخ تحت سلطة سياسية مشتركة امتدت من قشتالة الى طرابلس (ج 1 ص 314) .

وهكذا قامت للمرة الاولى في التاريخ — حسب المؤرخ كزيل — دولة موحدة في مجموع المغرب العربي (سوردون — الكتاب المذكور ص 28) ولكن في هذا العهد (القرن الخامس الهجري) انصبت على المغرب موجة من العرب الهلاليين والسلميين وكانت العربية اذ ذاك هي اللغة الوحيدة المنظمة بالمغرب بالمعنى العادي للفظة لغة اي جهاز كامل الاجزاء بمفرداته ونحوه وكتابته وادبه « بينما ظلت اللهجات البربرية اللغة الشعبية خارج الحواضر (عصور المغرب الغامضة ص 386) غير ان العرب الجدد اشاعوا اللغة العربية في شكلها الدارج حيثما حلوا اي في البادية نفسها وبذلك « تغلغلت العربية في تونس وحواشي الاوراس والهدنة وهضاب اقليم وهران وسهوله وتسربت من ممر تازة الى سهول المحيط الاطلسي اي في مجموع البلاد التي تسودها السلالة الزناتية ومعنى هذا ان العامل اللغوي انضاف الى العامل الجنسي لترصيص الوحدة بين هذه الاقطار من المغرب العربي على ان عرب معقل بلغوا مجموع الصحراء المغربية ولم يزد عددهم اذ ذاك على

المائتين ومع ذلك تمكنوا من تعريب جزء غير يسير من صحراء المغرب ومنها شنجيط على ان افواج بني هلال وبني سليم التي اخترقت الفين من الكيلومترات لقطع المسافة الفاصلة بين صعيد مصر وتونس وكلها صحراء ما كانت لتتعدى مائتي الف نسمة على اكبر تقدير واذا صدقنا الاستاذ كوتيي القائل بأن سكان مغرب القرن الخامس كانوا اوفر منهم اليوم امكننا ان نقدر النسبة الضئيلة التي تمثلها هذه الهجرة العربية التي استطاعت مع ذلك ان تترعرع في شخص الاعراب الذين ساهموا في رفع نسبة التوالد بين الجنسين وامتزاج السلالتين ذلك ان هؤلاء الاعراب ما لبثوا ان عمروا كما يقول كوتيي (405) « مجموع الصحراء الشمالية من سفوح الاطلس الى بحر الظلمات » ثم بعد ذلك سهول ازغار وتامسنا وتادلة ودكالة ومما يدل على تسرب العربية عن طريقهم الى الصحراء ان « بعض التصانيف النحوية التي اندثرت في المغرب توجد الآن في الصحراء » « ص 405) .

وفي الجزائر نفسها شاهد ابن خلدون انتشار هؤلاء الاعراب الذين ما لبثوا ان اندرجوا في سلك قبائل زناتة الاصلية) بل كان لوجودهم بين ظهراني البربر تأثير قوي ادى بالكثير الى تبني اللغة العربية كما وقع في افريقية حيث اعتنقت هوارة ما للهلاليين والسلميين من اعراف واساليب في الحياة واللباس وغير ذلك بل تركت البربرية حتى اصبحت نسيا منسيا واتخذت مكانها لغة الضاد وقد انتشر بنو زغبة وهم من العرب في المغرب الاوسط حيث سكنوا الحواضر والبوادي واندمجوا في زناتة ولاحظ ابن خلدون ان العرب اصبحوا يستوطنون في عصره مجموع نواحي بجاية وقسنطينة التي كانت موطن زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة اللهم الا بعض الجبال المنيعة .

ثم جاءت الهجرة الاندلسية بعد ذلك فانتشرت اللغة العربية والحضارة الاسلامية في مجموع المغرب مع فلول الاندلسيين التي استقرت بالحواضر الكبرى مثل تونس ووهران وتطوان والرباط وفاس وحتى في بعض النواحي الجبلية مثل فازاز بالاطلس الاوسط وقد تغلغلت الروح العربية في نفوس البربر الى حد ان الرحل العرب بدون استثناء ــ كما يقول كوتيي (ص 410) اصبحوا يرفضون باستنكار فكرة الانتساب الى ارومة بربرية فهم يرون في هذا الاحتمال سبابا لهم وضربا من المحال وهم لا يكتفون باتخاذ العربية لغة لهم فحسب بل يؤكدون انهم عرب وانه لا تجري في عروقهم نقطة من الدم ليست بعربية وهكذا نجد العرب اليوم مستقرين في المواطن التي كانت تعمرها زناتة في العصور الوسطى » فهذا الاشعاع الخالد الذي تمخض عنه الفتح الاسلامي واستتباب الروح العربية منذ أزيد من الف سنة يتناقض مع ذلك الانمحاء الكلي الذي منيت به الحضارة الرومانية في المغرب العربي فقد لاحظ كثير من المؤرخين الغربيين ومن بينهم سوردون (كتابه المذكور ص 41) « ان خمسة قرون ونصف قرن من المدنية الرومانية» تبخرت في المغرب في ظرف قرنين اثنين ونصف قرن من فتح قرطاجنة على يد جنسيريك عام 439 م الى ان فتح عقبة بن نافع مدينة طنجة عام 682 م وبعد هذا التاريخ لم يبق فوق تراب المغرب اي تراث روماني غير الانقاض»

هذا في حين ان حضارة البونيك ظلت متأصلة في المغرب العربي حيث امتد نفوذها الى القرن الخامس اي طوال الاحتلال الروماني « محققة بذلك فترة انتقال سهلة الى الفتح العربي » (سوردون ص 31) .

ولكن لماذا نجحت حضارة البونيك حيث اخفقت مدنية الرومان ؟

يظهر ان وجود القرطاجنيين في المغرب يرجع الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد فقد اسست قرطاجنة عام 813 قبل الميلاد ولكن مدينة « اوتيك » التي اسست بالقرب منها هي اقدم وكذلك المدينتان المعروفتان بـ « هيبو » وهما بنزرت وعنابة او مدينة « ليبتيس ماكنة » اي طرابلس وتم هدم قرطاجنة عام 146 قبل المسيح بحيث يمكن القول بان النفوذ الفنيقي بالمغرب استمر عمليا الف عام وكانت قرطاجنة هذه تمثل في غربي البحر الابيض المتوسط الحضارة الشرقية التي هي اقدم حضارة في العالم وقد فضل الفينيقيون الاستيطان في السواحل واقامة مدنهم على طولها حفظا للاحتهم التجارية ومن بين تلك المدن قرطاجنة التي صارت عاصمة المغرب والتي دمرها الرومان في « الحرب البونيقية الثالثة » التي كانت معركة دمار تهدف لمنع الزعيم ماسينيسا من الاستلاء عليها واتخاذها عاصمة لمملكة مغربية وطنية كبرى ــ تلك هي نظرية المؤرخ كزيل الذي اكد من جهة اخرى ان ماسينيسا هذا تمنى ان يكون بالنسبة للحضارة البونيقية ماكانه الاسكندر المقدوني بالنسبة للحضارة الاغريقية » لا سيما وان هذا الامتزاج والتدخل كانا قد قطعا اشواطاقي المغرب لانهما تهيئا منذ قرون (كوتيي ص 102) .

ويرى كزيل ان قرطاجنة لم تبذل قط جهودا منظمة لادماج المغرب ولم تستعمر البادية المغربية مثل روما وقد اسست نحو العشرين مدينة فى الساحل بين طرابلس وتونس وامتزج الدم القرطاجني بالدم البربري فكانت لحمة اولى بين الشرق العربي الممثل فى القرطاجنيين وبين المغرب المشخص فى البرابرة وكانت لغة البونيك (التي تقرب من ارامية اهل الشام) اللغة الرسمية عند امراء نوميديا القوميين ولكن النفوذ البونيقي تجاوز الحدود التي كانت تشرف عليها قرطاجنة حيث وقع العثور على كتابات بونيقية فى تونس وشرقي الجزائر واكد سان ـ اوكستان الذي ولد فى منتصف القرن الرابع الميلادي) ان اللغة البونيقية كانت منتشرة فى البادية فى عهده واكد « بروكوب » Procope انها كانت دارجة فى القرن السادس والمسافة قصيرة بين هذا العهد والفتح الاسلامي لهذا يقول كزيل ـ ان فى وسعنا ان نفرض ان البربر تبنوا لغة الاسلام لانهم تعلموها بدون مشقة لمعرفتهم للبونيقية التي لا تختلف عنها كثيرا (تاريخ افريقيا الشمالية القديم ج 4 ص 498) وقد استند كزيل نفسه الى وثائق قديمة اشار اليها فى كتابه واستنتج منها كوتيي (عصور المغرب الغامضة ص 105) تسلسل تاريخ المغرب « تسلسلا عميقا » وقد وصف لنا بروكوب المذكور كيف هاجر العرب الناطقون باللسان البونيقي الى المغرب بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام وكانت فينيقيا تمتد اذ ذاك من صيدون (وهي صيدا الحالية) الى مصر وعندما اكتسحها العبريون هاجر الفينيقيون من وطنهم الى بلاد الكنانة التي كانت فى حدود بلادهم ومنها الى المغرب حيث انتشروا الى « أساطين هرقل » (مضيق جبل طارق) ولهذه النظرية صلة بما قاله المؤرخون العرب فى انتساب كتامة وصنهاجة الى حمير ومعلوم ان الحميريين اقطاب الملاحة التجارية بين الهند وشرقي حوض المتوسط هم مثل الفينيقيين بالنسبة لهذا الحوض وكان بين البربر ـ فى نظر ابن خلدون ـ قبائل حميرية ومضرية وقبطية وكنعانية وقرشية تجمعت فى الشام وبها غزا افريقش الحميري المغرب .

ومهما تكن قيمة هذه النظرية فالواقع ان القرطاجنيين مشارقة وان لغتهم وحضارتهم الشرقيتين ظلتا ـ كما يقول كزيل ـ تحت الرماد طوال عهد الرومان والوندال والبزنطيين الى ان جاء الاسلام فوجد فى « قرطاجنة جرثومة مشرقية لم يندثر اثرها مستعدة للفتح والازدهار » واستمرار البونيقية فى المغرب كانت له فى نظر كزيل ذيول اخرى منها الديني (عبادة بعل مثل العرب) واستعمال الهلال واليد «الاصابع الخمسة» للاتقاء من العين والمحافظة الشديدة والتمسك بالدين .

ويستمر كزيل فى الاستنتاج فيلاحظ كمظاهر للطابع الشرقي فى المغرب استعمال القرطاجنيين للقميص الطويل بدون حزام وللشاشية والبرنس مع حلق الشعر او تقصيره وارسال اللحي وصبغها واستعمال الحناء والكحل والختان والسجود فى العبادة (مما كان يدهش الاغريق والرومان) وتحريم لحم الخنزير وما هو اعظم من ذلك وهو وحدة الفكر الذي يختلف هنا عن فكر الغربيين (كوتيي ص 125) .

والذي يؤكد ايضا من الوجهة التاريخية وحدة القرطاجنيين والبربر او وحدة الشرق والمغرب ان القطرين اللذين فتحهما المسلمون واستوطنوهما خارج افريقيا فى غرب حوض المتوسط هما الاندلس وصقلية وهما وحدهما اللذان استوطنهما الفينيقيون والقرطاجنيون قبل الاسلام « وعلى كل فان وجود هذه الصلة بين قرطاجنة والاسلام » قد اندرج فى سجل التاريخ وان سكان قسط شاسع من المغرب يتكلمون لغة سامية قريبة من العربية ويلبسون ويتعممون ويفكرون ويحسون على طريقة المشارقة منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف من السنين (كوتيي 130 ـ 132) .

ونساق من هذا الى الحديث عن الاعراف والعوائد الاجتماعية فى المغرب ، فما نسميه بالعرف لا يمثل العرف دائما ، لان العادة المحكمة تكون تارة عرفا وتارة شرعا ، والشرع كما يقول سوردون (ص 281) هو العرف العام اي المادة التي يستقي منا العرف فى حين ان العرف فى نطاقه الحقيقي ليس سوى ذلك الجزء الجنائي او المدني من العادات ، وهو عبارة عن الاتفاقات المبرمة بين الجماعات لتحديد بعض نقط العادة او تعديلها فى خصوص العوائد المتعلقة بالسواقي او المخازن المسماة « بأجدير » (1) .

(1) اجدير عبارة عن مستودع لخزن ذخائر مجموعة من العائلات التي تملك الهرى وتسمى اهل الحصن او اهل الاصل وهي تكتتب لشراء الارض ثم تبنى عليها عمارة من ثلاث طبقات ويباشر تسيير هذه المستودعات بالارتكاز على فكرة اللوازم وهي واجبات الشركاء او المصالح وهي العلائق بين هؤلاء الشركاء لا يخفى ان فكرة « المصالح المرسلة » فى المذهب المالكي تجعل هذا النوع من العرف عادة محكمة ذات صبغة شرعية .

وشكلية الجماعة عند الشلوح شبيهة بالتي توجد عند امازيغ (الدشر ـ الدوار ـ مجلس الاعيان ـ اجدير الخ) وتلاحظ نفس الوحدة فى الهيكل العام للقانون العومي ، ولا بدع فى ذلك حيث ان القبيلة التي هي النواة الجهوية للجماعة تتسم بنفس المظاهر فى السهول وفى الاطلسين المراكشي والتلي ومجلس الجماعة هو المكلف هنا وهناك بتطبيق العرف العام الذي هو الشرع وكذلك العرف الجنائي الخاص .

على ان الفقه المالكي منتشر فى نصف المغرب العربي تقريبا (سوردون ص 473) وحتى فى النواحي العرفية يلجأ الناس الى الطلبة او الى الحكام يطلقون عليهم اسم قضاة او مفتين ويختارونهم بالاقتراع لمدة مؤقتة او بصورة دائمة ، ويؤكد سوردون « انه لم يقع قط اي تصادم بين الشرع والعرف » فى المغرب (ص 342) ـ ولنضرب مثلا بمنطقة الاوراس البربرية» فان الفقه المالكي مطبق فيها ، ولكن ذلك لم يمنع سكانها وهم شاوية ان يطبقوا فى نفس الوقت عرفا يستمد مقوماته الخاصة من وسط شبيه بسوس والاطلس الاوسط (ص 390) والاعراف متشابهة فى افريقية (تونس) وبلاد القبائل الجزائرية والاطلس الاوسط بينما ترى التقارب محسوسا بين الاعراف فى وسط المغرب الادنى وجنوبه والاوراس (ص 442) بحيث تلحظ وحدة موصولة بين كثير من اجزاء المغرب العربي لان الجوهر واحد « فمن اجدير الى قابس الى الجزائر الى بوذنيب الى ابن صالح فى الصحراء توجد لحمة واحدة فى الهيكل العام الذي هو افريقيا الشمالية» (ص 473) .

ولعل من ابرز مظاهر وحدة المغرب العربي المظهر الجغرافي الذي تمخضت عنه كثير من المظاهر وبالاخص الحاجيات الاجتماعية والوحدة الاقتصادية ذلك ان اقطار افريقيا الشمالية تتجلى كجزيرة جبلية شاسعة تمتد من الشرق الى الغرب فى مسافة ينيف طولها على 1.800 كيلومتر وعرضها على 400 كيلومتر ويحف بها البحر من ثلاث جهات ، فى حين تتغلغل جنوبا فى فيافى الصحراء ، واذا استثنينا هذه الصحراء الشاسعة التي هي امتداد طبيعي للمغرب العربي وجدنا ان مساحة افريقيا الشمالية تبلغ 800.000 ك. م.

ويمتد الاطلسان الاوسط والاكبر نحو الشمال الشرقي عبر المغرب العربي بواسطة الاطلس التلي بينما ينعرج الاطلس الاكبر شرقا الى جبال « القصور » ثم يستطيل « اطلسا صحراويا » نحو الشمال الشرقي فى سلسلة سامقة تتخللها ممرات واسعة وفى تونس يلتحق الاطلسان الواحد بالآخر ثم يمتزجان .

ومن الاطلس الكبير الى تونس يحف الاطلسان بسلسة من الهضاب الكبرى يتروواح ارتفاعها بين 800 و 1.000 كيلومتر .

وتتسم الشواطىء ايضا بنفس المظهر : ضفاف واطئة فى المحيط الاطلسي دون اي نتوء صخري وعلى ضفاف المتوسط شواطىء تتخللها فرض ضيقة متفتحة لرياح الشمال والشمال الشرقي .

اما المناخ فهو على وجه العموم حار معتدل مع امطار شتوية وتمتد امام نظرك على طول الشاطىء وفى السهول ومنحدرات الاطلس التلي والريف والاطلسين الاوسط والاكبر ادواح واشجار مستديمة الاوراق صيفا وشتاء تتخللها الدفل والعناب والدوم ومآت النباتات العطرية وترتفع غابات الزيتون فى السفوح الى 800 م. بينما تكثر فى النواحي الرطبة اشجار الصنوبر والعفصية والبلوط والخفاف (الذي لا يوجد الا فى الحوض الغربي المتوسط) وتتسامق اشجار الارز فى القنن العالية .

اما فى الهضاب العليا والنواحي التي لا تنزل فيها الامطار بكثرة فان قطعان الغنم تسرح تحت حراسة رعاة رحل بينما تغطي الحلفة بخضرتها القاتمة مساحات شاسعة (افريقيا الشمالية لم. كليز (Gleyze) ولا توجد فى اي مكان فى الدنيا غير الاطلس واسبانيا ، فالحلفة اذن من اكبر خواص المغرب العربي (افريقيا البيضاء ـ كوتيي ص 161) وهكذا يتجلى الاطلس المتسلسل من المغرب الاقصى الى المغرب الادنى قطعة واحدة يغمرها نفس الضياء ونفس الاشعة ونفس المناظر الطبيعية (افريقيا البيضاء كوتيي ص 153) ولكن فى مجموع اقطار الاطلس وعلى طول 3.000 كلومتر من اكادير الى صفاقس لا تتوغل الحياة البدوية والحضرية اكثر من 150 كيلومتر فى عمق الجبال (ص 155 .

ومن ثروات افريقيا الشمالية علاوة على الزيتون اشجار الفواكه واللوز والكرم والحوامض والمشمش .

وتتسم هذه الوحدة الجغرافية والاقتصادية بطابع خاص عميق بين المغرب الشرقي والجزائر حيث يمتد التل الوهراني الى نهر الملوية الذي هو اعظم نهر فى

افريقيا الشمالية كما تتلاحق هضاب دبدو مع هضاب تلمسان وتتلاحق نفس الهضاب من الجزائر الى قلب الصحراء « تندرارة » وفي هضاب الجزائر والمغـــرب الشرقي تكثر الحلفة وقطعان الغنم التي تباع في بركنت وتصدر الى الخارج من وهران وتعتبر فجيج مركزا هاما في الاطلس الصحراوي المغربي والجزائري على ان سهول وهران نفسها انما هي امتداد طبيعي لممر تازة او العكس

وتوجد في المغرب العربي نفس المعادن تقريبـــا (الفوسفاط والحديد والزنك والرصاص والنحاس ، وان كان المغرب الاقصى ينفرد بالمانغانيز والقصديـــر والكوبالط والموليبدين وبالاخص الفحم والبترول) .

وخلاصة القول هي« ان افريقيا الشمالية واحدة في جميع مظاهر حياتها الماضية والحاضرة » كما يقول الكولونيل بوطس في كتيبه عن افريقيا الشمالية (ص 55) فهي « كتلة متراصة لا يمكن تجزئتها » والعوامل شتى « لهذا التماسك وتلك الوحدة » بين اجزاء جزيرة هائلة عاش سكانها منطوين حول انفسهم آلاف السنين في حين هيات لهم الوضعية الجغرافية الخاصة اسباب التواصل فتيسرت في جميع العصور عوامل التبادل من اقصى المغرب الى اقصاه بين عناصر تجمعها ارومـة واحدة سلسلة من المسالك السهلة تمتد من تونس عبر ممر تبسة الى هضاب وهران ومن ممر تازة الى المحيط الاطلسي ! هذه الطريق التي عبرها عقبة بن نافع منذ ازيد من الف عام لتوطيد قدم العروبة والاسلام هي التي وصفها ويليام مارسي بانها « الخط الاكبر للحياة في المغرب الاسلامي » وهذه الطريق تتخلل الاطالس الثلاثة لتضفي على المغرب العربي وحدة جغرافية خاصة تجعل هذا الجزء من القارة الافريقية فريدا في بابه لاسيما اذا اضفنا الى ذلك وحدة الطقس التي تنشر على الكـل سربالها الدافىء المشع بنوره الازرق اللماع .

والمغرب العربي يعتبر من الوجهة الاقتصاديـة قطرا فتيا فلاحيا في جوهره ينطوي على قابلية ذاتية للتصنيع نظرا لوفرة المواد الخامة واليد العاملة ولا تزيد التطورات الحديثة هذه المغارب الثلاثة الا تقاربا ابلغ وامتن .

وهذه الوحدة الخاصة التي تجعل من المغـــرب العربي وصحرائه كتلة من جميع الوجوه لا تتنافى مع الوحدة العامة التي تربط المغرب بالعالم العربي والتي تتجلى مظاهرها في وحدة اللغة والحضارة والديـــن والعواطف وكذلك التاريخ .

فالقطر الليبي هو امتداد طبيعي للمغرب نحـــو الكنانة وباقي اقطار الشرق ، تجمعه بالمغرب وحـــدة الجنس علاوة على وحدة التاريخ والحضارة ولكنه ينفصل عن المغرب جغرافيا واقتصاديا ، لان الاطالس تمتد الى تونس فقط ولان الصحراء تمتد في ليبيا الى الشواطىء نفسها .

ولا يختلف وضع مصر عن وضع ليبيا بالنسبة للمغرب الا قليلا اذا اعتبرنا ان الاقباط ينتمون الى نفس الفصيلة اللغوية التي ينتمي اليها البربر وان مصر كانت دائما معبرا بين الشرق والمغرب العربيين وصلة وصل حية بينهما .

فعن طريق مصر دخل الى المغرب الفاتح العربي ثم تدفقت بعد خمسة قرون موجة العرب الهلاليـــين والسلميين الذين تواردوا الى الصعيد المصري مـــن جزيرة العرب التي تصلها بالمغرب زيادة على هذه الثقفة الجنسية التي كان لها اعمق الاثر في التاريخ — اسباب اخرى لا تقل عن الاسباب التي تربطها بباقي العالـــم العربي .

وبلاد الشام التي كانت مهد الخلافة الاسلامية في العصر الاموي والتي كانت حدودهـا السياسيـــة والجغرافية والحضارية تتغلغل بين دجلة والفـــرات والاردن الى صحراء فلسطين كانت ايضا مهد الفينيقيين الذين نشروا في جناحي العروبة الشرقي والمغربي نفس الحضارة بما فيها من ابسط المظاهر حتى الاقتصادية منها حيث « ان الفينيقيين هم الذين حملوا من الشام الى المغرب للمرة الاولى الزيتون والتين والكرم والرمان (الكولونيل بوطس 82) .

ومن هذا العرض الموجز تتجلى لنا في اعمق مظاهرها وابهى مجاليها تلك الوحدة العريقة التي تجعل من المغرب العربي مجموعة متراصة ينتظر ان تقوم بدور هـام في حوض البحر المتوسط خصوصا والعالم الحر عموما مع شقيقاتها العربيات .





القيت هذه المحاضرة في الاسبوع الثقافي في كل من ابن احمد ، وبني ملال ، وقصبة تادلة ، غير ان اسلوب ما القيت به معانيها على المستمعين في الخطاب ، هو غير اسلوب ما ترجمت به معانيها الى القراء في الكتاب .

م ح

لم يكن أحد اولئك الذين اشتروا بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا ، اولئك الذين اصطبغوا بصبغة العلم ولكنهم زهدوا الناس في طلبه من قلة عملهم به ، اصطبغـوا بصبغة العلم ليتصدروا به المجالس ، ويجمعوا به الحطام ، وينالوا به الحظوة والشرف . وصدق نبي الاسلام فيما وصف من حالهم حين قال : (**السنتهم احلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب**) وصدق نبي الاسلام فيما اخبر عن مآلهم حين قال : (**من تعلم علما لغير الله او اراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار**) واطرف الشاعر الاندلسي فاحسن الطرفة حين وصف بعض الاصناف منهم قائلا :

أهل الرياء لبستم ناموسكم
كالذئب اد لج في الظلام العاتم

فملكتم الدنيا بمذهب مالك
وقسمتم الاموال بابن القاسم

وركبتم شهب الدواب باشهب
وبأصبغ صبغت لكم في العالم

أجل ، لم يكن من هذا الصنف الذي حدثوا عن بعض أفراده انه ادرك من الفقه والجاه ما جمع به مالا فأوعى ، ولكنه حينما ادركه الموت وانكشفت له النهاية اخرج عنه الاهل والاصحاب ، وغلق عليه الباب ، واخذ يلطم وجهه مرددا قول الله : (**يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله**) .

ولكنه كان عالما من علماء الاسلام الذين ورثـوا الانبياء ، لم يرثوا منهم درهما ولا دينارا ، وانما ورثوا العلم يهدون به ويهتدون ، كان ابا محمد سليمان بن مهران الاعمش عالم الكوفة ، ومحدثها ، وزاهدهـا ، وعابدها ، قام ذات ليلة يقرأ ما تيسر من القـرآن ، ويتهجد عسى ان يبعثه ربه مقاما محمودا ، فمر بهذه الآية الكريمة : (**شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ان الدين عند الله الاسلام**) .

واذ هو الاعمش (علامة الاسلام) كما وصفه يحيى القطان ، فلم يمر على الآية مر الذين يقرؤون القرآن لا يتجاوز حلاقمهم والتراقي ، وانما وقـف عندها وقوف الذين اذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون ، لذا خشع قلبه لما تلا لسانه ونطق قائلا : (**وانا كذلك اشهد بما شهد الله ، واستودع هذه الشهادة عنده ، وهي عنده سبحانه وديعة**) وكـرر الآية مرددا مرارا : (**ان الدين عند الله الاسلام**) .

اي والله ، لقد صدق الله ، وصدق انبياؤه ورسله ، وصدق المؤمنون من احياء القلوب من عباده ، **ان الدين عند الله الاسلام .**

وما الاسلام ؟

الاسلام هو ما اوحي الى محمد فى الكتاب ، هو الرسالة العامة التي ارسل بها محمد على حين فترة من الرسل الى الخلق اجمعين ، الشرقي والغربي ، الاحمر والاسود ، اليهودي والنصراني **(قل يايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا) (كان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة) (بعثت الى الاحمر والاسود) .**

هو خاتمة النبوءات السابقة ، ونهاية المراحل لجميع رسالات الله من السماء لاهل الارض **(ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيئين) .**

هو المعنى الشامل والخلاصة الجامعة، والتصحيح المحكم ، لمعاني ما انزل على الرسل من قبل محمد **(وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) .**

هو البيان الكاشف لما اخفي اهل الكتاب من الكتاب **(يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) .**

هو النور الساطع الذي جلى معالي السمو والكمال فى ملكوت الله فى السماء وفى الارض **(يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا)** هو اللبنة التي عجب الناس لخلو مكانها فى هيكل قصر النبوءات الذي بناه رب العرش العظيم لبني الانسان على الارض ، ليبلوهم ايهم احسن عملا ، ومن ثم جاء قول نبي الاسلام صادقا: **(ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فاحسنه واجمله الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت اللبنة ؟ فانا اللبنة)**

هو الحق وليس بعد الحق الا الضلال **(ذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال) (انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) (ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق) .**

هو العلم وليس بعد العلم الا الجهل **(ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين)**

هو الصدق وليس بعد الصدق الا الكذب **(وان كادوا ليستفزونك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره ، واذن لا تخذوك خليلا ، ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ،اذن لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) .**

هو الدستور الالاهي الذي جمع قوانين الروح وقوانين الجسد ، قوانين الفرد وقوانين الجماعة ، قوانين الحال ، وقوانين المآل للانسانية ، فى آخر مرحلة من مراحلها التاريخية المتعاقبة على مر الزمان والاحقاب **(وانزلنا اليك الكتاب تبيانا لكل شيء) .**

هو القرار الالاهي الاخير الذي قرر معنى الفطرة الانسانية فى اتم حقيقتها طبعا وخلقا **(فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) .**

هو المحجة البيضاء الى السلام ، لو شاء اهل الارض التائهون فى بيداء القلق والحيرة والاضطراب فى الشرق وفى الغرب ، ان يهتدوا الى السلام ، **(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) .**

كان بدء ما انزل على محمد من وحي الاسلام بدء النعم المسبغة من رب الانسان على الانسان ومنشأها ، وكان آخر ما انزل على محمد من وحي الاسلام اتم النعم واكملها . كان اول ما انزل منه اول النعم ، اذ كان النعمة التي فضلت وكرمت وصرفت من اعترض وجود الانسان خليفة فى الارض عن اللجج ، كان نعمة (العلم) التي بعث بها الرب الاكرم الى محمد ، فى الغار على لسان الناموس الاكبر قائلا : **(اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم)** وكان آخر ما انزل منه اتم النعم واكملها ، اذ كان النطق الالاهي الكريم الذي اعلن لبني الانسان يوم الحج الاكبر فى عرفات ، ان الهداية الالاهية المسددة التي امرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، واحلت الطيبات ، وحرمت الخبائث ، ووضعت الاصر ، ورفعت الاغلال ، وسمت بالروح ، ووجهت الانسانية وجهة السعادة الابدية ، قد تم بها الوحي اليوم فى الكتاب المنزل على محمد **(اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا)** ومن هنا كان صدقا ما جاء عن نبي

الاسلام من ان عقيدة الاسلام هي العقيدة التي ياخذ الله بها ويعطي يوم القيامة ، ومن ثم كان من العدل الالاهي ان لا يقبل من اهل الارض ان يدينوا بغير هذه العقيدة على الارض **(ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)** ومن ثم امر الله محمدا نبي الاسلام ان يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظ عليهم ، ومن ثم امر المؤمنين من اتباع محمد ان يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة ، ومن ثم اعلن نبي الاسلام في غير تحرج ولا خوف ان لا عصمة لدماء واموال الخارجين على هذه العقيدة والمقاومين لها والواقفين في وجه انتشارها حين قال : **(امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحق من الله)** وحين قال : **(بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف امري)** .

ومن حيث كانت عقيدة الاسلام العقيدة التي قررت الوضع المجتبى الذي اراد رب الحياة في الازل ان تحيى عليه النسمات المبروءة على الارض ، بعد ان تكون قد اجتازت من المراحل ما استكملت به نموها ووصلت الى الطور الذي تنطبق فيه حياتها مع معاني هذه الرسالة انطباق المخلوق مع ما خلق لاجله ، فقد كان من المحتم في طبيعة الخلق وسنة الله ان تشمل من عناصر القوة والحق ما تحقق به وجودها في التاريخ البشري الحي ، لذا حققت العقيدة الاسلامية وجودها العقدي في قلوب المؤمنين بها اولا ، ثم حققت وجودها الواقعي في تاريخ الدنيا ثانيا ، حققت وجودها في قلب محمد ، رسولها المبعوث بها اول ما نزلت عليه ، وتملكت كل مشاعره ، وجميع احساساته ، واقامته في فترة البعث ، يصدع بما امر ، ينذر عشيرته الاقربين ويدعوا الى دين الله ، فيسفه الاحلام ، ويضلل الاقوام ويعيب الآلهة غير اله الحق ، ويقول لعمه حين جد الجد وحزب الامر : **(يا عم : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، لما رجعت عن هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك دونه)** وحققت وجودها في صمود محمد حين اوقفته في فترة الضعف صامدا صابرا يتحمل الاذى ، ولا يبالي الاضطهاد ، وانما يحسب الحساب فقط لان لا يكون عليه من ربه غضب او سخط ، اسمعوه ينادي ربه حينما اغرت به ثقيف سفهاءها وعبيدها يطاردونه ويرمونه بالحجارة : **(اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وهواني على الناس ، يا ارحم الراحمين ، انت رب المستضعفين ، انت ربي ، الى من تكلني ، الى بعيد يتهجمني ، ام الى عدو ملكته امري ، ان لم يكن بك غضب علي فلا ابالي)** وحققت وجودها في شجاعة محمد يوم اوقفته في فترة الكفاح بطلا شجاعا ، يخوض المعامع ، ويقارع السيوف ، ويتلقع الرماح ، فتكسر رباعيته ويشج في وجهه ، ويقف ثابتا لا يتزحزح . وحققت وجودها في عظمة محمد يوم كانت اساس سلوكه مع القوم في فترة الانتصار ، فكان بها المثل الاعلى للانسان المهذب ، الحليم الصبور ، السياسي المحنك **(السوبرمان)** العالمي ، اليس هو القائل يوم دخل مكة منتصرا : **(يا معشر قريش ، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب) ثم تلا الآية (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) يا معشر قريش (اذهبوا فانتم الطلقاء)** .

ثم حققت وجودها في اصحاب محمد الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه، فصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، وجاهدوا في سبيل الثبات على عقيدة الاسلام .

حققت وجودها في ابي بكر الذي كان بها اول المؤمنين وخير الصديقين ، فقلبته من رجل التجارة والتكسب وجمع المال ، الى رجل الايمان والعقيدة والتضحية وبذل المال ، اسمعوا الى بنته اسماء تحدثكم عنه حينما ترك وطنه واهله وخرج مهاجرا مع رسول الله ، باذلا له ماله ، ومعطيه رفده ، قالت : **(لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج ابو بكر معه، احتمل ابو بكر ماله كله خمسة الآف درهم او ستة آلاف ، فانطلق بها معه ، قالت فدخل علينا جدي ابو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال والله اني لاراه قد فجعكم بماله ونفسه ، قالت : كلا يا ابت انه ترك لنا خيرا كثيرا ، قالت : فاخذت احجارا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان ابي يضع ماله فيه ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم اخذت بيده فقلت يا ابت ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده ، فقال لا باس ، اذا كان ترك لكم هذا فقد احسن ، وفي هذا بلاغ لكم ، قالت : والله ما ترك لنا شيئا وانما اردت ان اسكن الشيخ بذلك)** .

وحققت وجودها في عمر حين كانت بتاثيرها العقدي في نفسه ذلك (الديناميت) الذي هزه هزا ، ورماه كالقذيفة الى دار الارقم يعلن ايمانه لنبي الاسلام الذي لم تعد يومئذ في الارض نسمة احب اليه من نفسه كما قال ، ويشهد معلنا امامه ان لا اله الا الله ،

وان محمدا رسول الله ، فيهز محمد ومن معه من الصحب القلائل المختفين هزا ، ويرفعون التكبير قائلين (الله اكبر) ثم يقول السنا على الحق يا رسول الله ان متنا او حيينا ! قال بلى ! والذي نفسي بيده انكم لعلى الحق ان متم وان حييتم ، قال عمر ففيم الاختفاء ، والذي بعثك بالحق لنخرجن ، ويخرج الجميع مهللين مكبرين لهم كديد ككديد الطحين ، تراهم قريش ، وتصاب يومئذ بكآبة لم تصب بمثلها من قبل .

وكما حققت هذه العقيدة وجودها في عمر بعملها العقدي في نفسه ، فقد حققت وجودها فيه بتأثيرها التربوي في سيرته ، حين صيرت منه ذلك الحاكم القوي الذي (**فتح الفتوح ، ووضع الخراج ، ومصر الامصار ، واستقضى القضاة ، ودون الدواوين ، وفرض الاعطية ...**

وحققت وجودها في المستضعفين من المؤمنين الاولين عند ما تركزت في قلوبهم وامتزجت بدمائهم واعصابهم وتحملوا من اجل الثبات عليها من الوان العذاب ما كان به صناديد قريش يجرونهم فوق رمال الصحراء ، على ظهورهم وصدورهم الحجارة المحماة ، وهم صامدون صابرون وقلوبهم مطمئنة بالايمان ، ينشدهم بلال تحت السياط نشيد الايمان مرددا « احد احد » .

وحققت وجودها في سلمان الفارسي الذي كان اذا سئل ، ما نسبك ؟ اجاب : نسبي الاسلام .

وحققت العقيدة الاسلامية وجودها في غير اولئك وهؤلاء في قادة الاسلام ، وساسته وحكمائه وعلمائه ورجاله الفاتحين في كل بقعة حلها الاسلام فكونوا بذلك (تاريخ الاسلام)

فمن قلوب رجال الاسلام ، من اخلاقهم ، من سيرهم ، من اعمالهم ، حققت العقيدة الاسلامية وجودها في المجتمعات الاسلامية ، حققت وجودها في عهد النبي في الجزيرة العربية فقلبت اهلها من اولئك الاعراب الجفاة المتناحرين الاشد كفرا ونفاقا ، الى اولئك المسلمين المؤمنين الموحدين الاكمل تهذيبا وخلقا، وصيرتهم كما وصفهم جعفر بن ابي طالب عند ما سأله ملك الحبشة عن حقيقة هذه العقيدة التي فارقوا فيها دين آبائهم ، وهجروا من اجلها اهلهم واوطانهم، فقال : **(كنا قوما اهل جاهلية نعبد الاصنام وناكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الارحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والاوثان، وامرنا بصدق الحديث ، وأداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل اموال اليتيم وقذف المحصنة وان نعبد الله وحده لا شريك له) .**

ثم حققت هذه العقيدة وجودها في الشام والعراق ومصر في عهد الخليفتين عمر وابي بكر ، ثم انتشرت بعد شرقا وغربا من جبال القوقاز الى شاطيء الاطلسي ، الى المغرب العربي ، الى هذا البلد ، حيث حملها اولئك الفاتحون الاطهار ، والمؤمنون الابرار ، الذين قطعوا الفيافي ، وجابوا القفار ، لا يحدوهم مطمع، ولا يحفزهم غرض ، فاتحون اطهار ، لم يكن غرضهم من فتح هذا البلد فتح كنوزه وخيراته واستثمار اراضيه واستعمارها ، وانما كان غرضهم اسمى من ذلك كله . كان غرضهم ان يفتحوا قلوب اهله ليغرسوا فيها مبادىء قدسية سموية ، هي عقيدة الاسلام .

ان العقيدة الاسلامية التي حققت وجودها في المغرب الاسلامي بفضل جهاد اولئك الفاتحين الروحيين الابرار ، هي العقيدة الاسلامية التي جعلت منه امة ، وكونت له تاريخا ، واسست له دولة ،وخلدت له مجدا لا يزال في التاريخ يذكر ويعتبر ، ففي هذا البلد حقق الاسلام وجوده في المغاربة الذين اعتنقوه فكانوا به المغاربة المسلمين ، الابطال العظام ، رجال الفتح والايمان، الذين رسخت عقيدة الاسلام في نفوسهم ، ثم حملوا بعد مشعلها ، يضيئون به ما حوالي هذه البلاد من اصقاع وبقاع . في هذا البلد حقق الاسلام وجوده في الفريق الاول الذي عبر بحر الزقاق الى الاندلس بقيادة طارق ، ثم احرق ما عبر به البحر من سفن ، لانه عبر البحر وليس من امله الرجوع الا ان تخفق راية الاسلام فوق الجزيرة او تكون الجزيرة قبورا لرفاتهم ، كابرار شهداء في سبيل العقيدة والمبدا ، فكانت لهم الغلبة ، وكان لهم النصر ، وكان لهم الفتح ، وكان لهم ان كونوا في تلك البلاد فردوسا ارضيا لا تزال آثاره ماثلة حية ناطقة لمجد الاسلام هناك .

وفي هذا البلد حقق الاسلام وجوده في الفريق الثاني الذي عبر البحر ثانيا بقيادة يوسف بن تاشفين ، وضربوا النصرانية في وقعة الزلاقة ضربة مدوا بها من عمر الاسلام ومن مدنية الاسلام في الجزيرة الاندلسية ما يزيد على اربعة قرون .

لقد كان للعقيدة الاسلامية من الامجاد في هــــذا البلد ، وفي غير هذا البلد ، ما هو في التاريخ القديـــم والحديث مسطور ، واعترف به البعيد والدانـــي ، والعدو والصديق ، ولقد حاول المستعمرون الاروبيون ان يطفئوا نور هذه العقيدة السامية المبدأ في عالـــم الروح ، المحققة الوجود في التاريخ الحي ، في كل ارض حلتها اقدامهم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، بعد ان اخفق اجدادهم في القضاء عليها بحملاتهـــم الصليبية في القرن الثالث عشر . اسمعوا الى الجنرال الانكليزي اللور اللبني يفصح في نهاية الحرب العالميـــة الاولى عن ان تلك الحرب لم تكن بالذات حرب الحلفاء للالمان ، ولكنها كانت في المقصد والغاية حرب النصارى للمسلمين ، اليس هو القائل في خطبته بعد ان وطئت بالغدر والحيلة والمكر ارض فلسطين **(الآن انتهـــت الحروب الصليبية !!)** ؟ ثم الم يصرح زميلاه الفرنسيان في تلك الحرب كورو وكوابي ، ان الجنود الفرنسيـــة التي دخلت دمشق بقيادتهما قد اخذت الثار لاجدادهم الصليبيين في ارض الشام ؟ ثم الم يحاول المستعمرون الفرنسيون بالعمل على تطبيق سياستهم البربريـــة في الجزائر والمغرب القضاء على عقيدة الاسلام ، وتعاليم الاسلام ، وقوانين الاسلام ، في الاغلبية الغالبـــة في مسلمي هذه البلاد ؟ ثم الم يصرح المشرعـــون والقانونيون الفرنسيون في بدء الاستعمار الفرنســـي للاقطار المغربية ، بانه لا يثبت للتشريعات والقوانيـــن الفرنسية اي وجود في هذه البلاد ما دامت فرنسا لم تعمل على احلال الكثلكة محل الاسلام في دنيا الشمال الافريقي ؟ وها هي فرنسا لا تزال في الجزائر تبـــذل الجهد عبثا لتقطع من اراضي الاسلام تلك الارض .

اجل لقد بذل المستعمرون الاروبيون في العصـــر الحديث اكبر المجهودات للقضاء على العقيدة الاسلامية في جميع بلاد الاسلام ، بقوتهم العسكرية ، وبدعايتهم التبشيرية ، وباساليبهم السياسية ، كما حاول اجدادهم من قبلهم القضاء عليها بحملاتهم النصرانية الصليبية ، ولكن الله ابى الا ان يتم نوره ولو كره الكافـــــرون والمستعمرون .

في جميع ادوار التاريخ ، في هذا البلد ، وفي غير هذا البلد ، وفي غير ما دولة ، وفي غير ما موقف ، في عالم الفكر ، وفي عالم الروح ، وفي عالم الصراع ، حقق الاسلام وجوده كعقيدة خالدة في التاريخ الحي .

فهل سيحقق مسلمو اليوم باحياء مثله العليا في نفوسهم ، واخلاقهم وسلوكهم ، وجودهم في التاريـــخ المعاصر كمسلمين ....؟



هكذا تبدو « ايفران » المصطاف الجبلي الجميل ، في فصل الشتاء .
تمثل الصورة النهر الذي يشق « ايفران » وقد غطت جوانبه الثلوج البيضاء

تطور تشريع الوصيّة في الإسلام

للأستاذ : محمّد الطنجي

هل للانسان ان يوصي بجميع ماله اذا لم يكن له وارث ولم يكن عليه دين مستغرق لجميع متروكه ؟
عصر النهضة يتطلب ترك الحرية في اموالهم اذا لم تناف احكام الدين .
محمل حديث الوصية بالثلث عند المالكية والحنفية .

قرات المادة الاولى في كتاب الوصية الذي وضعته لجنة تدوين الفقه الاسلامي . فاذا هي تخصص القدر الموصى به بالثلث فقط ، حيث تقول : **الوصية حق يوجب حقا في ثلث عاقده يلزم بموته »** واصل التعريف عقد يوجب حقا ، وقرات تعريف الوصية في قانون الاحوال الشخصية المصري فوجدته عاما لا يقيد القدر الموصى به بالثلث ولا بغيره تقول مادة (530) الوصية تملك مضاف الى ما بعد الموت بطريق التبرع . وتنص مادة (534) على حالة جواز الزيادة على الثلث حيث تقول : يجوز لمن لا دين عليه مستغرقا لماله ولا وارث له ان يوصي بما له او بعضه لمن يشاء ، وتنفذ وصيته بلا توقف على اجازة بيت المال .

وكما ان ما سجل عند المغاربة هو مذهب مالك، فما سجل عند المصريين هو مذهب ابي حنيفة ،ومذهب احمد في رواية . فرايت بمناسبة صدور كتاب الوصية المغربي ان القي نظرة عابرة على تطور تشريع الوصية في الاسلام ، وعلى مصدر الخلاف بين المذاهب حتى نرى هل من الانسب ان يتوحد التشريع المتعلق بقدر الوصية ، وما هو الافيد لعصرنا الذي يتطلب النهوض بمشاريع كبرى تحقق عظمته ومجده ، فاقول :

ندب القرآن وحديث الرسول عليه السلام المسلمين الى الوصية ، وبالخصوص الوصية للوالدين والاقربين ، وحمل الجمهور قول الله تعالى **(كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية)** على الندب لا الوجوب . ثم لما نزلت آية المواريث صرح النبي بقوله : ان الله اعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث . رواه الائمة الخمسة ، فبقيت الوصية مندوبة ومستحبة لمن عدى الوارثين ، وكان للمسلم ان يوصي بجميع ماله اذا لم يكن له وارث كما فعل الحبر مخريق الذي دخل في الاسلام واوصى بامواله للنبي عليه السلام ومات شهيدا من يومه ، فجعل النبي وصيته كلها صدقة . ففي سيرة ابن هشام قال ابن اسحاق : وكان من حديث مخيريق وكان حبرا عالما وكان رجلا غنيا كثير الاموال من النخيل ،وكان يعرف رسول الله بصفته وما يجده في علمه ، وغلب عليه الف دينه ، فلم يزل على ذلك حتى اذا كان يوم احد **(يعني يوم غزوة احد)** قال : يا معشر يهود والله انكم لتعلمون ان نصر محمد عليكم لحق ، قالوا : ان اليوم يوم السبت . قال لا سبت لكم ، ثم اخذ سلاحه فخرج حتى اتى رسول الله (ص) باحد ، وعهد الى من وراءه من قومه : ان قتلت في هذا اليوم فاموالي لمحمد صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما اراه الله ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل فكان رسول الله (ص) فيما بلغني يقول مخريق خير يهود . وقبض رسول الله امواله ، فعامة صدقات رسول الله (ص) بالمدينة منها .

قال الحافظ ابن حجر في كتابه الاصابة في ترجمة مخريق المذكور : وكان عالما ، وكان اوصى بامواله للنبي (ص) وهي سبع حوائط : الميثب ، والصائفة ، والدلال ، وحسنى ، وبرقة ، والاعواف ، ومشربة ام ابراهيم ، فجعلها النبي (ص) صدقة . ثم ساق احاديث في هذا الموضوع ، فمن الممكن ان يكون لمخيرق ورثة بقوا على دين اليهود ، فيقال لا توارث بين ملتين ، فيكون ميراثه لبيت مال المسلمين كما انه من الممكن ان

يكون له ورثة مسلمون اسلموا معه او قبله ، والنبي على الاحتمال الاول اخذ جميع امواله وجعلها صدقة تنفيذا لوصيته ، ولم يعلن عما تصح عليه الوصية وهو الثلث وما ينوب بيت المال ، فلا يمكن حمل فعله الا على ان الوصية بجميع المال صحيحة ، لانه فى مقام التشريع الذي يقتضي البيان ، ولو كان الامر مخالفا للظاهر لبينه .

نعم ان تشريع الوصية استقر فى النهاية على تفصيل خاص اعطى لكل حالة ما تستحق ، فقد جاء عن النبي حديث رواه سعد بن ابي وقاص فى زمن حجة الوداع كما فى بعض رواياته ، قال سعد : جاءني رسول الله (ص) يعودني من وجع اشتد بي ، فقلت يا رسول الله اني قد بلغ بي من الوجع ما ترى ، واني ذو مال ، ولا يرثني الا ابنة لي ، افاتصدق بثلثي مالي ؟ فقال : لا قلت فالشطر يا رسول الله ؟ قال : لا . قلت فالثلث ؟ قال : الثلث ، والثلث كثير ، انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس . رواه الائمة الخمسة .

فهذا الحديث هو اصل التفصيل فى قدر الوصية، وهو ذو موضوع خاص هو وجود الوارث من الصلب. قال صاحب سبل السلام : قوله (لا يرثني الا ابنة لي) اي لا يرثني من الاولاد ، والا فان سعد كان من بني زهرة وهم عصبته وقال الحافظ ابن حجر ما معناه : انه قد كان لسعد وقت الوصية ورثة غير ابنته ، وهم اولاد اخيه عتبة بن ابي وقاص منهم هاشم بن عتبة وكان موجودا اذ ذاك 0 وتنزيل الحكم بناء على هذا يفيد ان الوارث المانع من الوصية باكثر من الثلث هو وارث خاص ، وليس مطلق الورثة قال الشوكاني فى كتاب نيل الاوطار نقلا عن ابن حجر (واستقر الاجماع على منع الوصية باكثر من الثلث ، لكن اختلف فيمن ليس له وارث خاص ، فذهب الجمهور الى منعه من الزيادة على الثلث ، وجوز له الزيادة الحنفية واسحاق وشريك واحمد فى رواية ، وهو قول علي وابن مسعود واحتجوا بان الوصية مطلقة فى الآية فقيدتها السنة بمن له وارث، فبقي من لا وارث له على الاطلاق) .

وقال شارح بلوغ المرام الصنعاني : والحديث ورد فيمن له وارث ، فاما من لا وارث له فذهب مالك الى انه مثل من له وارث فلا يستحب له الزيادة على الثلث (كذا) . واجاز الهادوية والحنفية له الوصية بالمال كله، وهو قول ابن مسعود . ثم قال الصنعاني : وسبب الخلاف الاختلاف فى المفهوم من قوله (انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس) هل يفهم منه علة المنع من الوصية باكثر من الثلث وان السبب فى ذلك رعاية حق الوارث ، وانه اذا انتفى ذلك انتفى الحكم بالمنع ، او ان العلة لا تتعدى الحكم ، او يجعل المسلمون بمنزلة الورثة كما هو احد وجهي الشافعي . والاظهر ان العلة متعدية ، وانه ينتفي الحكم فى حق من ليس له وارث معين » . وبمثل هذه الاقوال بين ابن رشد فى كتابه بداية المجتهد سبب اختلاف الائمة ، الا انه لم يرجح شيئا كما رجح الصنعاني .

وبعد فان اغلب العالم الاسلامي يتبع مذهب الحنفية فى جواز الوصية بالمال كله اذا لم يكن وارث خاص او دين مستغرق للتركة ، واتباع المذهب المالكي اقلية ، وحاجة نهوض العالم الاسلامي تقتضي ترك الحرية للناس فى التصرف فى اموالهم اذا لم تتناف احكام الاسلام ليمكن بعض الداخلين فى الاسلام ان يوصوا باموالهم كلها كما فعل مخريق فى وصيته باموالة للنبي يتصرف فيها بما اراه الله ، كما تتطلب المشاريع الكبرى ان يترك الباب مفتوحا للاغنياء الذين لا وارث لهم عسى ان يوفقهم الله لانشاء مشاريع كبرى تنفع امتهم الاسلامية ، ولا نستبعد ان توجد عندنا مؤسسات ضخمة كمؤسسة روكفلير باميريكا واشباهها ، وكوصية جوائز نوبل بأوربا .

على اننا فى الوقت نفسه نكون متبعين لمذهب راجح من جهة الدليل ، وان لم يكن هو مذهب الجمهور، لان المالكية ومن نحى نحوهم فى الواقع الغوا اعتبار حالة السؤال التي وقع الحكم عليها ، والغوا العلة والحكمة التي علل بها الشارع منع الموصي من الزيادة على الثلث ، وهي الخوف من ترك الورثة عالة يتكففون الناس ، واخذوا الحكم مجردا عن اعتبار كل سابق ولا حق ، فضعفت حجة هذا المذهب بسبب ذلك ، فكان من الانسب ان تاخذ لجنة تدوين الفقه المصلحة الغالية من التشريع بالاعتبار ، فتحور الحكم لقوة الباعث على ذلك، ولمسايرة توحيد التشريع فى العالم الاسلامي ، ولما اسلفنا من فسح المجال امام الاغنياء الذين لا وارث لهم ان ارادوا نفع امتهم بجميع اموالهم فى وصايا عظيمة ، ولا باس بتحوير الوصية على نحو يتفق وهذه الغاية النبيلة التي اشرنا اليها لقوة الدليل وحاجة العصر . وفقنا الله جميعا لكل خير .

دعوة الحق

للاستاذ :
محمد رضى شرف الدين
العراق

الاستاذ محمد رضى شرف الدين اديب وشاعر عراقي مشهور ، زار المغرب في السنة الماضية باسم جريدة (اليقظة) العراقية وذلك بدعوة من وزارة الخارجية المغربية .

ومكث بالمغرب اربعة عشر يوما ، حظى فيها بمقابلة جلالة الملك سيدي محمد الخامس ، وقابل كثيرا من الشخصيات السياسية والعلمية ، وزار المعرض الدولي بالدار البيضاء ، وقام بجولة في ربوع المغرب .

وكانت ثمرة كل ذلك ، كتابا اصدره الاستاذ محمد رضى شرف الدين الدين تحت عنوان :

(اربعة عشر يوما في المغرب)

ولا يتسع المقام هنا للحديث عن الكتاب ، ويكفي ان نقول ان الوطنية والعروبة والحماس والاعجاب ، تشع من كل سطر من سطوره ، وان كان ذلك لم يمنع الكاتب من ان يكون موضوعيا في كتابه ، وان ينتقد بعض الاوضاع وينبه الى بعض الاخطاء .

وقد اهدى سيادة سفير المملكة المغربية بالعراق الى الكاتب الشاعر ، مجموعة من مجلة (دعوة الحق) فكتب له جوابا عن هديته هذه الكلمة الدقيقة التي ننشرها هنا، شاكرين للاستاذ محمد رضى شرف الدين وطنيته وروحه العربية الاسلامية ، آملين ان نكون عند حسن ظنه ، وحسن ظن جميع المخلصين للفكر ، وللثقافة العربية داخل المغرب وخارجه .

دعوة الحق

دعوة الحق مجلة ذات مظهر وذات مخبر ، وكلاهما في نسق واحد ، انها النغم في اللحن، واللحن في الوتر ، انها الكلمة العذبة في معناها المؤثر .

طبع واخراج ، تبويب وتلوين وتصوير ، كل ذلك ينطوي على ما يدور في غير هذا المحور مما ينسجم واياه

لقي هذا الحرف قالبا لمعنى انزل فيه من غير فضول، فالنظرة الثانية اليه كالنظرة الاولى لا تختلف بهجة ، ثم لا تلبث ان تشرك الفكر ببهجتها فيصدران معا في رواء مما نظرت العين ومما خبر الفكر .

هذه هديتك يا سيدي ، بل هذه يدك ، وكم لك من يد في تعريفي على هذا الوجه العربي الاسلامي الجميل ، الرائع بكل صفاته وتقاسيمه وسماته ، وما هذه المجلة الا من ذلك الجمال في سماته العلمية والادبية والفنية ، وقسماته الاسلامية العربية الواضحة التي لا تقبل اللبس والغموض .

اني اخشى ان اطيل اذا انا دخلت في تفاصيل ما اعجبني منها ، ولكن لا يجوز ان اتجاوز هذا العدد بالاجمال من غير ان اشير الى « فاتحته » التي كتبها الزعيم الجليل علال الفاسي ، فبسط المعنى الاسلامي

بمفهومه الذي دعى اليه الشيخ محمد عبده ، ذلــك المصلح الذي كان له فضل الايقاظ في نهضتنا الحاضرة

مبعث اعجابي بهذا المقال لم يكن من كشفه ناحية من نواحي اصلاح الامام عبده لم يكشفها كاتــب او باحث قبل علال الفاسي الباحث ، وانما كان مبعث هذا الاعجاب ان كشفها علال الفاسي الزعيم السياسي الذي يقود اكبر حزب له اثر كبير في توجيه سياسة دولة ، وليس ذلك فقط ، بل يكشفها كشف متوفر عليها بقلم غني بمادته ، قوي باسلوبه ، مما قد يقصر عن مجاراته فيه كاتب متخصص، فهو لا يكتفي من قارئه باستعراض الموضوع ، بل ان له اسلوبا ياخذ بتلابيب هذا القارىء الى التعمق فيه ، فلا يدعه الا مؤمنا مسلما .

نحن هنا في المشرق ، لا نعرف سياسيا عنى بمثل هذه المواضيع .. وهذا دليل على ان في شطرنا المغربي وعيا سياسيا متفقها في السياسة ، يعلم ان هذه المواضيع هي من صلبها ، يعلم ان سياسة تبنى على الجهــل بمقوماتها في الماضي القريب او الماضي البعيد ، سياسة مبنية على غير اساس .

هذا ما جعلني انظر بتفاؤل واطمئنان الى مستقبل دولة تمشي في اول طريق الاستقلال ، ما دام في قادتها امثال الزعيم السياسي علال الفاسي . وليس من غرابة في ذلك ، فان القائد الاعلى الملك محمد الخامس هو عنوان الكتاب الذي احدى صفحاته علال الفاسي .

لقد قرأت كثيرا من خطب جلالته في مختلــف المناسبات ، منها التاريخية ، ومنها السياسية ، سواء ما كان منها يخاطب شعبه ، او ما كان منها يخاطب الوفود من هيئات سياسية وغيرها . لقد وجدتها جميعهــا تبعث الدهشة فيما تحويه من اطلاع على دقائق الامور، كل في مناسبتها ، ومنها ما يرجع الى عدة قرون . وقد علمت ان في المكتبة الملكية الخاصة مادة كل ذلك .

وليس العجب من احتفاظ بلاط ملكي عريــق كبلاط المغرب ، بوثائق تاريخية ، وانما العجب من حفظ الملك لهذه الوثائق بارقامها وتواريخها في خاطره ، فلا تشغله ادارة مملكة واسعة الحدود معقدة المشاكــل عنها ، بالاضافة الى اطلاعه ذاتيا على كل ما يرد اليه من كتب وصحف ورسائل ، من غير الاعتماد على الخلاصات التي ترفع عادة للملوك والرؤساء ، ثم عدم الاكتفــاء بالايعاز الى موظفي ديوانه بالاجوبة الصادرة عنه ، فانه هو الموجه والموصي وكثيرا ما يملي النص .

ان ملكا يحرس شعبه بمثل هذه اليقظة ، ويحكمه بمثل هذا العلم ، وعلى ضوء هذا الاطلاع ، لابــد ان يكون قدوة لشعبه ، فيخرج من بين صفوفه زعيم يترجم الامام محمد عبده ، بما لم يترجمه كاتب قبله ، كالسيد الفاسي .

واخيرا اشكركم على هديتكم واهنىء المشرفين على تحرير مجلة دعوة الحق ، الراقية الزاهرة .



نهر « زيز » بضواحي قصر السوق



حمى !!

للأستاذ : عبد المجيد بن جلون

كان ملقى فى السرير يتفصد عرقا من راسه الى اخمص قدميه ، وقد اخذت حمى مجنونة بتلابيبه اخذا لا رحمة فيه ، فيترامى اليه فى عالم التيه الذي شردته فيه الحمى ، صوت موسيقى الرقص من الدور الاول بالفندق ، وهدير السيارات والعجلات البخاريه من الشارع الذي تقع عليه نافذة غرفته ، ثم الازيز الرتيب الذي تحدثه آلة التبريد ..

واخذ يهذي هذيانا مخيفا .. كلا ليس هو الذي اخذ يهذي هذيانا مخيفا .. وانما الذي اخذ يفعل ذلك هو خياله الملتهب ، وفى اثره سياط الحمى المستهترة الداعرة ...

يا الهي ! اين ذهبت تلك الشمس المستحبة التي كنا ننعم بالسير فى نورها الدافىء ايام الشتاء ؟ اين اختفت تلك الشمس الوديعة ليخلفها هذا الكوكب الوقح الذي يخطف الابصار ويذيب العظام ، هذا الاشعاع الذري المهول الذي استقر فى كبد السماء لا تطرف له عين ، فيسير فيه الشبان وقد تقوست ظهورهم ، وتخاذلت خطواتهم ، وباتوا يترامون الواحد تلو الآخر على الارض وقد انهكت قواهم شيخوخة قاسية ، واخذت البحار تجف ، والجبال تجري ، والمعادن الصلبة فى سويداء الكرة الارضية تذوب وتلتهب وتتدفق بالامواج الفولاذية المدمرة العاتية ..

ان البشرية تهاجر من الارض القديمة ، وقد انطلقت الصواريخ باصواتها المفزعة تغادر المعمور الذاهب ، لتهرب بالبشرية الى الكواكب الاخرى .. انها الهجرة الانسانية الكبرى ... انه الطوفان الجديد .. فى عصر الذرة .. وعصر التمرد العقلي .. وعصر الحمى ..

ولا يشرف على النظام وتيسير عملية الهجرة الاجماعية الكبرى جنود فى جيش، ولا رجال من شرطة، وانما تشرف عليها فرق من الغربان السود .. تنشر الشؤم .. وتشرف على المأساة .. وتنعي الموت على الكوكب الصريع ..

كل شيء يفنى ، كل شيء ينتقل ويصير ، كل شيء يلتهب ويزول ، ما عداه هو ، انه يسبح ويسبح فى بحر لا نهائي ، تحاول النسائم ان تخفف من غلواء الالتهاب المطبق ، ولكنها سرعان ما تتحول هي ايضا الى سموم ، الى فحيح ينبعث من جوف جهنم ذاتها..

وعادت السياط تضاعف من قسوتها الفاجرة وغضبها الاحمق ، لقد كادت الارض ان تخلو ، وبذلك تصبح البشرية كلها جماعة هائلة من اللاجئين .. الارض كلها اصبحت فلسطين .. واصبحت الكواكب الاخرى البلاد العربية .. كلها خيام ممزقة تحمل شعار (الاونرا) البشع .. وجوه كالجماجم ، واجسام كالهياكل ، وعيون خطف بريقها الرعب .. وكرام عصف بهم الذل والهوان ..

ولكن مكانا واحدا لا يزال يتدفق بالحياة فى الارض الملتهبة ، انه المكان الذي تقع فيه عبقر .. بؤرة الشر والشياطين والمردة ، تتصاعد منها فى جنون موسيقى السوينج .. والروك اندرول .. انهم يقيمون هنالك آخر حفلة احتفاء بالنهاية .. هذه النهاية التي سوف تتمثل فى آخر شخص كتب عليه ان يختفي وحده مع الباخرة فى بحر الجحيم .. فيه هو الملقى على السرير تحت السياط ..

وشدته الشياطين بحبال من الكهرباء الى اعمدة من الحديد الاحمر .. فى ذلك البلد النائي البعيد ، الذي ظل من اقوى معاقل الشر قبل ان يولد التاريخ .. وعلا الصراخ .. والتهب الاشعاع الذري فى السماء ، وجن الراقصون جنونا لا تعرف هل هو من سكر ، او هو من عذاب .. وقذف بالاشجار الى النيران الموقدة ايذانا بالنهاية ... ولكن النار كانت تلفح جسمه هو ، فيخيل اليه وهو مشدود بحبال الكهرباء الى الحديد

الاحمر ، ان شواظها نسيم عليل .. يا للنهاية العجيبة ! لقد اصبح كل شيء يحرق ما عدا النار !! انها وحدهـا النسيم العليل الباقي على الارض ، انها الشيء الوحيد الذي ما يزال يعرف الوداعة واللطف ...

وتنطلق رائحة الشواء لتنعش انوف الشياطين ، انها ولا شك رائحة النيران التي تشوى لتوضع على مائدة العشاء الاخير .. يا الهي ! انه يبدو ان الرائحة تزيد الابالسة جنونا وهم يهتـــزون ويرقصـــون ويصرخون ويلوحون بايديهم في الهواء المعطر برائحة الشواء المثيرة ..

ولكن رائحة الشواء المثيرة ليست رائحة نيران العشاء الاخير .. وانما هي رائحة منبعثة من مكـان قريب جدا منه .. انها تنبعث من جسمه هو المشدود بحبال الكهرباء الى الحديد المحمر المضطرم .

وعيل صبره ، فصاح باعلى ما يستطيع كأنـــه يتحدى صراخ الابالسة : الي بنيرانكم الحاميـــة ! افعلوا شيئا لاجل ان اتخلص من الارض الذاهبـــة ، والشمس الذرية ، وبشرية اللاجئين .. انني آخـر انسان تحتفل عبقر في شخصه بنهاية العالم ، نهايـة الهواء الطلق ، والتسلسل ، وعبقرية التفكير ، ونبـوغ الانسان المثالي الاعلى ، اقذفوني لاخفف من آلامــي بالتردى في الجحيم .

وفجأة تقمصته روح جبارة ، تلك الروح العنيدة التي يقتنصها الانسان من يأسه ، فشد نفسه شدا عنيفا تقطعت له الحبال ، وتداعى الحديد ، توقــف الرقص ، وجمدت الحركات البهلوانية ، وهمد الصراخ، وتطلعت اليه العيون الرخوة التي تثير الاشمئـزاز والتقزز في اقصى القلوب .

ساد سكون مطبق ، فأخذ يسعى بخطوات ثابتة نحو النار التي كان ينبعث منها نسيم عليل ... واخذ يتسلق سلما كأنه سباح يتسلق منصة للقفز ، في حمام سباحة ، وتوهجت عند قدميه النيران ، فرفع ذراعيه واهوى اليها في اطمئنان .. الى الرحمة .. الرحمة .. وعالم النسيان الوثير .. كما لو كانت يد خفية قد شنقت فجأة زوبعة عاتية .. فانمحى كل شيء ..

انها الرحمة ، رحمة نهاية العالم ، القى بنفسه اليها محموم ..



نهر « تفيس » في الناحية الشرقية من الاطلس الكبير



المسؤولية

للأستاذ عبد الكريم غلاب

تحدث الرئيس نهرو عن نظرية ماركس في احدى رسائله التي كتبها الى ابنته وهو سجين ، وقد الف منها كتابا ضخما نشره بعنوان « لمحات من تاريخ العالم » .

لفت نظري في حديث الرئيس الهندي تأييده لفكرة المسؤولية عند ماركس ، فقد قال ماركس : ان تبعة الاستغلال ليست واقعة على المستغل نفسه ، ولكنها على الطبقة المستغلة ، فالذي يستغل غيره من الناس لم يقترف اثما يستحق عليه المسبة لانه مجرد عضو في نظام فاسد .

وبدافع نهرو عن هذه النظرية ويحاول تطبيقها على النظام الاستعماري فيقول : « فالهند واقعة اليوم (والرسالة مكتوبة سنة 1933) تحت كابوس الاستعمار الانجليزي ، ونحن نقاوم هذا الاستعمار بكل ما في وسعنا ، ولكن الافراد الانجليز الذين زجت بهم الظروف في هذا النظام ، لا يستحقون اللوم لانهم مجرد مسامير صغيرة في آلة ضخمة لا يستطيعون تغييرها او تحريكها »

والحديث عن المسؤولية قديم قدم النظم الاجتماعية في العالم اهتمت بها الديانات كما اهتمت بها النظم السياسية والاجتماعية والقضائية ، والفلاسفة انفسهم تابعوا هذه النظرية بالبحث ، فليس بجديد اذن في تاريخ الفلسفة ولا في تاريخ النظم الاجتماعية البحث في طبيعة المسؤولية وتحديد الذين تقع عليهم تبعاتها .

والخلاف في الاديان وفي النظم الاجتماعية والقضائية ينحصر في هل تقع المسؤولية على الفرد او تقع على المجتمع : هل المسيء الى نفسه او الى غيره اساء بدافع منبعث من نفسه فهو اساس الشر ، او اساء بدافع من المجتمع والنظام الذي يعيش فيه ، فهو نفسه ضحية النظام ، ولم يكن له اي اختيار في ان يسيء او لا يسيء ، وعلى هذا الاساس تحدد المسؤولية.

فالذين يقولون بالدافع النفسي والشخصي يلقون المسؤولية على الفرد . والذين يقولون بان المجتمع هو الذي دفع الفرد الى الاساءة يلقون المسؤولية كلها على المجتمع وعلى النظام الذي يسير هذا المجتمع .

والاديان السماوية وفي مقدمتها الاسلام تقيم الوزن الاكبر للدافع النفسي والشخصي ، فالنفس امارة بالسوء ، والشخص الذي ينتحر لاي دافع كان يعاقب في الآخرة ما دام العدل لا يستطيع أن يلحقه في الدنيا ، واليد التي تمتد الى السرقة ــ ولو بدافع الجوع وفساد النظام والفقر ــ تقطع ، والقاتل يقتل بقطع النظر عن اسباب الجريمة ، وفي صلاح النفس صلاح للمجتمع كما تذهب الفلسفة الاسلامية .

ومعظم النظم الاجتماعية القديمة تقيم الوزن للمسؤولية الفردية ، وان كانت لا تخلي المجتمع من مسؤوليته ، ولعل ذلك راجع الى نوع الحياة التي كانت تحياها المجتمعات ، فعمل الفرد كان هو الاساس في كل عمل : هو الذي يفكر للعمل وهو الذي يختار اساليبه وهو الذي ينفذ الخطة ، ونتيجة لذلك هو الذي يتحمل مسؤولية عمله ، وللمجتمع بعد ذلك ما يعود من عمله حسنا كان او سيئا .

ولكن الحياة قد تطورت وظهرت في افقها طاقات جديدة لا قبل للفرد باستغلالها : اكتشفت الطاقة البخارية واكتشفت الآلة ، وظهر بوضوح ان الفرد اندمج في المجتمع ، وان عمله كفرد اصبح لا قيمة له بالنسبة لعمله كعضو في المجتمع ، وهكذا تكونت مجتمعات جديدة قوامها توزيع المسؤولية التي كان يتحملها فرد على هيئة ــ تصغر او تكبر ــ بدون تحديد

وقد كان الفرق بين النظامين واضحا بحيث يمكن ان يعتبر نظام المسؤولية الموزعة هو المظهر العام للنهضة الحديثة .

وادى ذلك الى ظهور فلسفة جديدة تفسر الاحداث تفسيرا يتفق وطبيعة الحياة الجديدة . فالفرد كائن مادي لا قيمة له الا بمقدار ما يكون من مجتمع . كالمسمار لا قيمة له بمفرده بل هو اداة عاطلة لا اهمية لها ما لم تكن ضمن مجموعة من الادوات الاخرى تكون من مجموعها الالآلة التي تنتج ، فتبنى ... او تهدم ...

ومن هنا انعدمت المسؤولية الفردية واصبحت نتيجة العمل ـ حسنا كان او سيئا ـ لا يتحملها مرتكبه . ولكنها تقع على الطبقة التي يعيش ضمنها وعلى النظام الذي يعيش فيه .

وهذه النظرة الى الفرد نظرة مادية تتفق ، ولا شك، مع الفلسفة المادية التي يتزعمها ماركس وفلاسفة المذهب المادي . وتتفق مع تفسيرهم للحاضر كما تتفق مع تفسيرهم للتاريخ الذي هو في نظرهم مجموعة من الانظمة والطبقات ، تهزم احداها الاخرى هزيمة طبيعية لا حيلة للانسان في تغييرها او صنعها .

وهذه النظرة المادية للفرد تبالغ فتسلب الانسان كل مميزاته الانسانية ، فلا فكر ولا ارادة ، لا عاطفة ولا شعور ، لا قلب ولا روح ، بل هو اداة صغيرة ضمن اداة كبيرة ، قد يصل اجزاء الاداة الكبرى . ولكنه لا يستطيع ان يغيرها او يسيرها او يوجهها . انه مسمار صغير ، لا اقل ولا اكثر . في الاداة الكبرى التي هي المجتمع او الطبقة او النظام . والتاريخ هو الكفيل بتسيير هذا النظام او تغييره .

وكم يصعب على المفكر ان يومن بهذا الراي وهو يرى ان النظام نفسه وليد الفرد ، وان الانقلابات الكبرى في المجتمعات انما هي بنت فكرة انبعثت من نفس شخص في هداة الليل او سكون السحر ، وان الطبقة الجديدة التي خلفت الطبقة القديمة انما هي منبعثة من كبد حرى او قلب فوار او عاطفة متاججة لم ترض ضيما ولم تصبر على مكروه ، فكان السخط الفردي ، وكان الجار بالشكوى الى الاقربين والمشابهين ، وكان تضامن ذوي القربى ممن جمعتهم المظالم ، ثم كانت الطبقة الجديدة التي خلفت الطبقة القديمة ... وهكذا يستمر الوضع الى ان يتعفن فيتمثل نفس الدور ، من القلب والعاطفة ، الى الفكر ، الى العمل على تغيير الاوضاع الى وضع جديد او مجتمع جديد او طبقة جديدة .

واذن فالذين لا يجردون الفرد من هذه الامكانيات لا يستطيعون مطلقا ان يومنوا بانه آلة ـ مجرد آلة ، صغيرة او مسمار تافه ـ في هيكل عام ، بل هو اداة فعالة يستطيع ان يغير اوضاعا بل ان يصنع تاريخا .. على شرط الا تقهره القوة والا تمنع عنه النور ، نور الحياة الذي يتيح لقلبه ان ينبض ، ولعاطفته ان تتاجج، ولعقله ان ينفعل ، وللسانه ان يتحدث ، وليده ان تمتد بالعمل ، فاذا ما تحقق له كل ذلك فانه يستطيع ان يتحمل المسؤولية كاملة : ان احسن كان على الناس وعلى التاريخ ان يسجلوا احسانه بمداد الشكر ، وان اساء كان على الناس وعلى التاريخ ان يلعنوه ويجهروا باللعنة ، ولو كان النظام الذي يعيش فيه فاسدا .

ونعود ـ بعد هذا الايضاح ـ الى كلمة الرئيس نهرو الذي كان ـ وهو يقاوم الاستعمار الانجليزي ـ يعتقد ان الافراد الانجليز الذين زجت بهم الظروف في هذا النظام لا يستحقون اللوم لانهم مجرد مسامير صغيرة في آلة ضخمة لا يستطيعون تغييرها او تحريكها نعود فنقول : ان الافراد الانجليز وكل فرد يخدم نظاما فاسدا كان يستطيع ان يغير النظام وان يقهره ، فلم تكن الظروف لتقهر فكر الانسانولا عاطفته ، ولم يكن النظام ليقف في وجه ذوي الافكار النيرة ، فمسمار ذو عاطفة او عقل يستطيع ان ينحرف فيوقف الآلة عن الدوران ... وتمرد جندي انجليزي او فرنسي على اطلاق النار على بريء هندي او جزائري كفيل بتغيير نظام الاستعمار او ايقاف حرب استعمارية ، وتمرد اقطاعي واحد على نظام الاقطاعية في الهند او مصر كان كفيلا بالقضاء على النظام نفسه ، وعلى ذلك فان الافراد الذين يسيرون نظاما فاسدا ـ مهما كان دورهم تافها في تسيير هذا النظام ـ يتحملون مسؤولية كبرى لا في الاضرار والاخطار التي تنتج عن عملهم فحسب ، ولكن في بقاء النظام الفاسد وفي استمرار الطبقة الفاسدة . ان مسؤوليتهم ليست مسؤولية خلقية فحسب ، ولكنها مسؤولية عملية ايضا فمن عملهم تنبعث الشرور والآثام ... ومن عملهم يتغير سير التاريخ وتسير الآلة الضخمة في طريق الخير والازدهار .

شعراء تشابهت أسماؤهم

للأستاذ محمد بن تاويت



وما اكثر ما تتشابه الاسماء ، او يقع الناس فى اوهام منها ، او تتصحف فى الصحف ..

ومن هؤلاء ، الذين توهم الناس فيهم ، ثلاثة : هم ابن حبوس الفاسي ، وابن حيوس الدمشقي ، وابن حنون الاشبيلي .

اما ابن حبوس (بفتح الحاء وضم الباء المخففة) فهو ابو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس — مولى بني ابي العافية ؛ كان كما يقول ابن الابار فى (تكملته) : (عالما محققا وشاعرا مفلقا ، يتقدم ذلك اهل زمانه ، ويوقف على جودة شعره من ديوانه) .

ويقول فيه ابن عبد الملك فى « ذيله وتكملته » : « كان شاعرا مفلقا ، من جلة فحول الشعراء ، متفننا فى معارف سوى ذلك ، من كلام ونحو ولغة » .

وقال فيه المراكشي فى « معجبه » : « كانت طريقته فى الشعر، على طريقة محمد بن هانيء الاندلسي، فى قصد الالفاظ الرائعة ، والقعاقع المهولة ، وايثار التقعير ، الا ان محمد بن هانيء كان اجود منه طبعا ، واحلى مهيعا » .

ولما عبر عبد المومن الى الاندلس ، ونزل بجبل طارق « استدعى الشعراء ... وكان على بابه منهم طائفة اكثرهم مجيدون ، فدخلوا ، فكان اول من انشد ابو عبد الله محمد ابن حبوس ... فانشد فى ذلك اليوم قصيدة اجاد فيها ما اراد ، اولها :

بلغ الزمان بهديكم مــا امــلا
وتعلمت ايامــه ان تعــدلا
وبحسبه ان كان شيئا قــابلا
وجد الهدايــة صورة فتشكلا

ثم قال المراكشي : ولابن حبوس هذا قصائد كثيرة ، وكان حظيا عنده (يعني عبد المومن) نال فى ايامه ثروة ، وكذلك فى ايام ابنه ، ابي يعقوب ، وكان فى دولة لمتونة (المرابطين) مقدما فى الشعراء ، حتى نقلت اليهم عنه حماقات ، فهرب الى الاندلس ، ولم يزل بها مستخفيا ، يتنقل من بلد الى بلد ، حتى انتقلت الدولة المرابطية ، قرا على ابنه عبد الله من خط ابيه هــذه الحكاية ، قال :

دخلت مدينة « شلب » ، من بلاد الاندلس ، ولي يوم دخلتها ثلاثة ايام ، لم اطعم فيها شيئا ، فسألت عمن يقصد اليه فيها ، فدلني بعض اهلها على رجل ، يعرف بابن المح ، فعمدت الى بعض الوراقين ، فسألته سحاءة ودواة ، فاعطانيهما ، فكتبت ابياتا امتدحه بها ؛ وقصدت داره فاذا هو فى الدهليز ، فسلمت عليــه ، فرحب بي ورد علي احسن رد ، وتلقاني احسن لقاء ، وقال : احسبك غريبا ! قلت : نعم . فقال لي : من اي طبقات الناس انت ؟ فاخبرته اني من اهل الادب ، من الشعراء ، ثم انشدته الابيات التي قلت ، فوقعت منه احسن موقع ، فادخلني الى منزله ، وقدم الي الطعام ، وجعل يحدثني ، فما رايت احسن محاضرة منه ، فلما آن الانصراف ، خرج ثم عاد ومعه عبدان ، يحملان صندوقا ، حتى وضعه بين يدي ، ففتحه فاخرج منه سبع مائة دينار مرابطية ، فدفعها الي وقال : هذه لك .

ثم دفع الي صرة ، فيها اربعون مثقالا (دينار) وقال هذه من عندي . فتعجبت من كلامه واشكل علي جدا ، وسألته : من اين كانت هذه لي ؟ فقال : ساحدثك ، اني اوقفت ارضا من جملة مالي للشعراء ، غلتها في كل سنة مائة دينار ، ومنذ سبع سنين ، لم يأتني احد ، لتوالي الفتن التي دهمت البلاد ، فاجتمع هذا المال ، حتى سبق اليك . واما هذا فمن حر مالي .

هذا هو ابن حبوس ، الذي كان حظيا عند المرابطين فالموحدين ، وهذه صفاته العلمية ، ونعوته الشعرية ، وقد جمع له بعض اصحابه المختصين به – كما يقول ابن عبد الملك – ما علق بحفظه من شعر او احضره ذكره ، الى اواخر ربيعي عام 560 ، فناهز ذلك خمس مائة وستة آلاف بيت ، وقد وقف منه ابن عبد الملك على مجلد وسط . ومثله يذكره عباس بن ابراهيم المراكشي ، الا انه – كما يبدو – نقل نص ابن عبد المالك ، ولم ينسبه له .. وحبذا لو كان هذا المجلد حتى الآن حيا يرزق ..

لقد ولد ابن حبوس ، سنة 500 ، وتوفي سنة 570 ، واستمر شاعرا لدولة الموحدين ، على عهد عبد المؤمن وابنه يوسف ، وسجل بشعره كثيرا من مواقفهم فاذا كان ما حفظ له من الشعر قبل وفاته ، بعشر سنوات ، او بثلاث عشرة – كما في بعض الروايات – قد وصل الى ذلك الحد من الكثرة ، فاين شعره الذي قاله فيما بعد ، وقد ابتسمت له الدنيا ، وتفتقت له عن مكانة استعادها، وحظوة صال فيها ؟ هذا – وذاك – لما يزل رهن البحث ، الذي علمنا ان الاستاذ الوزير السيد محمد الفاسي ، مهتم به ، وقد جمع كمية وافرة من شعره . اما ما هو بيدنا منه ، حتى الآن فبعض ابيات ، ومقطوعات من شعره ، وهي تؤكد ما قاله فيه صاحب المعجب ، ويظهر عليها اثر ثقافته الكلامية والعقلية ، بوجه عام .. وخير مثال لذلك، هذه المقطوعة من قصيدة قالها في عبد المؤمن ، وقد اصطحبه معه الى رباط الفتح ، فقال فيها :

الا ايهذا البحر جاورك البحر
وخيم ارجائك النفع والضر

وجاش على امواجك الحلم والحجا
وفاض على اعطافك النهي والامر

وسال عليك البر خيلا كماتها
اذا حاولت غزوا فقد وجب النصر

وليس اشتراك اللفظ يوجب مدحة
ولكنه ان وافق الخبر الخبر

فمالك من وصف تشاركه به
سوى خدع في النطق زخرفها الشعر

ومالك من معنى يشير الى الذي
تفوه به الا السلاطة والغدر

فانت خديم البدر والشمس عنوة
وتخدمه في امره الشمس والبدر

ويحويك شطر الارض تعمر بعضه
وفي صدره الافلاك والبحر والبر

الى ان يقول :

غدت نقطة في ضمن دائرة الدنا
فلا افق ينثاني عليها ولا قطر

فمن حيث ما رمت الجوانب نلتها
بيسر ولا كد عليك ولا عسر

فذلك اعماق الجسوم وطولها
وان بعدت يعنى بامدادها السحر

يفوح تراب الارض من طيب نشره
ففي معطس الايام من طيبها نشر

الى آخر القصيدة ، التي تزخر بهذه التهويلات ، وتبدو فيها – واضحة – هذه الثقافات العقلية ، من منطق وهندسة وغيرهما . وقد كان المغرب على ذلك العهد بدا يتنفس بهذه العلوم ، التي ازدهرت على عهد المنصور ، فمن بعده ...

*****

واما ابن حيوس (بفتح الحاء وتشديد الياء المضمومة) فهو ابو الفتيان ، مصطفى الدولة ، محمد ابن سلطان ، بن محمد ابن حيوس الدمشقي ، ولد سنة 349 ، وتوفي سنة 473 ، وقد ترجم له ابن خلكان ، في « وفياته » ، ترجمة وافية . وطبع ديوانه اخيرا فخرج في مجلدين كبيرين ، وكان هذا الشاعر مداحا – كابن حبوس – للامراء والكبراء ، وشعره في هذا الباب ، تبدو عليه مسحة من تلك التهويلات ، ولو انها لا تصل في ذلك الى حد ابن حبوس . فمن شعره ، هذه الابيات التي قالها من قصيدة ، مدح بها ، قائد الحاكم بامر الله ، وابنه الظاهر ، ثم المستنصر بن الظاهر ، هذا القائد ، هو امير الجيوش ، ختن الدزبري التركي ، حاكم الشام . واليكم الابيات :

ملك اذا ما الجود غب هموله
فلديه جود ماله اغباب
سهلت خلائقه لباغي نيله
لكنهن على العدو صعاب
تمضي الوسائل في ذراه لطالب الـ
ـجدوى وتقضى عنده الآراب
بشر يبشر من يروم نواله
والبشر من قبل الثواب ثواب
ترجى مواهبه ويخشى خوفه
وله بالباب الورى الباب
متباين الاوصاف : اما عرضه
فحمى ، واما ماله فنهاب
غدت الاماني والمنون بكفه
فالاري فيها بالسمام يشاب
يقني ويفني وعده ووعيده
هذا جنى عذب وذاك عذاب
واذا يهاب الخطب عند حلوله
فبه لدفع النائبات يهاب
سال عن البيض الحسان فما له
الا هوى البيض القواضب داب
ليث اظافره الاسنة والقنا
عريسه وله الظبي انياب
ان بان بان الموت في نظراته
او غاب فالسمر الشواجر غاب
خرق اذا كتبت اليه كتيبة
مرقت فليس سوى السيوف جواب
واذا حمى الاصحاب نفس مملك
فبسيفه يستعصم الاصحاب
يغنى امير المومنين وسيفه
عمرت بلاد الله وهي خراب

الى آخر القصيدة الطويلة ، المليئة بالصنعة اللفظية والتهويلات ، التي تقرب — الى حد ما — من صنيع ابن حبوس الفاسي ..

**

واما (ابن حنون) (بفتح الحاء وضم النون المخففة ثم نون) فهو ابو العباس ، احمد بن حنون الاشبيلي ، معاصر ابن حبوس الفاسي ، ولا نعرف عن تاريخ ولادته ووفاته شيئا ، وكل ما نعرف عن تاريخه، انه اتهم بالقيام مع الثوار ، على يوسف بن عبد المومن ، ثم عفي عنه في ايام ابنه المنصور .. وقد ورد ذكره في الجزء الثاني من نفح الطب، كما ترجم له ابن سعيد ، في الجزء الاول الذي اخرجه ، من كتابه « المغرب في حلى المغرب » ، الدكتور شوقي ضف ، وقال : ان ابن سعيد ترجم له كذلك في « الرايات » كما ترجم له ابن فضل الله في « المسالك » — الجزء الحادي عشر — . ونص ابن سعيد ، على ان « صفوان » ، ذكره في كتابه « زاد المسافر » ، ونقل عنه ابياتا . منها هذه التي قالها في اشتر :

يا طلعة ابدت قبائح جمة
فالكل منها ان نظرت قبيح
ابعينك الشتراء عين ثرة
منها ترقرق دمعها المسفوح ؟
شترت فقلنا : زورق في لجة
مالت باحدى شقتيه الريح !
وكانما انسانها ملاحها
قد خاف من غرق فظل يميح

ومنها ما قاله في جميلة :

وبيضاء تحسبها درة
تذوب اذا ذكرت اوتكاد
تنمنم بالمسك كافورتي
محيى حوى الحسن طرا وزاد
فقلت وقد كان ما كان من
تخلل خيلانها بالفؤاد
اكل وصالك ذاك البياض
وبعض صدودك ذاك السواد ؟
فقالت : ابي كاتب للملوك
دنوب اليه بحكم الوداد ...
نخاف اطلاعي على سره
فلم يعد ان رشني بالمداد

قال ابن سعيد : « وله موشحات مشهورة »
هذا نموذج من شعر ابن حنون ، وهو يدل على ذكاء ، اكثر مما يدل على شاعرية ، فاسلوبه في باب اساليب الشعراء ضعيف ، كما يبدو في هذه الابيات . ولهذا لم يعلق ابن سعيد على شعره — ما عدا موشحاته — بشيء ، وكل ما قال فيه انه « من بيوت اشبيلية واغنيائها » ..





هو النصر لا نثر لديك ولا شعر ... يترجم عن فيض يجيش به الصدر

دعوت اليه الشعر حتى اتهمته ... ودافعني عنه فما وسع العذر

وفتشت عن قلبي فادركت انه ... غريق ونشوان استبد به السكر

عهدت لساني منجدا ان دعوته ... لخطب فكيف اليوم يعقده الحصر ؟

اذا هبت البشرى على المرء بغتة ... تملكه من نشوة الفرح الذعر

ولكن نصرا قاد موكب عزه ... مليك جدير ان يتوجه الشعر

وتشدو به الاملاك في ملكوتها ... فيحكي صداها الجو والبر والبحر

وتسكبه في مسمع الدهر قصة ... مثالية المغزى روائعها بكر

ستستقبل الدنيا انتصارك حادثا ... وليدا على انغامه يرقص الدهر

ولن ينقص الروض البهيج نضارة ... اذا لم يغرد فوق ادواحه الطير

ولكن جلال الروض في شدو طيره ... وان ضاع فيه النشر وابتسم الزهر

وما حسن در لا يطوق غادة ... وما حسن جيد لا يطوقه در ؟

وما بك ـ يا مولاي ـ للشعر مطمح ... ولكن الى علياكم يطمح الشعر

رأى دوحة قدسية علوية ... ارومتها فخر ومنبتها طهر

فحن الى افيائها متطلعا ... الى المنتهى منها فاعجزه الامر

واثنى عليكم جاهدا وهو عالم ... بان مزاياكم يضيق بها الحصر

بك استرجعت هذي البلاد شبابها ... وعزتها من بعد ماضمها القبر

اذا ذكر الايمان بين دعاته ... ففيكم مزاياه ومنبعه الثر

تركت رجال الدين في خلواتهم ... ثقالا بما توحي به الكتب الصفر

وطرت الى العليا بايمان عاهل ... يلذ له في الدين مركبه الوعر

وحلقت يا صقر الفداء فلم يعد ... يقام لذي قدر تحديته قدر !

وما صرخات البوم وهي جواثم ... بنافعة يوما اذا صرصر الصقر

جهادك ينسي طارقا وابن نافع ... ويضفي عليه المجد ايامك الغر

اذا افتخر الابطال بالسيف والقنا ... تكفل بالنصر المبين لك الفكر

كانك سيف في يد الله قاطع ... اذا ابرقت ومضاته اندحر الشر

نفوك وظنوا ان نفيك حادث ... سيسلوه هذا الشعب اذ قضى الامر

وقفت وكان الناس حولك قعدا   فهبوا كان الشعب روعه الحشر
وهبوا اسودا ضاريات كانها   صواعق تلقيها السماء لها زار
اذا غضبت جنت ودوى زئيرها   وان جرحت فالموت او يدرك الثار
لها كل يوم فى عدوك جولة   وفى كل ركن مأتم خلفه سر
نفوك ولم يدروا بانك هاهنا   مليك اسود كان يمسكها الاسر
وانك مولاها وانسان عينها   ومشعلها الهادي وقائدها البر
فشلت يد مست قداسة عرشكم   وحرك مسعاها الخيانة والغدر
وجاءوا بماجور توالت خطوبه   وايامه سودا فانكره القصر
وادبر فى عمر الزهور فلم يفض   لتشييعه دمع ولم يغله سعر
وهب بنو الريف الاشاوس هبة   تزلزل منها الريف والاطلس الحر
وثارت براكين الجزائر فاصطلى   بنيرانها الباغي واوهنه الذعر
واصبح بين الاسد شر فريسة   اذا عضه ناب تناوبه ظفر
برغم انوف الغاصبين تكللت   مطامحك الكبرى وعانقك النصر
ودارت على الباغي دوائر بغيه   وادرك ان الظلم مرتعه مر
وان بلادا تحتمى بابن يوسف   جدير بها ان لا يقيدها اسر
وعدت لشعب ظامىء متلهف   فعاد اليه امنه وانتهى الحجر
وخف الى لقياك بحرا تدافعت   مواكبه العظمى وراياته الحمر
فما ابصرت عيني ليوثا تعانقت   ولا شهدت بحرا يحف به بحر
ولم تر عيني قبل عيدك ضاحكا   على وجهه نور وفى ثغره بشر
ولم ار وجها مثل وجهك مشرقا   ولم ار ثغرا مثل ثغرك يفتر
تراقصت بنو الدنيا وقد رقصت بهم   وزغردت الافواه وانتثر الزهر
وقال بنو الدنيا وقد رقصت بهم   على مجد الاستقلال وانتابها سكر .
لمن ترقص الدنيا ؟ فقالت : لعاهل   ابي يباهيكم به المغرب الحر

***

اذا كانت الايام نحوك اذ نبت   عنادا ومس الشعب من بعدك الضر
فقد كفرت عما جنته سفاهة   وجاء اليك اليوم يعتذر الدهر
وما ضاق حلم واسع عن خطيئة   اذا طابت الاخلاق واتسع الصدر
فقدها الى الشط الامين سفينة   تقاذفها فى سيرها المد والجزر
وانزل على هذي القلوب سكينة   يرفرف عليها الطهر والحب والخير
فانت لها الاسى اذا عز داؤها   وانت لها الهادي اذا افتقد البدر
وقدنا بحزم لا يلين فانما   صلاح الرعايا الحاكم الحازم الحر
وارجع الى هذا الجنوب شماله   فلا نصر ان لم يرتجع ذلك الشطر
وطوبى لشعب عاش تحت لوائكم   طليق الايادي ملء ابراده الفخر
عليك سلام الله ما خفقت بك الـ   ـقلوب وما غنى بامجادك الشعر
وما سمع التاريخ ذكرك فانحنى   لاسمك اجلالا . وطال لك العمر

العروبة والاسلام

للدكتور : المهدي المنجرة

هذا فصل مترجم بتصرف عن الاطروحة التي تقدم بها السيد المهدي المنجرة الى قسم (العلاقات الدولية) بكلية الحقوق بجامعة لندن ، ونال بها درجة دكتور في القانون .

وموضوع الاطروحة ((الوحدة العربية)) وهي تقع في اكثر من خمسمائة صفحة ، قضى الدكتور المنجرة في اعدادها نحوا من ثلاث سنوات .

والاطروحة مكتوبة باللغة الانجليزية ، ونحن اذ نقدم منها الفصل الاول الذي هو بمثابة مقدمة لها ، نرجو ان يوفق الدكتور الى ترجمتها كاملة الى اللغة العربية ، ليكون بذلك قد وضع لبنة من اللبنات الاساسية في صرح الثقافة المغربية التي ننشدها جميعا ونعمل من اجلها .

دعوة الحق



يمتد العالم العربي جغرافيا من شاطىء الاطلسي الى الخليج الفارسي ، ويقدر سكانه بنحو ثمانين مليونا ، 90 ٪ منهم مسلمون .

ويصطلح على تسمية الجزء الرئيسي من هذه المنطقة بالشرق الادنى او الاوسط ، ومكانة المنطقة في التاريخ البشري والمدنية ، من الوضوح ، بحيث لا تتطلب اية اشارة هنا ، فقد عرفت بانها مهد الحضارات ، وكانت ارضا خصبة لقيام ديانات عالمية ، وقد تركت هذه الميزة الاخيرة فيها اثرا بينا ، اذ لا يزال الشعور الديني العميق يسود الى اليوم منطقة الشرق الاوسط ، ولا يزال ذلك يتجلى بوضوح في مواقف السكان ، وفي شتى مظاهر حياتهم .

***

ومن الصعب ، ان لم يكن من المستحيل فهم « الشؤون العربية » بدون اعتبار اثر الاسلام كدين ، وكفلسفة ، وكحضارة ، وكاسلوب في الحياة ، ذلك لان الحركة العربية ظاهرة عربية ، والعرب في غالبيتهم مسلمون ، (واسس الحركة العربية تمكن في الاخلاص الشخصي للفرد الذي يطبع الحركة بضعفه او بقوته) وتكمن ايضا في القوة الجماعية التي تتولد من تفاعل هذا الاخلاص ، وفي هذه النقطة بالخصوص يمكن للاسلام كقوى روحية واجتماعية وسياسية ، ان يساعدنا في فهم الحركة العربية .

واذا نحن قارنا الاسلام بالديانات الرئيسية الاخرى ، فاننا نجد ان الاسلام يهتم اكثر من اي شيء آخر ، بالايمان ، في حين تهتم اليهودية بالتاكيد على الامل ، كما تهتم المسيحية بالتاكيد على الاحسان .

والايمان في الاسلام ليس شيئا لاهوتيا او ميتا فيزيقيا ، بل هو النقطة الاساسية والمبدا الموجه ، فبينما يعتبر اتباع المسيحية دينهم كميراث ، ينظر المسلمون الى دينهم كحقيقة حية وكغذاء روحي حقيقي .

والمسلمون فوق هذا لا يمكنهم ان يفرقوا نظريا بين المسائل الروحية والزمنية كما يفعل المسيحيون ، لان الاسلام نظام تام ، فهو كل عضوي ، ويتجلى هذا في مظاهر التشريع الاسلامي ، وفي الحكم ، وفي مفهوم الدولة عند المسلمين .

ومصدر التشريع الاسلامي مقدس ، لان كل القوى او السلطات تستمد من الله ، فمنبع التشريع واصوله ومادته ، كل ذلك مقدس لانه عبارة عن (ضوابط) وردت في القرآن ، او ترتبت عن سيرة النبي محمد ، وانما يحتفظ الناس بحق تفسير الشريعة وشرح نصوصها ، على الا يتعدوا حدود المبادىء المقدسة .

واهمية التشريع الاسلامي كقوة موحدة ، تتجلى في انه عامل اساسي يصهر المجتمع الاسلامي في جماعة ملتحمة .

وقد كانت الشريعة او (القانون الاسلامي) هي الميدان الذي اسهم فيه العرب بقسط وافر في الحضارة الاسلامية .

وللاسلام مفهومه الخاص من « الامة » لان هذا الاصطلاح يعطي في القرآن معنى (جماعة) اكثر من اي شيء آخر ، وذلك لان الاسلام يؤكد على الاخوة والغاية المشتركة لكل المؤمنين : (انما المؤمنون اخوة) فكل المسلمين ينتمون لنفس الامة التي هي الامة المحمدية .

ومنذ ان وجدت هذه « الامة » او هذه «الجماعة» تحتم على كل « مسلم » ان يلتحق بها وان يعمل معها على تحقيق مشيئة الله في الارض .

وباختصار ، فان الاسلام لا يعترف بالحدود الجغرافية ولا التاريخية ، وانما يعترف بالفرق الواضح العميق بين المسلمين وغير المسلمين ، بين دار الاسلام ودار الحرب .

والغرض الاساسي من الحياة عند « المسلم » هو خدمة الله ، كما ان الغاية من الحكومة الاسلامية هي ان تهيىء الاسباب للمسلمين لاداء هذه الخدمة ويلخص الماوردي ــ المشرع الاسلامي الكبير ــ واجب الخلافة في الدفاع عن الدين ، وادارة الدولة .

والقرآن مليء بالتحذير للذين يحاولون المس بوحدة الامة : « ولا تكونوا كالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون » « ولا تكونوا كالذين تفرقوا من بعد ما جاءهم البينات ، واولئك لهم عذاب عظيم » « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا »

ويجدر بنا قبل الاقدام على دراسة الحركة العربية ان نقرر وضعية « العربي » ازاء « المسلم » فبينما نرى ان اصطلاح « مسلم » يمكن فهمه بكامل السهولة ، نجد ان اصطلاح « عربي » لا يتأتى فهمه بنفس السهولة السابقة .

فمن الممكن تعريف «المسلم» دون حاجة الى الرجوع الى علاقات عنصرية اوثقافية او لغوية ، في حين ان تعريف « عربي » يجب ان تدخل فيه هذه الاعتبارات المتقدمة وان يضاف اليها اعتبار الفترة التاريخية ايضا ، وذلك لان اصطلاح « عربي » تعرض مفهومه لتطورات كثيرة خلال التاريخ كما سيبدو لنا بعد حين .

واذا كان المؤرخون الغربيون يقسمون تاريخ العرب الى ثلاث مراحل : مرحلة حمير وسبأ (من 800 قبل الميلاد الى 500 بعد الميلاد) وفترة الجاهلية او قبل الاسلام (من 500 الى 622 بعد الميلاد) والفترة الاسلامية (من 622 بعد الميلاد الى اليوم) فانالمؤرخين العرب يقسمون التاريخ العربي الى مرحلتين : الجاهلية، والاسلام ، بل ان حتى هذا التقسيم لا يقف عنده الا المثقفون ، اما الغالبية العظمى من الشعب العربي ، فانها تتجاهل فترة ما قبل الاسلام ، ولا تكاد تعدها جزءا من الميراث ، شاعرة ان الفترة « الحق » من التاريخ العربي تبدأ مع النبي محمد ، فالتاريخ العربي ، والتاريخ الاسلامي ، بالنسبة للعربي العادي ، يبدآن معا من نقطة واحدة ، هي ظهور الاسلام .

على ان للعرب وضعية خاصة في الاسلام ، ويرجع الفضل في ذلك الى ان النبي كان عربيا ، وان القرآن عربي . ومكانة النبي محمد كزعيم عربي مسلم ، غير قابلة للجدال ، فالركن الاول في الاسلام هو الشهادة التي تتالف من جملتين : (لا اله الا الله ، محمد رسول الله) ومحمد كشخص ، يسود تاريخ الاسلام والعروبة معا ، وقد فهم الغربيون هذا الواقع ، لدرجة انهم يستعملون اصطلاح « المحمدية » كمرادف للاسلام .

ودور محمد الروحي والادبي يتجلى في مجموعة اقواله ، او احاديثه ، التي هي العصر الثاني الهام في الشريعة الاسلامية ، والمسلمون يعتبرون السنة والسيرة كمثال ، وكمثل اعلى .

واقدم كتاب عربي واقدسه بالنسبة لكل « المسلمين » هو القرآن ، وهذه حقيقة يؤكدها « العرب » الذين يستندون الى الآيات القرآنية لتاكيد عروبة الكتاب ، واثر القرآن في الادب العربي كبير (ويمكن تقديره حينما ندرك ان له الفضل في كون لهجات الشعوب العربية لم تستطع ان تتطور الى لغات قائمة بذاتها ، كما كان الحال بالنسبة للغات الرومانية) ولغة الحضارة العربية والمدنية الاسلامية هي لغة القرآن ، ومساهمة العرب في الحضارة الاسلامية ، هي الى حد بعيد ، مساهمة لغوية ، وقد قال البروفيسور (جيب) في هذا الصدد : « ان اللون العربي الذي التصق بالاسلام ، لم يات في غالبيته من خلال التاثير الاجتماعي المباشر للوسط العربي القديم ، او للعرب الذين اعتنقوا الاسلام ، اكثر مما اتى من القرآن العربي ، ومن التحيز الثقافي الذي اظهره هذا نحو الحضارة الاسلامية الناشئة) .

والقرآن – بعد ذلك – هو المرجع الاخير فيما يخص اللغة العربية وقواعدها ، وقراءته والالمام به ، ضرورة بالنسبة لكل من يريد تعلم العربية ، وهذا شيء جدير بالاهتمام ، لان اتجاهات القومية العربية ، تؤكد على ان اللغة العربية حجر اساسي للوحدة العربية .

والعربية كلغة لها قيمة مقدسة عند جميع المسلمين ، اما مساهمة العرب الاخرى في الحضارة الاسلامية ، فانها تتجلى في خدمة التشريع الاسلامي ، ولهذه المساهمة نتائج بعيدة المدى ، في الميدانين : الثقافي والاجتماعي ، وهناك محاولة تفسر بمقتضاها مساهمة العرب في الحضارة الاسلامية بانها دينية بحت والنظم والوسائل التي اوجدها العرب كانت منذ البداية متصلة بالاسلام باعتباره مدنية ، وهذا ما يجعل من الصعوبة بمكان ، وضع خط فاصل بين الحضارة الاسلامية والحضارة العربية ، فان العرب لم يفعلوا كل شيء في الحضارة الاسلامية ، كما ان الاسلام ليس دينا « عربيا » ولو ان بعض الكتاب العرب في القرون الوسطى ، ادعوا ان « ديننا ودولتنا عربيان توامان » ويبقى الواقع ، وهو ان « العربي » فخور بالاسلام كنظام للحكم .

* *

وجدير بنا قبل ان نحاول تحديد علاقة « الحضارة العربية » « بالمدنية الاسلامية » ان نلقي نظرة على المراحل التاريخية التي قطعها اصطلاح « عربي » .

فقبل الاسلام كانت لفظة « عربي » تعني « اعرابي » او اي ساكن في شبه الجزيرة العربية ، وظل هذا المفهوم سائدا حتى العهد الاموي (661 – 751 بعد الميلاد) حينما فتح العرب مناطق واسعة خارج شبه الجزيرة ، وكونوا ما يمكن ان تسميه بارستقراطية عسكرية حاكمة ، وطوال الحكم الاموي كان هناك نزاع مستمر بين العرب وغير العرب ، وقد قال الاستاذ (حتى) في هذا الصدد : (لقد انتصرت العروبة بادىء الامر ، وليس المحمدية) ذلك ان قرنين انصرما قبل ان يبدا الناس في ممارسة الاسلام .

ومع ان الكتاب العرب قبلوا سياسة التفرقة التي اتبعها الامويون ، فهم يدعون ان هذا كان نصرا للاسلام، حيث ان « عروبة » الفاتحين كانت مختلفة عنها في المرحلة القبلية ، اي فيما قبل الاسلام .

لقد وجد العرب الذين قاموا بالفتوحات الاسلامية في روح الديانة الجديدة ما اعطاهم احساسا بالوحدة ، ومثلا يحاربون من اجله ، وكانت هذه الظاهرة من الناحيتين الادارية والعسكرية نصرا عربيا، لان السياسة قبل الدين .

ان النزاع بين العرب والموالي تجلى في الشعوبية، هذه الحركة التي كافحت في الحقيقة شعور التفوق في المسلمين المنحدرين من اصل عربي ، ولم تحتل هذه الحركة المقدمة الا في القرون الاخيرة من الحكم العباسي، وان كان دعاتها قد شاركوا في سقوط الدولة الاموية .

وظهر الشيعة بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان ، حينما انقسم المسلمون الى مؤيدين لعلي ، ومؤيدين لمعاوية ، وكان اغلب الشيعة من الفرس تحت قيادة زعماء من العرب . لقد ابتدات هذه الحركة بشكل سياسي ، ولكن ما دامت السياسة تختلط بالدين كما اسلفنا ، لم يكن بد من ان ياخذ الانقسام الشكل الذي اخذه ، فقد اعطى الفرس تاييدهم التام للشيعة ، لانهم

كانوا يعارضون سياسة التمييز التي اتبعها بيت معاوية. وهكذا اصبحت الحركة الشيعية التي كانت عربية في الاصل ، لا تكتفي بمعاداة الامويين ، بل اصبحت تعادي « العرب ».

ومع ظهور العباسيين في القسم الاخير من القرن الثامن الذي يمكن ان يعتبر نصرا لغير العرب ، يمكن ان نلاحظ التغيير الذي طرا على مفهوم « عربي »

« فعندما مزج الاسلام الفرس والسوريين والاقباط والبرابر بالعرب ، تهدم الجدار الذي كان يفصل بين « العرب » و « غير العرب » واحتلت الجنسية مكانا في المؤخرة ، واصبح اتباع محمد مهما اختلفت عناصرهم عربا ، واصبح « العربي » ذلك الفرد الذي يمارس الاسلام ويتكلم العربية ويكتبها ، بغض النظر عن روابطه العنصرية ، وهذا من الحقائق الهامة في تاريخ الحضارة الاسلامية » .

وعليه ، فان اول تغيير طرا على مفهوم كلمة « عربي » كان هو انتقاله من مفهوم عنصري الى مفهوم ديني، وفي هذه المرحلة اصبح مصطلح « مسلم » مرادفا لكلمة « عربي » . « واصبح كل من اعتنق الاسلام ، عربيا ضمنيا » .

وانتصار العباسيين الذي كان هو السبب في هذا التعريف ، حمل معه عنصرا ادى الى اندثاره الحتمي ، فقد تبين في عهد العباسيين ان « عالمية الاسلام » يتزعمها الفرس ، وهذا ادى الى احياء الشعور الفارسي الاقليمي ، الذي لم يمت قط ، والذي ظل حيا بفضل الحركة الشعوبية في الاوساط الادبية.

واذا كانت لفظا « مسلم » و « عربي » قد ترادفتا في وقت ما ، فمن الممكن اذن الحديث عن امبراطورية اسلامية بعد الامويين ، لا عن امبراطورية عربية ، اذ لم يحاول العباسيون ان يعطوا لانفسهم اي صفة اقليمية ، وذلك لانهم اقتنعوا بان الاسلام يقدم الوسائل الفريدة لتعايش سلمي مستمر ، في امبراطورية تجمع شعوبا متعادية ، بلغت العداوة بينها من القوة لدرجة لا تحدها اية قوة دينية او غيرها .

وفي اكثر من مجال ، يظهر ان الخصومات التي رافقت شرح العقيدة وظهور المذاهب ، كانت ستارا لحركة وطنية ثقافية .

وحينما بدات اللغة العربية تفقد احتكارها للثقافة الاسلامية، ظهرمفهوم آخر لكلمة «عربي»، فحوالي القرن العاشر لوحظ بعث قومي في فارس ، وبدات اللغة الفارسية تحتل مكانة اللغة العربية بالتدريج ، فاتم « فردوسي » وهو من طوس كتابة (شهنام) وجاءه بعده عمر الخيام الذي نظم رباعياته المشهورة باللغة الفارسية ، ومنذ ذلك الحين لم يعد لفظ « عربي » يرادف كلمة « مسلم » ومرد ذلك الى نشوء ثقافات مختلفة ، كانت بدورها نتيجة لسيادة لغات قومية ، كالفارسية مثلا ، واصبحت كلمة « عربي » تعني ذلك « المسلم » الذي يحتفظ للغة العربية بمكانتها .

وعلى حد قول الاستاذ « جيب » « كل هؤلاء كانوا عربا ، يعتبرون ان الحقيقة الاولى في التاريخ هي رسالة محمد ، ويذكرون ايام الامبراطورية ، كما انهم يعزون العربية وميراثها الثقافي ، ويعتبرونها ملكا خاصا لهم » .

وهكذا فان التطور الثاني لمصطلح « عربي » ادخل تمييزا لغويا على مفهومه الاسلامي .

ومن الجدير بالذكر انه بالرغم من تطور لغات اسلامية اخرى ، فقد ظلت العربية لعدة قرون ، بل حتى اليوم ، اللغة الاسلامية المفضلة ، ولا زال المسلمون الغير العرب يكتبون بالعربية في المواضيع المتعلقة بالديانة والتشريع وسنة النبي وسيرته الخ . . .

وبتعبير آخر فان المسلمين غير العرب اضافوا الى التراث العربي ، وكانوا يكونون في نفس الوقت ثقافة خاصة بهم في الميدان الادبي المحض ، ولهذه الاضافات طابع ديني ، ولهذا نجد ان التراث « العربي » اليوم هو « اسلامي » الى حد بعيد .

ويجب ان نلاحظ انه مع مرور الزمن اجتاز مصطلح « عربي » مرحلة التطور الثاني الذي ذكرنا ، فالاسلام قد اجتاز المرحلة « التكوينية » ويمكن القول بان الميراث الحضاري عند العرب اليوم هو ميراث من تلك المرحلة التي لم يكن فيها من الممكن تمييز « العربي » من « المسلم » .

وتلقى هذه الحقيقة الضوء على التداخل بين « العروبة » و « الاسلام » الذي لا زال ظاهرا الى اليوم. ومن المستحسن ان نوضح الفرق بين « الحضارة العربية » و « الحضارة الاسلامية » ، « فالحضارة

العربية » هي فكرة احدث من « الحضارة الاسلامية » فهي لم تظهر قبل ظهور القومية العربية في نهاية القرن التاسع عشر ، و « الحضارة الاسلامية » اكثر موضوعية من « الحضارة العربية » فاسلامك يقرره في غالب الاحيان مولدك ، اما ان تكون عربيا فهي مسألة اختيار ، انها مسألة شعور نحو الميراث .

وقد اخترنا في هذا التحليل استعمال تعبير « الثقافة العربية » والتفكير فيه كجزء مهم من « الحضارة الاسلامية » وان كان اكثر كتاب العرب المعاصرين يفضلون الكلام عن « حضارة عربية » ولا توجد من وجهة نظر انثولوجية اية « حضارة عربية » لان الفحوى العنصري « العربي » قد فقد في مرحلة مبكرة ، واضافات العرب كعنصر كانت محدودة ، ولم يستطيع البرفسور « ميلي » في كتابه « العلم العربي » ان يجد عند تحليله « للعلم العربي » من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر ، عالما واحدا من اصل عربي ، ومن كبار الفلاسفة ، لم يكن هناك الا عربي واحد هو الكندي ، وهو المعروف بفيلسوف العرب ، وقد كان غالبية علماء الدين والشريعة الاسلامية من اصل عربي ، بينما كان غالبية الرياضيين والفيزيائيين من اصل فارسي ، ويعلل ابن خلدون في مقدمته ضعف اضافة العرب النسبية الى الحضارة الاسلامية بانهم كانوا منهمكين في المسائل العسكرية والادارية ...

والتكلم عن « حضارة عربية » او عن « ثقافة عربية » داخل الحضارة الاسلامية ليست مسألة يمكن التحدث عنها في الوقت الحاضر ، وسيبني ذلك على التطورات القادمة ، وخاصة على الجهة التي سيتجه اليها العربي ، ولنكون اكثر دقة يمكن القول بان هذا سيعتمد على نتيجة النزاع الحالي للنموذج الغربي للوطنية العالمية اللادينية ، التي تحاول تركيز مطامحها حول الميراث الثقافي المحض .

وحتى هذا فان الحركتين ليستا من الوضوح بدرجة تجعلنا نطلب من العربي المسلم ان يختار موقفه.

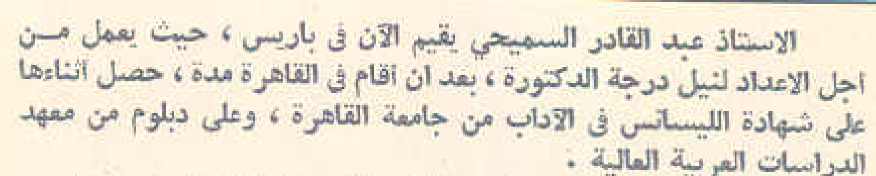
(فمع ان العروبة والاسلام هما شيئان مختلفان ، فان العربي يميل في تعريفها — بينه وبين نفسه على الاقل — فهو ينتسب لاي منهما حسبما دعت الضرورة، او بتعبير آخر هو عربي ومسلم في آن واحد) وهذا الولاء المزدوج — الذي يظنه البعض ولاءا واحدا يعقد اية دراسة عن الحركة العربية لان الانماط الاسلامية لا تفتأ تظهر في مماشي الوحدة العربية .

ويمكن ان ننهي هذا التحليل عن تطورات مصطلح « عربي » بالقول بانه وصل مرحلة يعتمد فيها مفهومه على « اللغة » وعلى فحوى وطني ، تلونه المفاهيم الجديدة للقومية التي تحاول ان تتجاهل الشريعة الاسلامية دون ان تنكرها تماما او تمحوها .

ودرجة نجاح المحاولة الاخيرة ستكون حاسمة بالنسبة للنتيجة السياسية للحركتين : « حركة الوحدة العربية » و « حركة الوحدة الاسلامية » .

خواطر عابرة عن :

اتجاهات الشعر الحديث

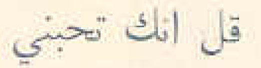


للأستاذ عبد القادر السميحي

الاستاذ عبد القادر السميحي يقيم الآن في باريس ، حيث يعمل من اجل الاعداد لنيل درجة الدكتورة ، بعد ان اقام في القاهرة مدة ، حصل اثناءها على شهادة الليسانس في الآداب من جامعة القاهرة ، وعلى دبلوم من معهد الدراسات العربية العالية .

وقد عمل الاستاذ السميحي مدة بدار الكتب المصرية، قبل ان يلتحق بباريس ونحن نتمنى للاستاذ مقاما طيبا في باريس ، كما نرجو له التوفيق في مهمته ، ليعود الى ارض الوطن .

دعوة الحق



قل انك تحبني

في ذلك المساء
من الربيع
وقلبي دافيء
بالحنين
وبقايا الوان
موردة تهيم
متعانقة والمغيب
كالمحبين ..
ورفيف اجنحة
يلين
اذ يلامسها الدفء
فتستكين ...
وشذى الخمائل
ينسم بالعبير
في ذلك المساء
من الربيع
وقلبي دافيء بالحنين
مثل احلام الصغار
ليلة العيد ..
(وجئت الى
وليس معك غير الحب (1))
في ذلك المساء
من الربيع
وتحابينا
كما لم يتحاب احد من قبل
منذ ذلك المساء
من الربيع
قل انك تحبني
تحبني ..
ايمكن ان ينسى
ذلك المساء
من الربيع ؟
ايمكن ؟ ..
ايمكن ان تختنق الكلمات
بدفء الدموع ؟ ..
ايمكن ؟
فقل انك تحبني
تحبني
كيوم حبنا
في ذلك المساء
من الربيع ..

عبد القادر السميحي
من ديوان « الاغنيات العشر »

(1) الفقرة المعلمة بقوسين ، مقتبسة من اغنية (لكاروزو) .

يتعين علي ابتداء ، ان ابين ، ان ما تمثله هذه الغنائية الدافئة (قل انك تحبني) من عواطف ، ليس بالضرورة ناشئا عن واقعية معاشة ، مستمدة من تجربة انفعالية عرت منشئها ، بقدر ما هي عواطف تتجاوز التجربة الفردية ، الى مجال الانسانية . وان كان من الطبيعي ، ان يختلج بها قلبي في يوم ما ، كاختلاج قلوبكم بها ، وقلوب اناس كثيرين ، ما دامت هناك حياة انسانية قائمة ، وقلب ينبض ، وشعر وشاعر يعيش الحياة في عمق ، ليوفر للنفس الانسانية كل احتياجاتها الوجدانية ، ويردد على نايه ارنان القلوب .

فاذا ما تضمن شعر ما ، شيئا من نفس الشاعر ، من تجاربه الدفينة البادية فيما وراء اللاشعور ، ثم تضمن حظا من الانسانية العامة . اذا ما نجح الانسان الشاعر في ذلك ، فعلينا ان نحييه ، ان نشد على يديه بتحيات المودة ، وان نضم الصدر على كلماته ، لان الاديب كما يقول (ميخائيل نعيمة) : (لا يستطيع الا ان يعبر عن جانب من حياة مجتمعه اذ هو يعبر عن جانب من نفسه .. ثم ابراز الشخصية الانسانية بوصفها محورا للادب ، فكل ادب لا يعود الى الانسان ، ويمس الانسان في ضميره ، ليس ادبا) .

وليس شرطا ان يصدر الشعر عن الروح الانسانية العامة ، وان يلتزم الارتباط بهذا المضمون دائما ، لان هناك من الشعر ما هو قائم على الذاتية النابعة من معين الحياة الخاصة ، كما ان هناك ما هو موضوعي ، يتصف بالغيرية ، كالملاحم والشعر القصصي (BALLAD) وغيرهما .

وهذا الاتجاه الى رصد الحالات النفسية الانسانية ، والتعبير عن عواطفها واحلامها ، انما هو خاص بشعر (السونيت) الذي لا يلتزم فيه عرض الذات ، والمكبوتات النفسية ، بل يكفي في هذا الشعر ، ان يتمثل العواطف الانسانية العامة ، ويعيشها بامكانية تجاربه ، ويعبر عنها في صدق ، فيه اثارة موحية ، تخلق جوا من التجاوب المشترك ، حيث يمكن القول بان كل انسان يرى نفسه ، واحلامه ، وآماله ورغباته ، وانتصاراته في صور هذا الشعر ، ذلك ان الحالات الوجدانية العامة من حب وحزن وفرح ، يشعر بها كل انسان ، وليس هناك حالة يمكن القول بانها فردية صرفة ، لان الانسان (اي انسان) ليس قائما بذاته ، ومنفصلا عن الحياة الانسانية ، حتى في افراحه الخاصة به التي يودعها شعره ، انما يقصد بها عرض الذات ، ومشاركة الناس اياه ، وهو حينما عبر عن نفسه انما يقصد غيره ، وعلى ذلك هو يطبع شعره بما يضارع الحالات النفسية العامة ، وان لم يقصد لذلك ، فان شعوره لا يمكن ان يخرج عن مجال الانسانية بصورة عامة ، وان كان هذا الادب الذاتي ، لا بد ، وان يتميز بنوع ما من الصفات ، والمميزات التي تتسم بالاصالة الذاتية ، والتي يتميز بها شاعر عن آخر بالاضافة الى ما يرتبط به الشاعر من نظريات وفلسفة ، وافكار ، يلتزم بها في اعماله الادبية .

وهذه الغنائية الدافئة (قل انك تحبني) تمثل شعر (السونيت) في صورته الانطلاقية من شكلية (المدرسيين) .

وكان سكسبير الانسان العظيم ، ممن تجاهلوا الالتزام برتوب هذه القواعد التقريرية المتحجرة ، التي قيدت شعر (السونيت) .

كما نجد الشاعر (ورد سورث (Word Sworth) يكتب (سونيته) بالشعر المرسل ، ومن بعده (اليوت) في عصرنا الحديث .

وانه ، وان تكن حركة التجديد – بكل ما تنطوي عليه من طاقة الخلق ، الهادرة بدم الحياة – قد ذهبت بكل ما لا يحمل في ذاته عنصر الصلاحية للبقاء ، امام المستويات الفنية بمضامنها واشكالها ، الا انها ابقت على قيم اخر ، ظلت ثابتة ، امام حركة التجديد ، وذلك بفضل ما تنطوي عليه هذه القيم من حيوية قادرة على مواجهة الحياة ، بروح من الانفعال الحي ، والتجاوب مع الانسانية العامة .

وشعر مدرسة الجديد ، تقوم فنية الادب فيه على صور موحية ، ترى فيها الانسانية نفسها ، وطبيعتها . صور يتم عن طريقها التمثل الحي للادب . وكما يذكر (مخائل نعيمة) انه يجب (توثيق العلاقة بين الادب والحياة . وهذه العلاقة كانت مفقودة في الادب العربي ، وعلى الاخص طوال فترة انحطاطه ، ثم ابراز الشخصية الانسانية بوصفها محورا للادب ، فكل ادب لا يعود الى الانسان ، ويمس الانسان في ضميره ادبا) (1) .

---

1) من حديث ادلى به نعيمة في البرنامج الثاني لاذاعة القاهرة في التاسع من شهر يناير سنة 1958 ، والى مراسل جريدة المساء .

كما يقوم شعر مدرسة الجديد ، وتقوم دعائمه المذهبية على روعة الاخراج ، بكافة امكانيته من الاضواء، والظلال ، والاداء الفني الغني بكل ما هو جميل فى ذاته ، وصادق وبسيط ، فما الفن الا للبساطة ، بجانب التعبير عن شتى الحالات النفسية ، والفكرية ، والوجدانية ، فى مناحيها الانسانية ، وتسجيل حركة الانتصارات الاجتماعية ، والسياسية والثورية والوطنية ، والفنية ، والتجاوب معها ، والمساهمة فى دفعها الى الامام .

وثمت ايضا افراح الخلق الفني ، خلق كلمات تمور شرايينها بدفء الحياة ، والاعراض عن موات الالفاظ المحنطة فى بطون معاجم اللغة ، ما لم يكن لها قدرة على التمثل الحي للوجود مرة اخرى، كأن يكشف اديب بحسه اللغوي قيمة فنيتها الشعرية ، فينفخ فيها الروح ويخرجها للنور ، كمن يهب الحياة مرة اخرى .

ذلكم احبائي ! شعر مدرسة الجديد ، كل ما ثمت جمال .. وعطر .. والوان .. ونغم يسيل .. وقلب مسحور لانفاس بكل فتنة هنا ، وهناك ، يقظة تحت دفء اشعة الشمس ، او نائمة خلف الاستار المسبلة مفتون بكل هبة رخية من النسائم وشذى من الاشذاء ، يشعر كل شيء بوجوده .

وهو اذن موسيقية مرهفة الحس ، تتسمع وتلتقط كل تسبيحة مهموسة تحت جناح الفجر ، او دبيب نمل يجر ، او يدفع حبات بر لقوته ... وكل صوت مجلجل جليل ، او نغمة عذبة حنون من ارنان الطبيعة ، وعداة الصمت ، والاطياف الحالمة على ضفة نهر السلام ..

ذلك احبائي : شعر مدرسة الجديد . انه ملاك مجنح .. مفتون بوجوده .. بجماله .. بصفاء سعادته حيث الفراشات الملونة كاطياف (قوس قزح) والغاب الاخضر يردد الغناء ، حيث يتنفس كل شيء بهدوء.. هو الصفاء فى كل شيء .. انه ملاك شغوف بروعة الجمال ، ودائب البحث عنه فى كل مكان ، لا يسكن له قرار ، ما دامت هناك زهور نادرة لم يكتشف شذاها بعد .. وبراعم عذارى خجلة مطوية الايدي على عيونها الحالمة خشية انظار الفضوليين ، ها هو يجدها ويهمس فى اذنها : ها قد وجدتك ابنتها الجميلة ! فيلامسها وتلامسه بانفاسها العبقة ، وتدع الاحلام ترف حوله ، وهو يتابع رفيفه على طول الطريق .

انه ملاك مفتون بوجوده بمقدرة فنه ، لكنه لا يزال به شوق لذلك هو يتمرد على القيود ، على العلم بالغيب ، وينشد المزيد من المعرفة المجهولة .. وكان ان آكل من التفاحة المحرمة ، وانتشى بلذة خمرها ، واذ ذاك الفى نفسه وحيدا خارج باب الفردوس ، مبتل الجناح ، على ارض مندادة ، انه آدم آخر خرج من الجنة ، الى ارض البشر ، الارض المثقلة بالشقاء .. انه (بروميثيوس) الذي تعذب فى سبيل الظفر بشعلة النار ، من اجل حرية بني البشر .. ولكن هذا الملاك الطريد الى ارض البشر لم ينس بعد يقظته ، وخطيئته، انه ملاك رسالته أن يمنح السلام ، والحب ، والكلم الطيب ، ولا يبغض احدا ..

وهكذا اخذ ينفض الهدوء هنا ، وهناك ، وينير بالضوء الغامر كل ذبال فى قلب الاكواخ ، ويمسح بيديه الرقيقة عرق العناء المتصبب على جباه الاشقياء ويسعد كثيرين ..

واذا كان فى هذا التفسير ما يحمل على الاعتقاد او الظن بالانتصار لشعر مدرسة الجديد ، انتصارا مطلقا ، خاصة نحو اولئك المتشيعين للشعر المطلق من القيود ، فقد وجب الايضاح ، والتفسير ، الصحيح . فالمؤاخذات انما هي قائمة وموجهة ضد المواضعات التقليدية فى الشعر العربي ، خاصة عند المدرسيين الذين ينظرون الى الشعر على انه صناعة رصينة ، لا كفن ، يقوم على الايحاء ، والاثارة ، والتجاوب مع الحياة الانسانية فى ابعادها ، ومع الانتصارات ، شعر ينبض بالحياة ويضيق بالقوالب الهامدة ، والشكليات القائمة على الاستعارات ، والكنايات، والتشبيه والطباق، فى ضيق آفاقها الصناعية .

ومرة اخرى ليس فى هذا التفسير ما يشعر او يحمل عن الظن بالدعوة الى نبذ الاوزان التقليدية ، واتهامها بالعقم والجمود امام حركة التجديد ، وانها لا تسع الروح الجديدة ، وليست لها القابلية لتقبل المستويات الفنية ، بمضامنها ، واشكالها ، وعدم القابلية للتجاوب مع مقتضيات الحركة التجديدية فى الصياغة والافكار ، والفلسفة والمعاشة او الملتزمة : فهذه دعوى مردودة على اصحابها ، ويبطلها بكل تأكيد الشعر العربي القديم نفسه ، وعلى الاخص شعر المعري الذي اودع شعره فلسفة تكاملية ملتزمة ، وعبر عن مفاهيم الوجودية من قلق ، وشك وهجران (وهذه الظاهرة هي ما اعمل على ابقائها حظها من

الدراسة) كما التزم بتحمل مسئولية مذهبه ، كأفضل وجودي في عصرنا الحديث ، عبر عن كل ذلك في بساطة لا تجارى ، وطواعية في الاداء ، واين فعل كل هذا .. في الاوزان التقليدية التي وصفت بالعقم والجمود .

وان كان اديبنا الانسان الشاعر، والاديب (مخائل نعيمة) قد حمل على القافية الواحدة حين تحدث الى مندوب جريدة المساء عن الايطار الجديد للشعر ، فقال : (لم انظم في الايطار القديم ، وارى ان القافية الواحدة تتسلط على القصيدة ، ولا مبرر لذلك ، الا ان الاقدمين جروا على ذلك ، فليس من الممكن ان يتقيد الانسان الشاعر بهذه القافية ، ويكون شاعرا حرا ، بل عبدا ، فحاولت ان اجعل الفكرة في وحدة الموضوع في الشعر ، واستقلت القصيدة من القوالب القديمة .

ما نفيت ان زماننا غير زمان الاقدمين ، واليوم نجد هناك تيارات جديدة ، ولهذا يحس الاديب الحديث بشيء من القلق) .

ويجاريه في هذه الفكرة المرحوم احمد امين حين يقول : ليست وحدة القافية بالامر المقدس الذي لا يصح ان نخرج عنه ، ولكنه امر اعتباري وتقليدي مرده الى الاذن الموسيقية) .

والمهم ان الشعر احتفظ بوزنه ، وان كان متنوع القافية ، وقد استطاع الشعر الحديث ان يحتفظ بالاوزان مع تلون القافية ، وتوليد اوزان جديدة .

وشعر المهجريين ، وعلى راسهم ابو ماضي الذي طوع هذه الابحر الخليلية — التي وصفت بالضيق والرتابة — واودع فيها خلاصة الفن في اعلى مستواه ، فنيقوم على الفكرة الهادئة ، والوجدان والفلسفة الحياتية المعاشة ، وعلى كل جليل في ذاته وجميل ونبيل وبسيط ... وما يمكن ان تصل اليه المستويات الفنية من حيث الصياغة الشكلية ، ومن حيث المضمون الفكري ، ولا ننس بعد هذا ان الموسيقى ، والحركة الانسجامية جزء هام من الشعر ، فالوزن بمثابة عصا (الاوركيستر) لاداء سيمفونية عظيمة ، وهنا يظهر عيب من عيوب الشعر الحديث المطلق ، فكثير منه يخلو من عنصر النغم الموسيقي بصورة واضحة تبعده عن مجال الشعر الى النثر العادي المرسل من كل القيود .. والشعر عند النقاد يقوم على اصول ثلاثة : هي الحياة الانسانية ، والحياة العاطفية ، والحياة الفكرية .

والقضية هنا تتصل ، وتنحصر اولا ، واخيرا في شخصية الشاعر ، وقدرته الخلاقة ، لا في نوع الشعر من كونه مقيدا بالقافية والروى ، او مطلقا منهما ، فهناك شاعر يحمل عصا سيدنا موسى السحرية ، يحيل بها الخشب الى روح تتحرك ، وشاعر آخر يحمل عصا خشبية ، يهرول بها كالمجنون . وللتدليل على صحة هذا الراي اقراوا (طلاسيم) ابي ماضي ، بل عامة شعره ، وغير ابي ماضي ، كابي شبكة وصلاح لبكي ، وغير هؤلاء . بل تشمل هذه الحقيقة الشعر العربي القديم نفسه ذا الاوزان التقليدية ، لنقرا الان هذه الصورة الشعرية الهزلية (الكاريكاتورية) التي تصور الطبيعة الانسانية على حقيقتها الوضيعة ، ونفاق هذا المجتمع الانساني الذي لم يتغير رغم تقدم المعرفة ، وكيف نرى حظ البائس في هذه الحياة ، واثر المظاهر الزائفة في نوع المعاملة والسلوك بين الجماعات ، فانت تستطيع أن تلج كل باب مغلق ، او مجتمع استقراطي ، اذا اصلحت من هيئة مظهرك بمعطف نظيف ولو كان مستعارا من بائع الملابس المستعملة ، فيكفي ان تضع منديلا تحشو نصفه في جيب معطفك ، وترفع راسك قليلا دلالة على العزة والنعمة ، وان كانت جيوبك تصفر فيها الرياح الاربعة . وتحفظ بعض العبارات الشرقية ترددها مع من تحدثه . مثلا :

— من يكون لي شرف التحدث اليه .. على ان اذكر ان كل شيء لم يكن يسير في طريقه الصحيح هذا اليوم ... انظر بنفسك ما عليّ الآن من لباس متواضع .. ابن اللعينة الخادم ضيع مفتاح خزانة اللباس ، ولكن ما العمل الآن ... وقد وقع المحذور .. آه ! ما الفائدة الآن من الكلام .. فعلى المرء ان يعرف الصواب عندما يتصرف في حياة الغير .. »

وعند هذا الحد يستطيع ان يلج هذا البائس اي مجتمع ، واية حفلة من غير بطاقة الدعوة ولو كانت حفلة (كوكتيل) يقيمها (علي خان) .

فستلقى عند الباب الترحيب والاحترام ، وعلى العكس لو لبست اسمالا بالية عليها اثار الايدام ، ونوافذ القرضة ، وعفرت وجهك قليلا ، فعندئذ ستطرد اشنع طردة ، وتودع بسيل من السباب ولو كنت في حقيقة الامر تملك كنوز سليمان او على الاقل جواهر (المهراجا برودا) الهندي . لنقرا هذه القطعة الشعرية التي تصور هذه الصورة الفنية لحقيقة حظ البائس المحروم ، والتي يرويها لنا محمد بن علي الكازروني . قال : انشدنا ابو العلاء : (1)

يغدو الفقير وكل شيء ضـده
والارض تغلق دونـه ابوابهـا

فتراه محقوقا وليس بمذنـب
ويرى العداوة لا يرى اسبابهـا

حتى الكلاب اذا رات ذا بـزة
هشت اليه وحركت اذيالهـا

واذا رات يوما فقيرا بائسـا
نبحت عليه وكشفت انيابهـا

فالوزن التقليدي استطاع ان يؤدي صورة فنية نادرة تصور حقيقة انسانية ، وطبيعية بشرية ، وذلك في اداء فني متسم بالبساطة ، ولا تنقصه الحركة ، والايحاء

وهذه صورة هزلية اخرى يذكرها ابن القيم الجوزية :

لا تخدعنك اللحاء والصـور
تسعة اعشار من ترى بقـر

في شجر السدر منهم مثـل
لهـا رواء ومـا لهـا ثمر

وهذه صورة ثالثة رويت على انها من الشعر الجاهلي ، وهي ايضا تمثل حقيقة الطبيعة الانسانية :

يتمنى المرء في الصيف الشتـا
واذا جـاء الشتـاء انكـره

لا بذا يرضى ، ولا يرضى بـذا
قتـل الانسـان ما اكفـره

وهذه صورة رابعة تصور عمل الخير لذاته وان كان (ستيوارت ميل) في فلسفته المادية ينكر على الانسان ان يفعل الخير لذاته ، بل هو يفعله لغاية ما ، فاذا تصدق فاما خوفا من من عقاب الله ، او خوفا من ان يكون مصيره مثل هذا الفقير .

ولكن لنسمع هذا الشعر الذي يصور هـذه الحقيقة التي تثبت ان هناك خيرا مطلقا لذاته وكفى :

حرم الله ان ترى كابن سلـم
عقبـة الخير مطعم الفقـراء

يسقط الطير حيث ينتشر الحب
وتغشـى منـازل الكرمـاء

ليس يعطيك للرجاء ، ولا الخو
ف ولكن يلـذ طعم العطـاء

فهذه الامثلة اتفقت في تصوير الطبيعة الانسانية في صدق ، وامتازت كلها بالبساطة رغم قيود الوزن .. اما الشعر الحديث واعني الذي التزم بالمحافظة على اوزان الشعر التقليدية ، وان كان قد جدد فيها بما يلائم حركة التجديد العامة ، دون التخلص من الوزن والموسيقى ، تخلصا نهائيا ، هذا الشعر غني بالامثلة القوية لها نفاذها وعمقها المكين ، وذلك يؤيد ما قلناه من ان الابحر الخليلية لا تضيق بالمفاهيم والاشكال المذهبية في الشعر الحديث . هذه قصيدة (ابتسم) لابي ماضي :

قال : السماء كئيبـة ! وتجهمـا
قلت ابتسم يكفي التجهم في السماء

قال : الصبا ولي ! فقلت ابـ
ـتسم لن يرجع الاسف الصباالمتصرما

قال : العدى حولي علت صيحاتهم !
أأسر والاعداء حولي في الحمى ؟

قلت : ابتسم لن يطلبوك بذمهـم
لو لـم تكـن منهـم اجل واعظمـا

قال : الليالي جرعتـني علقمـا
قلت : ابتسم ولئن جرعت العلقما

فلعل غيـرك ان رآك فربمـا
طرح الكآبة جانبا وترنمـا !

وهذه صورة اخرى من نزعته الانسانية المتكاملة :

يـا رفيقـي انـا لـولا
انـت مـا وقعـت لحنـا

كنـت في سـرى لمـا
كنـت وحـدي اتغنـى

ربمـا كنـت غنيـا
غيـر انـي بـك اغنـى

---

1) انظر كتاب (ابو العلاء وما اليه) للراجاكوتي ص 4 من ملحق الكتاب .

يـــا رفيقـــي انـت ان را
عيت فجري صـار اسنـــي

واذا طفـت بكـرمـي
زدتــه خصبــا وامنــا

فالشاعر هنا يعيش بوجود الآخرين ويسعـد بسعادتهم ، وهو الذي يقول :

ايهـا الشاكـي ومـا بـك داء
كيف تغدو اذا غدوت عليـلا ؟

ان شر الحياة فى الارض نفـس
تتوقى قبل الرحيل الرحيـلا

وترى الشوك فى الورد وتعمـى
ان ترى فوقها الندى اكليـلا

وهذه صورة اخيرة للشاعر (نسيب عريضة) وهي تصور مفهوم القلق الوجودي ومفهوم العبث عند (البير كامو) :

لماذا نحـس لمـا نحـب
لـماذا نعيش بـلا طائلـة

لماذا التناسل والنسل ندري
بان الحياة لـه قاتلـة ؟

اكيما نزيد المقابر رمسـا
ونصغى الى رنة الثاكلـة ؟

لماذا غلام يمـوت وتبقـى
شيوخ تثقل فى العـائلـة ؟

واخيرا يعز علي ان تنتهي هذه الخواطر العابرة عن الشعر الحديث دون ان نخص المطلق منه برأي نهائي ، ولكي ننصفه نكتفي بالقول مع النقاد بان هذا النوع من الشعر لم يستقر على وضع او اوضاع معينة، ولا زالت حركة التجديد تطوح به هنا وهنـاك ، لان انتاج هذا الشعر يختلف باختلاف الاشخاص ويتباين ويتفاوت فى الشكل والمضمون والصيغة ، والتفعلة ، ومنه ما ينطوي على انسجام موسيقي يضفي على صورة الموحية قوة فوق قوة ، ومنه ما لا يحفل بالموسيقى كلية ، ويكفي لانصافه ان تورد قطعة شعرية للشاعر (ولت ويتمان) من ديوانه (اوراق العشب) نقلا عن جريدة الصداقة الامريكية التي تصدر فى القاهرة باللغة العربية ، فسنرى فيها بساطة فنية لا تجاري ، وسنرى فيها روح الشعر رغم ان الترجمة العربية افقدتها شيئا من روح الانسجام الموسيقي فى الاصل الانجليزي ، ورغم ذلك فنحن لا يمكن الا ان نؤمن ان تمت روح الشعر الرفافة بالالوان والاشذاء ، وتحتاج فقط الى شاعر يشد الاوتار الرخية لترتفع الرنات والانغام .

ما العشب ؟

قال طفل : ما العشب ؟
واحضر لي منه ملء يديه ..
كيف اجيب الطفل ؟
ولست اكثر منه دراية
بما هو العشب !
اعتقد انه ولا بد لواء
نسج من خضرة الامل ..
او ربما كان منديل ربى !
منحة وتذكارا معطرا
اسقطه قصدا ..
وعليه اسم صاحبه ..
قريبا من الاركان ..
لنرى ونتبين ..
ونقول : لمن هو ؟





في سنة 1946 بمناسبة اسبوع الطالب الذي اقامه حزب الاستقلال في الرباط قمت بزيارة دراسية الى مآثر الرباط صحبة الاخوان : المرحوم عمر البارودي، عبد الله الشرفي، الطيب الشرقي، محمد عمور، محمدالتازي، ومحمد الطاهري .

فكان ان استحوذت على مشاعري صومعة حسان التي تعد معجزة مجسمة لعظمة اجدادنا الخالدين ، فلم املك نفسي يومئذ عن التفكير في تسجيل مشاعري نحو هاته المعجزة ، واليوم وقد عاودتني الذكرى وجدتني مدفوعا لتجسيم شعوري في هذه الابيات ، فالى هؤلاء الاخوان اهدى قصيدتي ..! والى ارواح اجدادنا الخالدين .

طواكم بحر آتى العباب وأودعكم صحف الغابرينا
وامسى الزمان يرددها كما ردد المصحف المؤمنونا
وينظمها سورا خالدات ، فترشد آياتها الحائرينا

*

لقد صرتمو في ضمير الحياة أساة لابنائها الهالكينا
ظللتم برغم السنين مثولا تناجوننا ابدا حافزينا
تطلون من شرفات الخلود لاعدائكم ابدا غائظينا
تبثون فينا شعائركم مبادىء كنتم بها قاهرينا
أتبليكم عاديات الزمان وانتم لها ابدا حاكمونا ؟

*

تظلون في صمتكم ناطقينا بمعجزة القادة الفاتحينا
اقمتم على عزمات الدهور هياكل تزخز بالظافرينا
صروحا من المجد دفاقة بالحياة لاطنابها رافعونا

وابنية لكمو شاهـــدات بما خلدتـــه عزائمكـم للبنينـــا
والويــــة فى السماء خافقـات الى ثاركم تحفز الثائرينـــــا

❊

عباقرة الفن صغتم من الفن تمثـال اجدادنـــا الراشدينـــا
وتلـــك بقايـــا مـآثركم تقيـــم المفاخر للنابهينـــــا
ملكتم فجاج الدنى بالوئام ، ونحن على نهجكـــم سائرونـــــا
وبتم تشاوى النفوس ترفرف اعلامكم فوق هام السنينـــا
وامست بنودكم والجنود تصون حماكم مـــن الغاصبينـــــا
ارقتم دماءكم ، واسد الثرى تناوى الدخيل وتحمى العرينـا
قبلتم زمام الوجـود وصرفتمـــوه لرغبتكـم قادرينـــا
فمنكم اساة ، ومنكم غزاة ، ومنكم هـداة اشادوا اليقينـــا
ومنكم بناة المعالي ، وهل سواكم يفل شبا المعتدينـــــا ؟
يدك صروحهمو والقبـــاب ويحمي البرايا من المفسدينـــا

❊

قضت لكم القضـب المشـرعات بانكـم ابـدا تنصرونـــا
فسدتم وكنتم قضاة عدولا وما كنتـم ابـــدا جائرينـــا
... وسرتم وخلفتمو صحفا من العدل غراء للحاكمينـــــا
وكنتم لنا اثرا نقتفيــه وكـــان العدا عبـرة الطامعينـــا

❊

وكـــــان القضــــاء لكـم ابـدا فارـغم ايامكـم ان تلينـــا
ومن ذا يرد صروف القضاء وقد جعلتكم لها حاكمينـــــا
واخضعتموها وقمتـم بها اجـــل مقام بـــه توسمونـــــا
ومن جعل الحق رائـــده وغايتـــه ، ملـــك العالمينـــا

نحو مستقبل أفضل

للاستاذ محمد بناني
خريج كلية الآداب - الجامعة السورية



عاد منذ بضعة شهور الى المغرب الاستاذ السيد محمد عبد الواحد بناني بعد ما حصل على درجة الليسانس من كلية الآداب بالجامعة السورية .

والاستاذ بناني تربطنا به روابط كثيرة منذ ايام الزمالة في الدراسة بالقاهرة قبل انتقاله الى سورية ، وقد تحدثنا اليه بعد عودته فبدا لنا منه نشاط كبير ، واهتمام فائق بالشؤون الثقافية والاجتماعية بالمغرب .

وهذا البحث القيم الذي نقدمه اليوم للقراء ، يتناول فيه كاتبه الاستاذ بناني في صراحة وجرأة كثيرا من المشاكل الاجتماعية التي تعانيها ونتألم منها ويقترح كعلاج لبعضها ، فرض ضريبة جديدة ، تدعى (ضريبة الزكاة) ومن قراءة البحث يبدو للقارىء مدى وجاهة الاقتراح واهميته .

ونحن من طرفنا ، نضم صوتنا الى صوت الاستاذ محمد بناني ، راجين ان يجد اقتراحه من المسؤولين ما هو جدير به من العناية والاهتمام .

رئيس التحرير

هنا في هذا الوطن الحبيب الذي خرج من معركة الاستقلال السياسي ظافرا ، تتردد على افواه المهتمين بقضاياه ومشاكله انشودة جميلة حلوة . . . معناها اننا منهمكون في بناء المغرب الجديد ، المغرب المستقل القوي، الذي سينعم بمستقبل قريب فيه كل معاني الخير والجمال . والذي سيتبوا مكانته اللائقة به بين امم العالم . باعتباره همزة وصل بين الشرق والغرب . . . ستلتقي على مرابعه خلاصة ما في الشرق من روحانية ملهمة ، وما في الغرب من مادية منتجة ، والذي سيقوم بدوره الايجابي في دعم المحبة والاخاء والسلام بين هذه الانسانية المعذبة في الارض .

اذن فالمغرب يجتاز الآن فترة بناء، ومعلوم انه لا بناء يقوم على غير اساس قوي متين ، يمتد في الاعماق ، متحديا عوادي الدهر وتقلبات الايام .

والاساس الذي تبنى عليه الامة هو الفرد . . . انت وانا والآخرون ، فالفرد هو الخلية الاولى في بناء المجتمع الذي تقوم عليه الامة ، وكلما كان بناء الفرد قويا ، وشخصيته متماسكة ، كانت الامة تمضي الى الهدف في اصرار ، وكانت اتجاهاتها سليمة وخطواتها ايجابية .

اننا نتسلم اليوم ارض الوطن مزروعة بالالغام الناسفة ، وفي كل مجال في السياسة والاقتصاد والتربية والاجتماع والاخلاق ، بل في كل مجال من مجالات العقل والشعور والنزوع ، يجب الا نضع طوبة ما في بناء المستقبل الا بعد ان تنبش هذه الارض ونعقم تربتها تعقيما .

لقد تآمر الجهل والخرافة والرجعية وانواع الكبت وسوء توزيع الثروة مع الاستعمار على حاستنا الاجتماعية فعوقتها تعويقا ، واليوم ونحن نطرق ابواب المستقبل الصاعد في حزم وعصامية ، فمن اين يجب ان نبدأ الانطلاق ؟

لقد كان سيد المجتمع في القرون الوسطى هو ذلكم الفارس المغوار الذي يعشق الخطوب ويتحدى القدر ، والذي لديه من القوة الجسمية ما يمكنه من

الظفر بمحبوبته ولو عن طريق الاغارة والخطف . ثم تطور مدلوله بعض الشيء في العصر الكلاسيكي فاصبح انسان الصالون الانيق اللبق

اما اليوم في العصر الحديث فان التربية الديموقراطية الصحيحة تهدف الى ايجاد (المواطن الصالح) اي ذلكم الانسان الذي لا يبدأ تفكيره في مصلحته الخاصة الا حيث ينتهي عمله لمصلحة الوطن ، والذي تهيئه الدولة بواسطة الاسرة والمدرسة والمجتمع لممارسة ماله من حقوق ، واداء ما عليه من واجبات ، طبقا لمبدأ (تكافوء الفرص) هذا المبدأ الذي يفتح ابواب النجاح والتوفيق امام كل ذي كفاءة ، والذي يجعل الناس جميعهم سواء امام القانون . .

ان فكرة المواطن الصالح بهذا المعنى تصميم تعاونت على وضعه دراسات ناضجة في شتى ميادين العلم والتربية والاخلاق ، وهي احسن ما استطاعت ان تقدمه لمجتمع القرن العشرين الصاعد في زيه المثالي النموذجي .

واذا نحن نظرنا الى مجتمعنا المغربي وجدناه يرتبط ارتباطا وثيقا بمعتقدات الامة الاسلامية وتقاليدها وتاريخها وعرفها الخلقي ، وما تمتاز به شخصيتها الجمعية ويكتنفها من ظروف في شتى مرافق الحياة ، فاذا نحن حاولنا ان نبدأ البناء من الاساس ، اي من الفرد ، بتكوين المواطن الصالح في مجتمعنا المغربي الاسلامي هذا ، تلبية لنداء الديموقراطية المثالية في القرن العشرين ، وجب علينا اولا وقبل كل شيء ان نجيب على هذا السؤال : هل عرف الاسلام كدين ونظام فكرة المواطن الصالح ام هي فكرة غريبة عنه ، ان نحن اقتحمناها على مجتمعنا قاومها واجهز عليها كجرثومة ضعيفة تنفذ الى جسم ذي حصانة ؟ (اذا نحن رجعنا الى تاريخ الاسلام كي نجيب على هذا السؤال وجدناه يبدأ حملته الموفقة من الفرد ، فيهتم الاهتمام الكبير بموازنة قواه المختلفة ليكون بناء الامة متراصا لا غميزة فيه ولا وهن ، وسيلته الى ذلك تنسيق حياة الناس المادية كاحسن ما تعنى بذلك المذاهب الاقتصادية ، وتقويم السلوك الاجتماعي كاقوى ما تهتم بذلك الدعوات الاخلاقية ، وتطهير النفس كاحسن ما تفعل الاديان السماوية .. انه يربط بين هذه جميعا ويلحم بعضها ببعض ، فاذا المسلم قوي في كل ما يعطيه هذا اللفظ من دلالة : قوي في جسمه ، قوي في خلقه ، قوي في روحه .. اليس شعاره قول الرسول (ص) (**المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف**) كما يرويه مسلم .

ولتكوين المؤمن القوي وجد في الاسلام المسجد والمدرسة والنادي ، ومن هنا كانت رسالة كل منها وحدة متماسكة يتمم بعضها بعضا : ففي المسجد تبنى روح الفرد ، وفي المدرسة يبنى عقله ، وفي النادي يبنى خلقه ، ومن هنا ايضا كان وجود هذه الثلاثة معا من ضروريات الحياة الاجتماعية الصحيحة ، وكان فقدان المجتمع واحدا منها دليل اختلال ، فلن تغني المدرسة عن المسجد ، ولن تغني الجمعية عن المدرسة ، والذين يظنون ان المسجد ليس شيئا اساسيا في بناء المجتمع ، انما يريدون بناء عقل لا روح فيه ، وهم في هذا مخطئون يظنون ان المدرسة ليس لها شأن كبير في بناء المجتمع السليم ، وان المسجد او النادي يغني عنها ... فلن تسعد روح بلا عقل ، ولن تعمل روح وعقل عملهما من غير خلق يوجههما نحو العمل الاجتماعي المثمر ...

لقد كان اول عمل قام به النبي (ص) يوم قدم المدينة مهاجرا ، واول حجر وضعه في بناء الدولة التي غيرت مجرى التاريخ ، هو بناء المسجد النبوي الكريم ، هذا المسجد الذي كان مدرسة ومعبدا ومنتدى في آن واحد ، والذي كان من تلامذته ابو بكر وخالد وعمر وعلي وسعد وابن مسعود وامثالهم ... يجتمع اليهم فيه — ومن قبل في شعاب مكة ودار الارقم وفناء الكعبة — يقوي ارواحهم ويصقل نفوسهم ، ويهذب اخلاقهم ، حتى اذا مضى لربه كان لهم في التاريخ شأن واي شأن ، وكان لهم في هداية الانسانية نصيب واي نصيب .

فما هي الخطة التي انتهجها الاسلام لاعداد هؤلاء الخالدين ، والتي جعلت منهم مواطنين صالحين ... يحملون الرسالة ويؤدون الامانة ويخوضون المستقبل في ثقة وحزم واصرار ؟ .

لقد شد الاسلام الرحلة وبدأ الانطلاق من حيث يجب ان يبدأ كل اصلاح .. لقد شد رحلته الى السلوك ، وبدأ انطلاقه من الاخلاق ، اجل ايها الاخوة من الاخلاق اولا وقبل كل شيء .

كانت الفردية والانانية وحب الذات هي الدفة التي توجه سلوك العربي قبل الاسلام ، والطابع الذي يسم اخلاقه .. كانت الفوضى والجهالة والعبث بالقيم قاسما مشتركا بين اغلبية العرب ، كانوا يقولون مع شاعرهم القطامي :

ومن تكن الحضارة اعجبتـه
فاي رجال بادية ترانـــــا

ومن ربط الجحاش فان فينـا
قنا سلبا وافراسا حسانـــا

وكن اذا اغرن على جنـــاب
واعوزهن نهب حيث كانـا

اغرن من الضباب على حلول
وضبة انه من حان حانـــا

واحيانا على بكـر اخينـــا
اذا ما لم نجد الا اخانــــا

كان هذا لسان حال العرب ...

فكان على الاسلام – وهو بصدد انشاء دولـة وخلق امة – ان يقتلع هذه الروح من اعماقها ، ويحل محلها روحا جديدة شعارها التعاون والتعايش ، فاذا صلة قوية بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيـه ، اوجدتها العبادة والتربية والتشريع ..

تقوم عقيدة المسلم على ان الله واحدا ، وان هذه العوالم كلها مخلوقة لاله واحد ، وان الانسان مرتبط مع هذه العوالم برابطة العبودية والحاجة لله ، وان عالم الحيوان بطيوره ودوابه عالم مثل عالم الانسان (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم) .

لم يؤكد الاسلام صلة الانسان باخيه الانسان صلة كرامة وتعاون (ولقد كرمنا بني آدم) فيثبت هذه الكرامة وصفا للانسان كانسان ، بقطع النظـر عـن الاعتبارات الاخرى ... يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. ان اكرمكم عند الله اتقاكم .

وانه لحافز اجتماعي كبير ان يكون مقياس قرب المؤمن من الله او بعده عنه نفعه للناس : يقول عليـه السلام : **الخلق كلهم عيال الله ، فاحبهم الى الله انفعهم لعياله ..**

وتقوم آداب الاسلام على اعتبار التعاون مـع الناس هو الاساس : فروح الشريعة مكارم الاخلاق ، **(انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق)** (رواه البخاري فى الادب والحاكم ، ورواه مالك بلفظ **(بعثت لاتمم حسن الاخلاق)** والقاعدة التي تبنى عليها الاخلاق فى الاسلام هي قول الله تعالى **(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان)** والبر والتقوى ليسا فقط ما يتوهمه البعض من انهما العبادة فحسب **(ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب ، والنبيئين، وآتي المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ، واقـــام الصلاة وآتى الزكاة ... والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى الباساء والضراء وحين الباس ، اولئك الذين صدقوا ... واولئك هم المتقون) .**

وتقوم العبادات فى الاسلام على فكرة التعـاون الاجتماعي بين المؤمن وبين الناس جميعا : فالصلاة مثلا : ما فائدتها ؟ ما حكمتها ؟ اهي حركات آليـة لا مفهوم لها ؟ اهي صلة شخصية بين المسلم وربه فقط كلا .. انها عملية تطهير واعداد .. تطهير الفرد من الانعزالية والانانية ، واعداد له كي ينصهر مع المجتمع على تقوى من الله ورضوان ... استمع الى القرآن يشرح فوائد الصلاة ، يقول تعالى : **(ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)** هذه هي الناحية السلبيـة : التطهير ، والتعقيم . ويقول **(ان الانسان خلق هلوعا : اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعـا ، الا المصلين)** وهذه هي الناحية الايجابية .. الاعداد لكل خلق عظيم ، تلكم هي الصلاة :

عبادة لتقويم الخلق الاجتماعي فى نفوس المصلين، فان لم تؤد هذه الغاية كانت عملا باهتا وحركة ضائعة ، **(من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد مـن الله الا بعدا)** . تلكم هي فلسفة الصلاة كما اعلن عنها نبي الاسلام .

والصوم ... ما فائدته ؟ ما حكمته ؟ ما الغاية منه ؟ اهو جوع وحرمان ، كلا ، انه ايضا عملية تطهير واعداد .. تطهير للصائم من القسوة والبخل واللغـو والكذب والخصام ، واعداد له ليتحلى بما يحببه الى الناس .. يقول تعلى عن حكمة الصيام **(لعلكم تتقون)** تتقون كل ضار خبيث مفسد لحياة الافراد والجماعات: ويقول عليه السلام **(الصوم جنة – اي وقاية اي تطهير – فاذا كان يوم صوم احدكم فلا يرفث ولا يصخب ، وان سابه احد او قاتله فليقل اني صائم)** هذا هـو الصيام .. عمل اجتماعي قبل ان يكون عملا فرديا .. يقول عليه السلام **(من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى ان يدع طعامه وشرابه)** **ويقول:** (رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش) .

وهذا الحج : لم شرع ؟ وعلى من فرض ؟ اهو غربة وعذاب ؟ اهو طواف حول احجار وبنيان ؟ كلا ! انه اجتماع وتعارف ، تعاون وتآلف ، انه تطهير للمسلم من كل آثار الانانية والانعزالية ، واعـداد له على التعاون والاجتماع .. انه فى مكة طواف وسعي يدلان على ثبات على الخير والتفاف حوله ... وفى منى حجار ورمي يرمزان الى مكافحة الرذيلة والشر .. ذلك هو الحج .. لخصت حكمته ثلاث كلمات من كلم اللـه المشعات (ليشهدوا منافع لهم) .

وهذه الزكاة : معجزة الاسلام فى تشريعـه الاجتماعي العظيم ، وسر بقاء المجتمع الاسلامي مئات السنين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، والمعول الجبار الذي قوض به الاسلام روح الانانية والفردية والانعزالية .. محلا محلها روحا غيرية اجتماعيـة جديدة .

فى ذلك العهد الجاهلي السحيق .. حيث كـان الانسان يأكل اخاه الانسان .. يأكل حقه ، ويأكـل كرامته ، ويأكل منزلته الاجتماعية .. وحيـث ادى تكالب بعض الناس على ما تحت اقدامهم من لـذات ومتع الى ظفرهم بكل شيء ، وحرمان البقية الباقية كل شيء .. جاء الاسلام يعلن للجميع ان الناس سواسية ، وان الانسان اخو الانسان ، وان الفقر والضعف ليسا عيبا يلزم صاحبهما الى الابد ، بل ان لكل فرد فى المجتمع الاسلامي ايا كانت طبيعته منزلته الانسانية الكاملة .. وكانت مقاصد الشريعة الضرورية تهدف الى المحافظة على حقوق خمسة فى الدين والنفس والعقل والنسل والمال واتجهت فى المحافظة عليها وجهتين .. الاولى : اقامتها بتحقيق اركانها وتثبيت قواعدها ، والثانية : درء الخلل الواقع او المتوقع منها .. مركزة جهودها فى سبيلها ، معلنة للحفاظ عليها حربها وجهادها ..

وليست الزكاة فى كل ازيائها الا ضمانا لهـذه الحقوق جميعا .. ورصيدا سائلا يمد المجتمع الاسلامي بالحيوية والحركة والنشاط ، ويمنحه الصحة والعافية والسلام .

لقد عرفت الشريعة الاسلامية بحدسها الصادق ان المعدة الخاوية ابدا لن تجد حلاوة التوحيد ولـذة الايمان .. كما لن تجد قدرة على الانتاج او قوة على العمل ..

لقد عرف الاسلام بحدسه الصادق هذا ــ ما اثبته العلم اليوم عن طريق الملاحظة والتجربة .. ان اخلاق الانسان ليست شيئا بعيدا عن ذاته وتركيبه واجهزته .. وان سلوكه البشري كله .. خيره وشره، صالحه وفاسده ، يرجع الى وضعيته الصحية بالاضافة الى حالته العقلية .

فالشخص المريض الذي هبطت طاقة خلايـاه العصبية لانه لا يجد غذاء كافيا ، كالشخص الجاهل الذي لا يجد فرص التربية الكافية .. لا يمكـن ان تصدر عن احداهما تصرفات سليمة فضلا عن ان نعثر فى اهابه على فضائل يانعة او اخلاق مشرقة .. لان الحرمان يفقده سكينة النفس وغبطتها ، ويمتص من روحه العزيمة والامل .. وفى هذا يقول الدكتور ادوارد سبنسر كولز فى كتابه (لا تخف) : (ان كل تغيـر فى الخلية العصبية مهما تقل درجته ، يتبعه لا محالة تغير فى نفسية صاحبها) .

ويضرب لنا مثلا .. رجلا سكيرا بلغ فى الادمان درجة حطمت كل معنوياته ، وجردته من كل خلـق وفضيلة ، ولما عجزت المواعظ عن انقاذ هذا المغلوب على امره صاح العلم : ان توقفوا : ان العلاج يجب ان يبدا من الداخل .. حيث الخلايا المجدبة ، والاعصـاب المنهوكة ، والغدد المختلة .

وهناك فى غرفة العمليات اجرى له الدكتور كولز عملية بزل للسلسلة الفقرية التي تخفض الضغط على السائل المخي ، فتتغير بذلك كيمياء المخ .. فـاذا العافية الصحية والنفسية تعودان للمريض ، وتعـود معهما الاخلاق الطاهرة ، والروحانية الضامرة .

وما من ريب فى ان هذا الذي انطبق على الفرد ، ينطبق على الجماعات والمجتمعات ، فالمجتمع المتمتع بعافية اقتصادية هو الذي تزدهر فيه الفضائل ، امـا المجتمع الجائع المضني ، فلا تكاد تزوره الفضيلة من الباب حتى تغادره من النافذة .. لان الجوع الى الخبز (كما يقول فرويد) كالجوع الى الجنس : هما اللذان يوجهان سلوكه .. فالرخاء هو الجهاز ، وهو الغدد ، وهو الخلايا التي تحيا بها الشعوب ، والصاروخ الذي يوجه سلوكها ، ويقود اخلاقها .

اليست الفضيلة تعنى السلام والاخاء والمحبة ؟ فكيف السبيل اليها فى جماعة يؤجج الحرمان فيها نار الحقد والبغضاء والتشاؤم من الحياة واهلها ؟ ان اباذر

الغفاري ليتصدى منذ فجر الاسلام لتأكيد هذا فيقول : **اذا ذهب الفقر الى بلد ، قال له الكفر : خذني معك .** ثم يأتي توماس بين ليؤكده بآيته الخالدة ((**ان الفقر ليتحدى كل فضيلة**)) .

اجل .. ومن اجل الفضيلة جاء الاسلام ايضا باشتراكيته المثلى .. بنظام الزكاة . فقد امر الله سبحانه رسوله محمدا (ص) فقال (**خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**) وبين له وجوه صرفها بقوله (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم) وقرنها بالصلاة فى اكثر من موضع ، اذكر منها قوله تعالى (قد افلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون) .

وهنا يقفز الى الذهن سؤال .. هو من الاهمية بمكان .. ترى .. ايقصد الاسلام باشتراكية الزكاة اشتراكية التسول كما يجري به العمل الآن ؟ كلا ايها السادة ، ان كلمة الصدقة فى عصر الرسول وفى لغة القرءان لم تكن تعني التسول ، بل كانت تعني ضريبة مفروضة يأخذها ولي امر المسلمين من القادرين لفائدة العاجزين كضرب من التوازن تقيمه الدولة لتقليل الفروق بين طبقتي المجتمع .. مما يقلل اسباب التحاسد والتباغض بينها ، ويوفر اسباب العيش لها فى سلام .. فاذا قال القرآن (**خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**) كان معناه ان الولي ملزم بأخذ حق الفقراء من الاغنياء وصرفه فى وجوهه الثمانية المتقدمة دون ابطاء .. لا ان يترك الامر الى الاغنياء يفعلون او لا يفعلون ..

ذلك ان كلمة (**خذ**) فى الآية الكريمة فعل امر ، والامر كالنهي فى التشريع الاسلامي صورة من صور اللفظ الخاص ، واللفظ الخاص اذا ورد فى نص شرعي تناول مدلوله قطعا ، وكان الحكم الثابت به قطعيا ما لم يدل دليل على صرفه عنه .. ولهذا كانت آية الزكاة هذه ملزمة ولي امر المسلمين ، لان الخطاب موجه الى النبي (ص) والى خلفائه من بعده ، ملزمة له ان يقوم بجمع الزكاة وصرفها فى وجوهها المنصوص عليها .. انما الصدقات للفقراء والمساكين .. الآية ، ومن اجل هذا قام ابو بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي عليه السلام يطالب المسلمين بادائها ، معتبرا اضرابهم عنها خروجا على نظام الاسلام وارتدادا عنه ، فكانت حروب الردة التي تبت بها ابو بكر رسالة الاسلام وقواعد المجتمع فيه .

ان فى هذا لابلغ رد على اولئكم الذين يسمون اشتراكية الاسلام بانها اشتراكية التسول والصدقة فى المفهوم الحديث .. وانها بهذا المعنى الاخير هي كل ما استطاع الاسلام ان يقدمه لمجتمعه من عدالة ومساواة .. ان الاسلام الذي دعا الى العمل ومجده وحض عليه لم تكن الصدقة بمعناها هذا فى حسابه كوسيلة تنهض بها حياة الافراد فالجماعات .. بل هي شيء يشبه اكل الميتة يباح عند الحاجة الملحة والضرورة القصوى .. ولكنها لا تعالج هبوط المستوى المعيشي للامم والجماعات .. هذه بديهية يعرفها كل من عرفوا محمد (ص) ودرسوا نفسية الاسلام . فلقد وضع عليه السلام الصدقة فى مكانها المواتي لها حين قال :

(انها اوساخ الناس .. انها غسالة ذنوب الناس) وحين قال ايضا فيها وفى تمجيد العمل : **(لان ياخذ احدكم حبله فياتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه ، خير له من ان يسال الناس ، اعطوه او منعوه)** وقد فسروا حديث **(اليد العليا خير من اليد السفلى)** بان اعلى الايدي هي المنفقة ثم المتعففة عن الاخذ ، ثم الآخذة بغير سؤال ، وان اسفل الايدي هي السائلة والمانعة .

لقد راى رسول الله حفيده الحسن يمد يده نحو تمرة من تمر الصدقة ويدفعها فى فمه ، فانتزعها منه وهو يقول : كخ ، كخ ، انها لا تحل لمحمد ، ولا لآل محمد ..انها اوساخ الناس .. فهل كان آل محمد طبقة ارستقراطية خاصة تابى الضعة والهوان لنفسها فى الوقت الذي تتخذه للناس شرعة ومنهاجا ؟ معاذ الله .. انما هو مثل رائع يضربه محمد بهذا المجتمع الصغير الذي هو اسرته ، للمجتمع الكبير الذي هو امته .

ولذلكم كان الامام الشافعي رضي الله عنه يفضل الاكل من شبهة على الاكل من صدقة ، ويقول عنها : **(انها تدع البطون عليلة ، والنفوس ذليلة)** فالدين الذي يحقر التسول ويمجد العمل ، لا يمكن ان يعالج مشكلة الفروق الطبقية فى المجتمع بالصدقات ، بل باشتراكية الحقوق والواجبات التى بها يستطيع المجتمع ان يقاوم الاعصار ، ويهزم العاصفة ، ويبلغ الشاطىء السعيد .

منذ ذلك العهد البعيد ، قبل اربعة عشر قرنا او يزيد ، بينما العالم يعيش في نظم كلها اثرة وانانية وقسوة .. يعيش القوي على حساب الضعيف .. على حساب عرقه ودموعه واعصابه ، وحيث كان القادة والمسؤولون يعيشون لانفسهم لا للجمهور ، وحيث كانت القوانين تفرض لا لتقيم عدلا او ترفع ظلما .. بل لتزيد القوي قوة ، والمستبد غطرسة ، في الوقت التي تضيف الى الضعيف ضعفا والى الفقير ذلة وعجزا

منذ ذلك العهد البائد ــ لا رد الله له غربة ــ طلع الاسلام على الناس بفكره التضامن الاجتماعي ممثلة في اشتراكية الزكاة ، فكرة التضامن او التكافل الاجتماعي التي لم تظهر في اوربا الا في اواخر القرن التاسع عشر ، حيث بدات عملها الضيق المحدود في نطاق الهيئات المحلية التي كانت تقوم باعانة المحتاجين لقاء شروط قاسية ، من اهمها تنازل المحتاج عن حقه في الانتخاب للجمعية التي تعينه او للحكومة التي تمده.

اما الاسلام فقد جاء بفكرة التضامن الاجتماعي او اشتراكية الزكاة دون شريطة ، فاعلن ان الناس متكافلون في الحياة ، وان على المجتمع حكومة وشعبا ان يرعى افراده العاجزين ، فلهؤلاء حق في اموال الناس واموال الدولة ، وان ضمان حياتهم وكرامتهم من الزم الواجبات التي يطالب بها الشعب والحكومة على السواء (يقول عليه الصلاة والسلام) : **(ان الله فرض على اغنياء المسلمين في اموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا وعروا الا بما يصنع اغنياؤهم ، الا وان الله يحاسبهم حسابا شديدا ، ويعذبهم عذابا اليما)** (رواه ابن حزم موقوفا على علي ، ورواه الطبراني مرفوعا) .

فلفائدة تلكم الطوابير المتلاحقة من المتسولين ، الذين يموجون في شتى مدن المغرب كالسيل الزاحف ، والذين جعلوا عشرة ايام قضيتها بفاس ، اشد وطاة على نفسي من عشر سنوات عشتها بعيدا عنها ... اولئكم الذين يثيرون اهتمام عديم الاهتمام بملاحقتهم الناس هنا وهناك ، يعرضون عليهم ــ وخاصة على الاجانب منهم ــ ماساتهم الانسانية الكاملة التي تعبر في بلاغة مثيرة حقا عما فعله الاستعمار بهذا الوطن الحبيب، وعما نشره في ربوعه من الوان الوحدة والتناغم والانسجام ، متمثلة هذه جميعها في هذه الطبقة من مجتمعنا ، هذه الطبقة التي تحالف عليها الفقر مع الجهل والمرض فتبرها تتبيرا .

لفائدة هؤلاء المعذبين ، ولصالح ميزانيتنا المغربية التي بلغ عجزها هذا العام سبع مليارات من الفرنك لمصلحة التسيير فقط ، اتوجه بطلب الى (**جلالة الملك**) ان يصدر قانونا بمشروع ضريبة جديدة تسمى (**ضريبة الزكاة**) قيمتها اثنان ونصف في المائة تدفع سنويا دفعة واحدة ، او على اقساط ، طبقا لنصوص الشريعة الاسلامية باعتبارنا دولة اسلامية ، تشمل جميع الاغنياء دون استثناء ، ويخصص مدخولها لعلاج مشكلة الفقر والتسول اولا وبالذات (**انما الصدقات للفقراء والمساكين الآية**) هذه المشكلة التي يجب ان تدرس دراسة موضوعية احصائية حصرية ، وان توضع لها الحلول الدائمة المنتجة ، لان هذه الحلول الارتجالية الوقتية التي تعالجها بها اغلبية جمعياتنا الخيرية ، والتي تشبه في راي الطب علاج مرض السرطان بحبات الاسبيرين .

ان الفضيلة ستبقى في اجازة ، والاخلاق في كساد ، ما دامت كل هذه الفروق في المستويات موجودة بين شطري الامة تسحق سلوكها وقيمتها سحقا ، وما دمنا نعالجها بالحمدلة والحوقلة فقط لا غير ، ان الشجاعة هنا هي العلاج وبدون شجاعة لا توجد معرفة، ولن توجد ايضا فضيلة .

ان العدالة الاجتماعية ابجدية زكاها الاسلام منذ احسن بانها هي الفضيلة ، وهي العلاج ، وهي ليست روسية الجنسية شيوعية الدم كما يشاع ، كما انها ليست الابن الشرعي للنظام الجمهوري كما يظن .. فانجلترا ليست شيوعية وليست ايضا جمهورية ، وهي التي رفعت الضريبة التصاعدية الى 94 في المائة ، واممت في سرعة البرق الملكيات الانتاجية الكبرى لفائدة الامة عموما والصالح العام .

لقد سجلت اللجنة المالية لمجلس النواب المصري في تقريرها عن مشروع الميزانية العامة لسنة 1950 ما ياتي بنصه :

« ان تنمية موارد الدخل القومي وكفالة العدالة الاقتصادية هي السبيل الى الاصلاح الاجتماعي الذي يبرىء المجتمع المصري من ادرانه ، وان مصر تعاني من قلة الانتاج وهبوط مستوى الدخل ما تعاني ، وانه يجب العمل على رفع مستوى الغالبية العظمى من الشعب التي افتقرت ولا تزال تفتقر .. الى مطالب العيش الاساسية لكي تحول دون انتشار النزعات المتطرفة ، اذ ليس ثمة شك في ان انحطاط مستوى

المعيشة وقسوة الفقر والمرض والجهل تربة لتفشي هذه النزاعات ، وان السبيل الى مكافحتها هو رفع مستوى المعيشة لكافة ابناء البلاد . فليست قوانين البلاد كفيلة بعلاج الداء ، بل ان العلاج الشاق هو استئصال الداء من منبته بالقضاء على أسبابه .. وقد اتجه التفكير الى تحديد الملكيات الكبيرة كوسيلة من وسائل تحقيق العدالة الاجتماعية ، غير ان تجارب مختلف الامم في هذا الشأن قد دلت على ان العدالة الاجتماعية لا تتحقق عن هذا الطريق وحده .. اذ في متناول الدولة تحديد دخل كل طبقة من طبقات الامة عن طريق فرض الضرائب بانواعها ، وعلى الخصوص الضريبة التصاعدية على الايراد العام » ا . هـ .

وما اشتراكية الزكاة .. وما نقترحه من انشاء ضريبة لها الا تأكيد لهذه المعاني ، جاء به الاسلام من مئات الاعوام .

ويدفعني الكلام على اشتراكية الزكاة الى الكلام على زكاة الفطر بصفة خاصة والحكمة في كونها تجب حتى على الفقير فضلا عن الغني . فقد روى الامام احمد وابو داود عن عبد الله بن ثعلبة عن ابيه ان رسول الله (ص) قال **(زكاة الفطر صاع من بر او شعير او تمر او اقط او زبيب ، على كل امرىء صغير او كبير ، حر او عبد ، ذكر او انثى ، غني او فقير .. اما غنيكم فيزكيه الله بها ، واما فقيركم فيرد الله عليه اكثر مما اعطى)**.

يالله .. مالهذا الاسلام ؟ يفرض زكاة الفطر حتى على الفقير .. ايريد ان يزيده على فقره فقرا ، وعلى ضعفه ضعفا ، كما كانت تفعل تلك القوانين الجائرة التي قلنا ان الاسلام نفسه جاء لمحوها .. معاذ الله ان يكون ذلك كذلك .

ان الاسلام قصد من فرض هذه الزكاة الهينة القيمة (صاع من شعير ... او نحوه) حتى على العبد والانثى والفقير ليعلمنا كيف نكون ــ ولو مرة كل عام ــ مثاليين في اشتراكيتنا ، ليعلمنا مبدا أسمى ، ليعلمنا « الايثار » او ما يسمى في الاصطلاح العام بالفداء ..

لقد قصت نساء اثينا شعورهن ليصنع منها الجند المحاربة حبالا في حرب اسبرطة .. فذهب هذا الحدث انشودة في فم الزمان .. يرددها تمجيدا للفدائية والايثار .

وقدمت نساء باريز في حرب السبعين بعض حليهن مساهمة منهن في الغرامة التي فرضها الالمان على سكان العاصمة ثمنا لفك الحصار .. فضرب التاريخ بهذا مثلا رائعا في الفدائية والايثار .

اما المسلمون فقد كان منهم ما هو اجل واسمى ... يروي البخاري ومسلم ان رسول الله (ص) وقف مرة يحث على البذل .. فلم تبق امراة تتحلى بشيء من الحلي الا رمته بين يدي الرسول لينفقه في وجوه الخير ..

ولما هاجر الرسول من مكة الى المدينة تطوع علي للمبيت في مكانه .. فداء له .. ولما وصل المدينة سارع الانصار الى مؤاخاة المهاجرين ، فكان انصاري اخ مهاجر .. ياتي به الى بيته فيشاطره كل ما فيه .. يشاطره ماله وثيابه وطعامه ودوابه ، وينزله منزلة نفسه ، لا يضن عليه بمساعدة ، ولا يبخل عليه بنصح او معونة ، حتى نسي المهاجرون غربة الوطن وفقد الاهل وفوات الثروة .. مما جعل القرآن الكريم يسجل هذه الظاهرة المثلى من الفدائية والايثار .. كي تبقى مع الزمن ملهمة الناس الانسانية الصاعدة حقا ، فيقول **(والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم ، يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ، ويؤثرون على انفسهم ولو كانت بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون))**

**
*

ذلكم الاسلام ، وتلكم اركانه الخمسة التي بني عليها ، تهدف فيما تهدف اليه ، اولا وبالذات ، الى تكوين الخلايا الحية المنتجة الصالحة في المجتمع ... وسبيلها الاولى الى هذا تنمية الحاسة الاجتماعية في الافراد ، موجهة اهتمامهم وعنايتهم دوما الى ان الانسان مدني بطبعه كما يقول افلاطون ، والى انه بانانيته وانعزاليته لن يساهم في تاسيس مجتمع او بناء امة بقدر ما يسهم في تعويقها .

بقي سؤال ، لا شك انه يقفز الآن حائرا .. ترى: ما علاقة هذا بالاخلاق ؟ وماذا كانت هذه اخلاق الاسلام .. فهل تريد لنا نحن المغاربة ان نبدا الانطلاق الى المستقبل من اخلاق كلاسيكية مضت عليها مئات السنين ؟ واذا كان ذلك حقا فاين التطور ؟. اين دعاء عمر بن عبد العزيز الخالد :

« يا الهي انفعني بعقلي .. واجعل ما انا صائر اليه ، احب الي مما انا مدبر عنه ؟ »

الحقيقة ان انسان هذا العصر انسان جديد .. وانه اذ يابى ان يكون امتدادا افقيا لسلفه ، يريد ان يكون امتدادا عموديا صاعدا ، وان غايته من الحياة ليست فقط ان يفلسفها ، بل ان يحياها .

وانا زعيم ان هذا هو ما دعا اليه الدين الاسلامي، وجعل ضمانته الكبرى هذه الاخلاق .

فعند ما اراد الاسلام — شأن الاديان جميعا — ان ياخذ بيد الانسانية نحو مستقبل افضل ، لم يكن بقصد وضع جميع التفاصيل والوسائل ، لانه اعلم من غيره باستحالة هذا وعدم جدواه ، بل من اجل ذلك قام بتفجير القيم العليا في شئون الحكم والاجتماع والتشريع والاقتصاد ، ودعا الى احترام هذه القيم وملاحظتها عند استنباط وسائل بلوغها .

ففي الحكم .. رسم الصورة الفاضلة له مؤثرا نظام حكم الجماعة **(وامرهم شورى بينهم)** وترك للناس مهمة استنباط التفاصيل وابتكارها ، كل امة حسب ظروفها ، وكل جيل حسب العصر الذي يعيش فيه .

وفي التشريع نهج نهجا مشابها ، فجعله سياجا للحق والعدل والمساواة ، ورفض كل قانون ينهض على انقاضهما ، وحتى لا يعوق الاسلام الناس عن التطور اعطاهم استحداث القوانين في حدود قيمه واهدافه **(لا ضرر ولا ضرر)** **(دع ما يريبك الى ما لا يريبك)** وهذا من الدين موقف جليل يهوي بافئدة الناس اليه ، اذ لا يشعرون معه بتأزم امورهم ، ولا توقف نموهم ، ولا ضياع مصالحهم .

وشبيه بمسلك الاسلام هذا حيال الحكم والتشريع ، مسلكه بالنسبة للاخلاق ، فهو يحض على اتخاذها نقطة الانطلاق الى المستقبل ، الى الفضيلة ، الى السعادة ، فيؤكد للناس ان الخير هو وصية الله الخالدة وان الشر طريق الهالكين .. ويلوح لهم بقيم سامية كمثال ، فاذا هم مسوقون بانسانيتهم نحوها ، عاملين على بلوغها ، بيد انه لا يمنع الناس من مشاركته في اصطناع الوسائل المؤدية الى هذه القيم ، ولا يزجر العلم عن القاء كلمته الاخيرة في الاخلاق .

فما هي نظرية العلم في الاخلاق ؟ يقول العلم : لكل سلوك انساني باعث ودافع ، اي رغبة توجهنا نحو غاية .. وان بواعثنا مزدوجة : فهناك الباعث الابتدائي ، وهناك الباعث الغائي .

فانت عندما تسلك سلوكا ما ، او تسير في عمل من الاعمال ، تحتاج لقوة تدفعك وغرض يناديك ، ان هذه القوة الدافعة الحافزة تمثل الباعث الابتدائي ، اما الغرض الذي يناديك وتسعى اليه فيمثل الدافع الغائي .

واخلاقنا انما توصف طبقا للدافع الثاني اي الغائي ، فاذا كان شريفا فاضلا ، كانت هي ايضا كذلك، واذا كان سيئا رديئا ، كانت هي الاخرى سيئة رديئة

والمحاولة الاخلاقية المثلى تبدا بتعلية الباعث ودعم سلطانه ، لان الاخلاق في واقعها الحق ليست الا بلورة الباعث وتجسيمه ... ولهذا فالذي يوصف بالحسن او القبح حقا هو بواعثنا لا اعمالنا .. فقتل الغير مثلا بينما تراه جريمة في حالة ، تجده فضيلة في اخرى ، تبعا لدوافعه .

فهو جريمة اذا كان الدافع اليه ، او الباعث عليه ، الاعتداء .

وهو فضيلة اذا كان الدافع اليه ، الباعث عليه ، الدفاع عن الوطن .

والباعث الابتدائي الاولي تلقائي ، لانه ينبعث من غرائزنا وقوانا الفطرية . اما الباعث الغائي فكسبي ، لاننا نختاره كنوع للغاية وللغرض اللذين ينبهان غرائزنا وقوانا .

ويضرب لنا (هاد فيلد) مثلا .. رجلا سياسيا يخدم وطنه وبلاده ، ان الدافع الاولي الذي ينبثق من غرائزه ويمنحه القوة والمغامرة قد يكون اهمية الذات وحب التفوق والظهور ، بيد ان اهمية الذات وحب الظهور يمكن ان يعبر عنهما تعبيرا رديئا كالزهو والكبرياء والعدوان .

فاذا عبر عنهما السياسي النظيف بخدمة بلاده ووطنه ، كان ذلك الدافع الغائي جليلا ، وكان السلوك عظيما .

واذن فالدافع الغائي هو الذي يعطي سلوكنا صفة الجمال او القبح ، وهو يواتينا بقدر ما نمنحه من رعاية واهتمام وانتباه .

وهنا يلتقي الاسلام بالعلم على صعيد واحد ..

وتلتقي فكرة الاسلام عن الاخلاق الصالحة ، بفكرة الديموقراطية الحديثة عن المواطن الصالح .

اما قبـــل :

فالى اية اخلاق ندعو فى فجر انبعاثنا الجديد .. ا الى اخلاق القوة التي كان يفرضها علينا الاستعمار من فوق ، والتي عطلت ارادتنا ، فسطلت بالتالـــي مسؤوليتنا عنها ، والتي كانت حجة لنا على الاستعمار ، قبل ان تكون حجة علينا ، ان اخلاق القوة المطلقة تعتمد على الالزام الناجز، ومن ثم لا تعين على الفضيلة ، لان نصيبنا من الفضيلة مساو لنصيبنا من الشعور بقوة ارادتنا .. يقول العلامة جويو : **اننا حين نقوم بواجب خلقي لا نفعل اكثرمن الكشف عن حدود ارادتنا وقوتنا)**

اذن فكل تعويق للارادة اساءة للفضيلة ذاتها ، وتتبير لها اي تتبير . واذن فلم يبق امامنا الا المناداة باخلاق الواجب كباعث وقيمة معا ، الواجب الـذي يردد مع توماس بين آيته الخالدة (حين يطرق الرقي باب امة من الامم يسال : اهنا تكر حر ، فاذا وجده دخل .. والا مضى .. فى شعب يقدر تمام التقدير انه اذا اساء فهم الحرية ، ومارسها ممارسة طاغية فقد وقع وثيقة عبوديته ، واتاح للفوضى ان تضعه تحت وصايتها من جديد ..

واما بعد .. فان فجرا جديدا قد اخذ يرن فى اذن مجتمعنا رنين الحب ، ويجلجل فى صدره جلجلة الوحي ، ويشيع فى وجدانه كنور الله .

فلنفتح له منافذ الى العقول والقلوب ، لنحقق املنا فى ان يكون فجرا صادقا ،لا ذلك الفجر الكاذب الذي تعقبه الكآبة والظلام . ولنردد مع شاعر الهند الكبير طاغور آيته الخالدة :

حيث العقل لا يخاف ، والهام مرفوعة عالية ،

حيث المعرفة طليقة ، والعالم لم تمزقه جدران التعصب

حيث تخرج الكلمات من اعماق الحقيقة .

حيث لا يفقد العقل مجراه فى صحراء التقاليد الميتة .

حيث العقل فى تقدم دائم نحو ساحات افسح من الفكر والعمل .

تحت هذه السماء من الحرية (رباه) دع وطني يصحو.

أهم المصادر :

القرآن الكريم . الحديث الشريف . اصول التشريع الاسلامي للاستاذ علي حسب الله . علـــم النفس والاخلاق : تاليف هـ . ا . هاد فيلد ترجمة الاستاذ محمد ابو العزم . الديموقراطية والتربيـــة تاليف : جون ديوي ترجمة الدكتور متى عقـــراوي وزكريا ميخائيل . (من هنا نبدا . هذا او الطوفان) للاستاذ خالد محمد خالد . اخلاقنا الاجتماعية للدكتور مصطفى السباعي.

الاتحاد المغربي

مزاياه . دواعيه . مصاعبه

للاستاذ :
عبد الوهاب بن منصور



خرجت فكرة انشاء وحدة بين اقطار المغرب العربي من حيز التصور والرجاء الى حيز التصميم والبناء ، فبين 27 و 30 ابريل المنصرم عقد بطنجة مؤتمر بين الاحزاب الثلاثة الكبرى القابضة على زمام السياسة والحرب فى تلك الاقطار لوضع الاسس التي ستقام عليها الوحدة المغربية فى المستقبل .

وحادث كهذا لم يكن ليقع دون ان يثير انتباه الاندية السياسية فى الخارج ، والمحافل الوطنية فى الداخل ، بل لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الاهتمام به فاق الاهتمام بمظاهر التقارب الافريقي التي برزت فى الشهر نفسه ، لان وجهات نظر الاقطار المغربية الثلاثة المجتمعة فى طنجة ، اشد تقاربا من وجهات نظر الدول الافريقية الثمانية الملتقية فى اكرة ، وامكانيات الاتحاد والتقارب بينها اكثر توافرا ، يضاف الى ذلك ان جبهة التحرير الوطني الجزائري شاركت فى مؤتمر طنجة باعتبارها عضوا عاملا لا عضوا ملاحظا ، والى هذه الجبهة تتجه انظار الزعماء السياسيين والقادة العسكريين فى العالم ، لانها هي ثاني طرف فى الحرب الضروس التي تدور رحاها منذ اربعة اعوام فوق اديم المغرب الاوسط ، ولان هذه الجبهة عرفت كيف تعصف بسمعة فرنسا فى الميدان العسكري ، وكيف تعرضها للانهيار كدولة لها ثقلها فى ميزان السياسة الدولية ، فلا غرو اذا راينا الدول التي يعنيها الامر توفد الى طنجة عددا من الجواسيس والمستطلعين ، والصحافة المكتوبة والناطقة والمصورة تبعث بجيوش من المراسلين والملقبين والملتقطين ، ولا غرو ايضا اذا راينا قضية الوحدة المغربية توضع على بساط الدرس ، باعتبارها جنينا تتمخض به ارحام الحركات القومية فى الشمال الافريقي، لا يلبث ان يرى النور ويخرج الى عالم الوجود بمجرد ما تضع الحرب الجزائرية ـ الفرنسية اوزارها، وهي واضعة اوزارها لا محالة بانهزام فرنسا العسكري، او تدخل اممي ، طال الزمان او قصر .

ولا نغفل ايضا عما خلفه مؤتمر طنجة فى نفوس الوطنيين المغاربة ـ ولا سيما قدماؤهم ـ من آثار الغبطة والرضا ، فانهم راوه يؤذن بتحقيق امنية عزيزة طالما جاهدوا فى سبيلها ، وبلوغ مرام تحملوا من اجل بلوغه كثيرا من التضحيات .

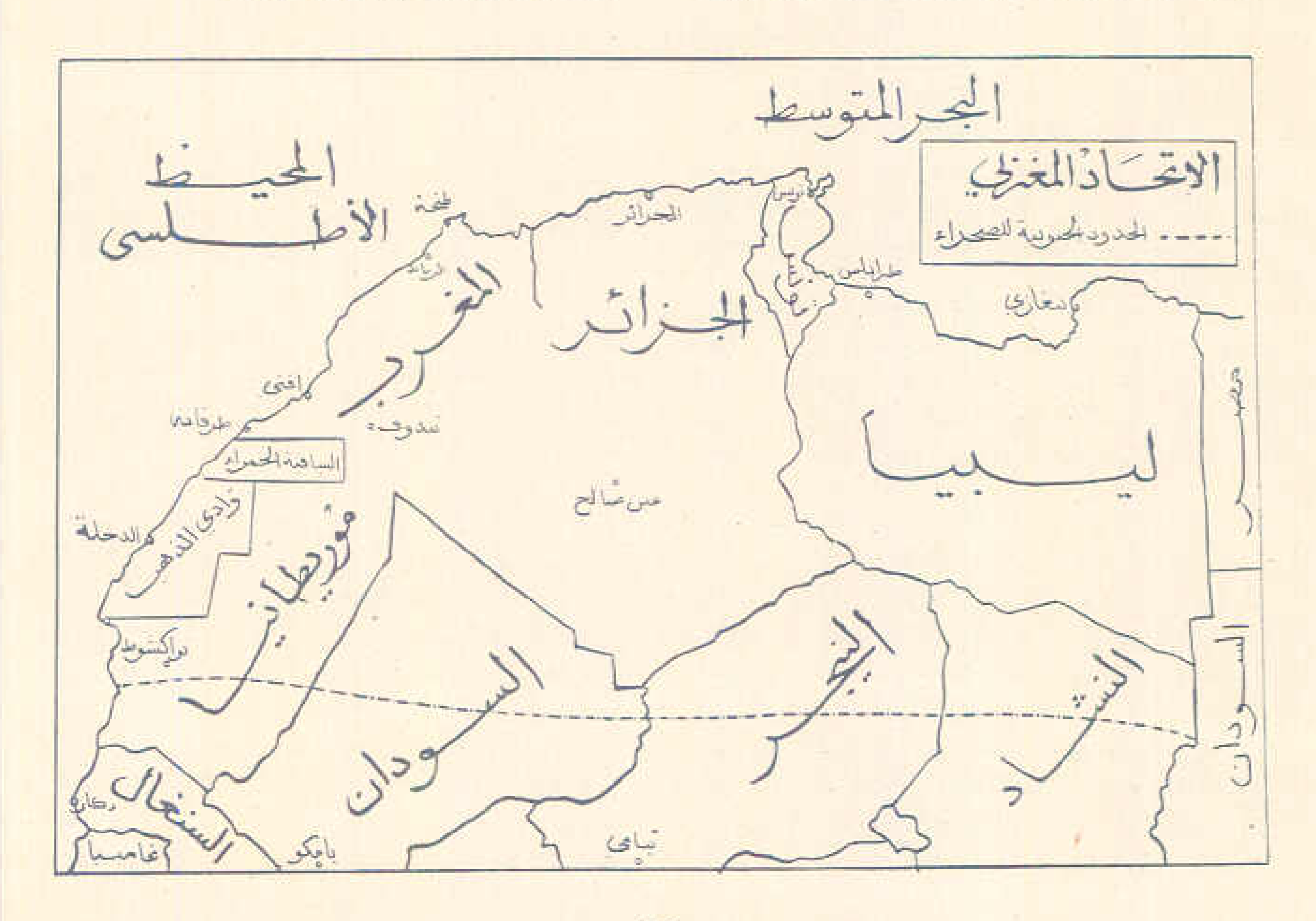
والواقع ان اقامة اتحاد او وحدة بين اقطار المغرب العربي اصبحت من الضرورات الحيوية الاكيدة، لا لوجود البواعث القوية الحادية الى الاتحاد ، الداعمة لصرحه فى المستقبل فقط ، ولكن لاجتناب كل سوء تفاهم بين هذه الاقطار وحفظ كيانها مجتمعة ايضا .

فمن جهة ستنشأ مشاكل وتستحكم خلافات ـ ان لم ينشأ هذا الاتحاد ـ بين الاقطار الثلاثة بمجرد ما تستقل الجزائر، ذلك ان فرنسا كانت تحسب ان سلطتها وامتدادها بالقارة الافريقية سيخلدان، وقد جعلت الجزائر قاعدة هذه السلطة وهذا الامتداد ، ووسعت من اجل ذلك اطرافها كثيرا على حساب المغرب وتونس وقد فتح الجزائري عينيه على خريطة الجزائر الحالية وهي تشمل ما بين الساقية الحمراء وليبيا ، والمتوسط والسودان ، ومن الصعب ـ ان لم يكن المحال ـ ان يقتنع بان جهات واسعة مما تشتمل عليه تلك الخريطة

لم يعرف الحكم الجزائري الا بعد مرور عشرات السنين على احتلال فرنسا للجزائر ، والمغاربة الذين يحدثهم التاريخ ان حدودهم امتدت غير ما مرة الى ما وراء نهر شلف ، والتونسيون الذين كان نفوذهم الى الاستعمار التركي يشمل عمالة قسنطينة، يصعب عليهم ان يسلموا بالاجزاء المتقطعة من بلديهم في عهد الاستعمارين التركي والفرنسي ، وسيحاولون استرجاعها كلا او بعضا ، وحينئذ لا مناص من حدوث صراع دام لن يستفيد منه الا جانب المتربصون بالمغرب دوائر السوء، فالوسيلة الوحيدة للنجاة من هذا الصراع في اقامة هذا الاتحاد ، ولعل الزعيم علال الفاسي كان ينظر الى ذلك عند ما ساله احد الصحفيين في طنجة عن مستقبل الصحراء بعد استقلال الجزائر ، فاجابه بانها ستنضم الى المغرب العربي المتحد ..

ومن جهة اخرى فان حفظ كيان هذه الاقطار في المستقبل لا يبيح بقاءها متفرقة ، فالعالم كله يسير نحو التحالف والتكتل ، وقد بدات دوله تتنازل عن اجزاء من سيادتها لصالح الكتل والاحلاف ، والوطنيات الضيقة والعصبيات المحلية فقدت كثيرا من معانيها واعتباراتها عند الامم الحرة والحديثة العهد بالتحرر ، لان هذه الامم التي اعتنقتها لاثارة الحماس الشعبي اثناء الفتوحات الاجنبية او التهديد بها ، لم تعد تحس باهميتها ازاء المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي واجهتها بعد زوال التهديد عنها او استرجاع استقلالها، واذا كانت الصين الشعبية والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة والكومنويلث البريطانية تسعى جاهدة لانشاء اتحادات دفاعية واقتصادية رغم قواتها وطاقاتها البشرية والاقتصادية الضخمة ، حفظا لكيانها وضمانا لرخائها ، فكيف لا تفكر في مثل ذلك دولة ليبيا التي لا يبلغ سكانها المليون عددا ، او دولة تونس الصغيرة الرقعة ؟

على انه ليس هناك شيء يعوق اقامة هذا الاتحاد ، فالبواعث عليه قوية متوافرة اكثر من قوتها ووفرتها في اي بلد آخر ، لا تستثني من ذلك الجمهورية العربية المتحدة التي يفصل بين اقاليمها الثلاثة بحران وثلاث دول ، ولا الاتحاد العربي الذي تعد احدى دولتيه امتدادا طبيعيا للشام وليس للعراق .



فهناك الوحدة الجغرافية بين اقطار المغرب العربي ، ولا اقول التقارب الجغرافي ، فكلها يقع فى جزء واحد من قارة واحدة على بحر واحد ، وليس هناك تفاوت كبير بينها فى المناخ والطبيعة الا ما يكون من تفاوت بين اجزاء القطر الواحد ، فالمتنقل من وجدة الى غليزان ، او من عنابة الى بنزرت ، او من جربة الى طرابلس، لا يحس بفارق طبيعي كبير كذلك الذي يحسه المتنقل من لينيغراد الى سيبا ستوبول او من اللاذقية الى الحديدة .

وهناك الوحدة السلالية ، فالمغاربة جميعا ينتمون الى السلالة البربرية المتكونة من عناصر شرقية واخرى غربية ، صهرها طول الاحقاب فى بوتقة واحدة حتى صارت جسدا واحدا ، لا يمتاز عضو منها فى جزء من المغرب عن عضو فى جزء آخر منه .

وهناك الوحدة اللغوية فان جميع اهل المغرب يتكلمون اللسان العربي المبين ، ويكتبون بالاحرف العربية ، وفى كل قطر بقية من اللغة البربرية القديمة عمل الاستعمار جهده لحفظها ولكنها الآن فى طريق الاضمحلال ، ولن تمضي خمسون سنة حتى تكون اختفت نهائيا من الالسنة المغربية نتيجة انتشار الثقافة واتساع شبكة المواصلات ، وكثرة التنقلات .

وهناك الوحدة الدينية ، فالمغاربة مسلمون يتبعون فى العقائد مدرسة ابي الحسن الاشعري ، وفى الفروع مذهب مالك بن انس ، لا يستثنى منهم الا عدد قليل من الخوارج الاباضيين الذين يبلغون اربعين الفا بواحات مزات (الجزائر) ومثلها بجزيرة جربة (تونس) وجبل نفوسة (طرابلس) ، وعدد قليل آخر من بقايا الاتراك المتعبدين على مذهب ابي حنيفة النعمان ، اما الطائفة اليهودية فاهلها كانوا معتبرين الى زمن قريب ذميين لا مواطنين ، وهم بعددهم الضئيل لا يقدحون فى الوحدة الدينية المغربية ، كما لا يقدح فيها من يمكن ان يتمغرب فى المستقبل من الطائفة المسيحية الاوربية التي استقرت فى المغرب بعد الاستعمار اللاتيني ، فمثل هذه الاقليات توجد فى كل امة ، وهي لا تؤثر فى شيء على الحياة الوطنية العامة ، سيما فى هذا العصر الذي تضاءل فيه الاعتبار الديني بجانب الاعتبارات الجزئية والاقتصادية .

وهناك وحدة الطباع والعادات ، وهذه بطبيعة الحال نتيجة من نتائج الوحدات المتقدمة ، فما تنطوي عليه نفس المغربي فى اقصى المغرب هو ما تنطوي عليه نفس اخيه فى ادناه ، وكل مظاهر الحياة الاجتماعية متشابهة هنا وهناك .

يضاف الى ذلك التاريخ المشترك ، فاقطار الشمال الافريقي كالحلقات المفرغة التي لا تطلق احداها حتى تمسك الاخرى ، او كالطبل الاجوف الذي ان نقرت احدى جهتيه سمع دويه من الجهة الثانية ، فما حدث حادث فى جانب منه ، او جد امر الا كانت له اصداء وظلال فى الجوانب الاخرى ، انشات عليشة ديدون قرطاجنة فانتشرت المتاجر البونيقية على طول ساحل المغرب ، وسيطر الرومان على تلك المدينة ففرضوا سلمهم عليه واقاموا حضارتهم به ، وعبر اليه الوندال فخلفوا فى كل جهة منه اشلاء وانقاضا ، وطلعت خيول العرب بالاسلام على طرفه الشرقي فامتلات اطرافه الاخرى عدلا ونورا ، ووضع نصارى شبه جزيرة ايبيريا اقدامهم فى احد مراسيه فتداعى لهم سائرها بالسقوط من اكادير الى طرابلس ، ودهمه بعدهم الاستعماران التركي واللاتيني فلم يبقيا ولم يذرا ، ثم ذر قرن الحركات الوطنية التحريرية التي تبلورت فيها ارادات شعوبه فى الاتحاد بما ساد قادتها من تعاون وانسجام فى الداخل والخارج ، وادراك الحقائق المستخرجة فى العبر التاريخية والمقتضيات العصرية.

فدواعي الاتحاد اذا متوافرة كثيرة ، وليس هناك ما يحول دون تحقيقه من فارق فى الجغرافية او اللغة او الدين او التاريخ .

فما هي الفوائدالتي سيجنيها اهله من انشائه ؟ وما هو الثقل الذي سيكون له فى الميزان الدولي ؟

والجواب على هذين السؤالين ليس بالعسير ، اذ من المعلوم بالضرورة ان كل اتحاد يكسب اصحابه قوة مادية ومعنوية ، ويجعلهم مسموعي الكلمة مرهوبي الجانب ، ويهيء للطاقات الكامنة فى نفوسهم فرص الانفجار والانطلاق لتغيير مجرى التاريخ

ويمكننا ان نتخيل من الآن دولة الاتحاد المغربي المرتقبة ، الواسعة جنباتها ، العديدة نسماتها المحتوية على ازيد من ثمانية وعشرين مليونا من السكان ،، وخمسة ملايين ونصف من الكيلومترات المربعة ، كما يتبين ذلك من الجدول التالي :

اسم القطـــر	مســاحتـــه	سكانـــه
المغرب : (الجزء المحرر)	520·380	12·000·000
المغرب : (الساقية الحمراء والدخلة)	300·000	300·000
المغرب : (موريطانيا)	943·000	900·000
الجزائر (مع اراضي الجنوب)	1·995·000	10·000·000
تـونـــس	167·000	3·800·000
ليبيــا	1·759·540	1·200·000
الجميــع :	5·684·920	28·200·000

انها ستكون الدولة الاولى فى القارة الافريقية بسعة رقعتها ، ووفرة سكانها ، وانتشار اسباب الحضارة فيها .

ومن البديهي انها لن تؤلف فى بادىء الامر الا من الاقطار الثلاثة الممثلة فى مؤتمر طنجة، ثم تدعى ليبيا للنضم اليها ، كما ستنضم اليها الاقطار والقطاعات الاخرى بعد تحريرها من الاستعمارين الفرنسي والاسباني .

وسيمكن اتحاد هذه الاقطار اهلها من فوائد عسكرية واخرى اقتصادية وثالثة انسانية الخ ...

ففي الميدان العسكري سيتوفر الاتحاد على حدود حصينة منيعة يصعب على اي مهاجم اختراقها ، اذ ستصبح البلاد المغربية (جزيرة) اما القارة الافريقية، يحدها بحران من الماء شمالا وغربا ، وآخران من الرمال شرقا وجنوبا ، وسيجد بين يديه رصيدا انسانيا ضخما يستطيع ان يعبىء منه جيشا عرمرما شديد الباس عالي المعنويات ، ان احسن تدريبه وتجهيزه لم يمكن قهره ، وسيتحكم الاتحاد فوق ذلك فى غرب المتوسط ووسطه لسيطرته على الضفتين الجنوبيتين لمضيق جبل طارق ومضيق صقلية ، كما ان شرق هذا البحر سيكون ميدانا بصفة مباشرة فى حالة نشوب صراع من طرف طيرانه واسطوله .

وفى الميدان الاقتصادي سيتيح الاتحاد لهذه الاقطار ان تنمي طاقتها الانتاجية وتنسقها فلاحيا وصناعيا ، فبرفع الحواجز السياسية يمكن استغلال المجاري المائية المشتركة ، واقامة مناطق صناعية واستعمال مراسي الاتحاد لتنشيط حركتي التصدير والتوريد ، فالمنطقة الواقعة بين نهري (ملوية) و (تافنا) والاخرى الواقعة على مجرى نهر (المجردة) ستصبحان غابات كثيفة الاشجار وريفة الظلال يوم تمنع مياه تلك الانهر من الوصول الى البحر ، وتحجز داخل سدود تصرفها للري ، والحدود الجزائرية المغربية ، سواء قرب وجدة ، او قرب بوعرفة والقنادسة ، ستشهد قيام صناعة ثقيلة لوجود الفحم والحديد والرصاص والمنغنيز ، فيها او قربها ، بكثرة ، وكذلك الحدود التونسية الجزائرية التي تكثر فى شطريها الشرقي والغربي مناجم الحديد والفوسفاط ، ولقد كان (ايريك لابون) المندوب الفرنسي السابق بالمغرب فكر فى انشاء هذه المناطق الصناعية المشتركة عندما وضع برنامجه الاقتصادي الشهير .

وسيتاح لمراسي مثل (الغزوات) و (عنابة) و (قابس) و (طرابلس) ان تنمو وتزدهر ، بتصدير خامات ومصنوعات المغرب الشرقي عن طريق الاول ، وتصدير فوسفاط وحديد الجزائر وتونس عن طريق الثاني، ومد انابيب بترول العجيلات وحاسي مسعود الى الثالث والرابع .

اما فى الميدان الانساني فان قيام الاتحاد يزيد اهل هذه البلاد تعارفا ، والاواصر الجامعة بينهم متانة ، وذلك بزوال الحواجز الصناعية التي اقامها الاستعمار منذ قرن ونصف ؛ فيصبح فى امكان البرقاوي ان ينتقل ويسكن ما بين الشلوح واكادير ،

وفي امكان الشنجيطي ان يتنقل ويسكن ما بين كورارة والبحر المتوسط ، ومما سيساعد على حصول هذه الزيادة في التعارف ، والمتانة في الروابط ان اقطار هذا الاتحاد تتوافر فيها شبكة من الطـــرق السياريـــة والقطارية ومجموعة من المراسي الجيدة والمطـــارات التي يسع بعضها اضخم الطائرات التي ينتظر الفراغ من صنعها سنة 1960 (بوبي 707 ودوكلاص 8) كما يرشد الى ذلك الجدول التالي :

القطـــر	طرق سيارات	سك حديد	مـراسـي	مطـــارات
المغرب	49.435	1.930	13	120
الجزائر	65.000	4.400	8	77
تونس	8.840	2.006	16	36
ليبيـــا	3.500	387	5	10
موريطانيا	2.000		2	؟

وهناك فوائد عديدة في ميادين اخرى لا نريد الاطالة بذكرها وهي لا تخفى على احد .

وبجانب هذه الفوائد توجد مصاعب ستسهل الحكمة التغلب على بعضها ، وبعضها ليس من السهل التغلب عليه .

فهناك مشكلة نظامه ، اذ المغرب وليبيا ملكيتان، وتونس والجزائر جمهوريتان ، والمغرب علـــى الخصوص شديد التعلق بالنظام الملكي ، وهو يعتبر الملك رمز وجوده وعنوان سيادته ، والى جلالة محمد الخامس تتجه الانظار لرئاسة الاتحاد لتضحيته المثالية في سبيل الوطن ، وعمله المتواصل لانهاضه ، ولحكمته ومهارته السياسيتين اللتين جعلتاه في طليعة الملوك والاقطاب الكبار ، وقد كان جلالته من قدماء الداعين الى هذا الاتحاد ، المرحبين بكل الخطوات التي تتخذ لتحقيقه ، وهو الذي وضع قضيته على بســـاط السياسة العالمية بصفة رسمية في التصريح الـــذي افضى به لمديري الصحف اليومية الاقليمية بفرنسا يوم 6 مارس الاخير ، ثم في الخطاب الذي القاه يوم عيد الشغل بالدار البيضاء بمحضر ممثلي الاحزاب السياسية الكبرى بالمغرب العربي غداة انتهاء مؤتمر طنجة ، وليس من حرج في ان يراس ملك اتحـــادا بعض دوله جمهورية ، فهذه ملكة الانجليز تـــراس رابطة الشعوب البريطانية المشتملة على دول جمهورية واخرى ملكية .

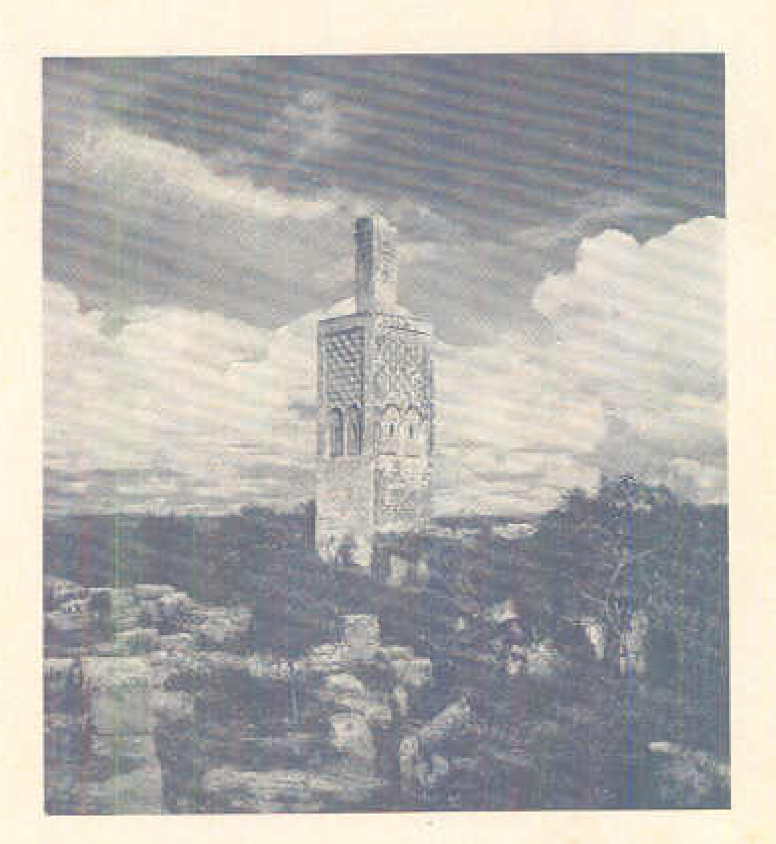
وهناك مشكلة الاقطار والقطاعات المستعبدة في جسم هذا الاتحاد ، ففرنسا تسيطر على موريطانيا والجزائر ، واسبانيا تمتلك اقليمي الدخلة والساقية الحمراء وسبع قطاعات بالمغرب الاقصى ، وايطاليا تسيطر على جزيرة قوصرة التونسية ، ولكل من بريطانيا والولايات المتحدة مصالح حربية وسياسية بليبيا، وتحرير هذه الاقطار والقطاعات من المسيطرتين السياسية والعسكرية شيء ضروري لقيام الاتحاد وحياته ، ولكنه لن يتم بغير مصاعب وآلام ، وان كان سيتم بكل تاكيد .

وهناك المشكلة الاقتصادية التي يتوقف حلها على رؤوس اموال وخبرة فنية ، والـــدول الاوروبيـــة والامريكية لها امكانيات واسعة منها ، وهي ترغب رغبة اكيدة في استثمارها واستعمالها لما تجنيه وراءها من ارباح ، ولكنها مع الاسف لا تظهر رغبتها في ذلك الا وهي تشترط شروطا سياسية واخرى عسكرية فيها مساس بالسيادة الوطنية ، وسيمر زمن طويل على الاتحاد قبل ان يستغني عنها وعنهم .

وهناك المشكلة الاجتماعية ، فاهل المغرب العربي يزيدون نصف مليون انسان كل سنة ، فينبغي اعداد العدة لاطعامهم واسكانهم وتعليمهم وايجاد الشغل لهم ، والدخل الوطني منخفض جدا ، فمعدله السنوي للفرد الواحد لا يزيد على ثلاثين الف فرنك ، وليست هناك كفاية من المدارس ولا من المستشفيات ولا من المساكن الصحية ، وتذليل المصاعب في هذا الباب متوقفة على الازدهار الاقتصادي .

وهناك مشكلة (الاختيار) ، فالعالم تتنازعه عوامل نزعات ومذاهب اجتماعية وسياسية عديدة ، وسيتعين على الاتحاد ان (يختار) مع عدم تبعية ، لان الحياد بلونيه الايجابي والسلبي ليس الا مضغة في افواه الديماغوجيين .

ان الاتحاد المغربي تكمن في ثناياه فوائد وتعترض سبيله مصاعب ، والمهم الآن ان يخرج الى الوجود ، وسيعرف اهله كيف يذللون المصاعب ، لان الذي يعترضهم منها متفرقين هوالذي يعترضهم مجتمعين، انه ارض المستقبل التي ستغير مجرى التاريخ في قارتين على الاقل .



صومعة مسجد – قصبة الاوداية – التاريخية ، وهي اقدم بناء بالرباط ، كانت تسمى بالمهدية نسبة الى المهدي بن تومرت ، تقع على ربوة مشرفة على نهر ابي رقراق والمحيط الاطلنطي ، وبها عدة آثار تاريخية ، أهمها باب الوداية البديع الذي يشهد بعظمة العصر الموحدي .

عن كتاب – المغرب – للاستاذ الصديق بن العربي

الدِّبْلُومَاسِيَّة المَغْرِبِيَّة في فجر العصر الحديث

للاستاذ : عبد الحق بنيس
خريج كلية الآداب - الجامعة السورية



هذا ملخص لقسم من اقسام الاطروحة التي تقدم بها الى قسم التاريخ ، بكلية الآداب ، بالجامعة السورية ، الاستاذ السيد عبد الحق بنيس ، ونال بها لقب الاجازة في الآداب ـ قسم التاريخ .

والاستاذ عبد الحق بنيس يعمل منذ رجوعه من سورية في اوائل السنة الدراسية الحالية ، مدرسا في الاقسام الثانوية بمدارس محمد الخامس بالرباط .. وهو من الشباب المغربي النشيط ، الواعي ، فنرجو له في بلاده مقاما طيبا ، ونشاطا متزايدا .

دعوة الحق

انني اود ان اتحدث عن ميلاد الديبلوماسية المغربية يوم ان برز مغربنا للميدان الدولي ، يجابه التيارات العالمية الجارفة ، ويقف منها موقف الحكيم الذي يلجا الى تحكيم القوة في محل القوة ، والى استعمال اللباقة والظرف حين تدعو الحاجة الى اللباقة والظرف .

فالرجوع اذن الى هذا الماضي ليس ضربا من ضروب العبث، وليس من قبيل زخرفة القول او تزويق الكلام ، وانما هو ضرورة ملحة لفهم احوالنا الراهنة ، وادراك ظروفنا ادراكا سليما لا لبس فيه ولا غموض . نعم ! اننا في حاجة ماسة الى خلق وعي صحيح ، يقوم على احترام تقاليدنا والتغني بمجدنا وحضارتنا .

اذا تكلمنا عن مهارة الديبلوماسية المغربية في فجر العصر الحديث ، فانما لندخل في روع الجميع اننا في الاستقلال عريقون وفي المجد والحضارة اصيلون . وموضوع كهذا يحتاج الى الكثير من الوقت لمعالجته ، ولكن نظرا لضيق المجال ، فانني سوف احاول ان احصر البحث في افكار رئيسية ثلاث . فنتعرض باديء ذي بدء الى الدول العظمى في العالم آنذاك ، ثم ندرس وضعية المغرب في الداخل ، واخيرا نتناول بالتحليل الكيفية التي جابه بها المغرب هذه الاوضاع الخارجية ، اعني كيف صمد لشتى التيارات الجارفة ، وكيف استطاع ان يثبت شخصيته الدولية .

وسنخرج في الختام بنتيجة هامة ، وهي ان المغرب لم يكن ابدا في معزل عن التيارات العالمية ، كما يزعم الكتاب الغربيون ، واخص بالذكر منهم الاستاذ هنري طيراس صاحب « كتاب تاريخ المغرب » . هذا الاستاذ الذي عقد فصلا من كتابه فيما سماه بعزلة المغرب .

لقد سيطرت على العالم في القرن السادس عشر ثلاث قوى تمثلت في دولتين غربيتين ، هما : اسبانيا والبرتغال ، وفي دولة شرقية هي الامبراطورية العثمانية الناشئة .

فاما الدولة الاسبانية ، فكانت متفرقة الكلمة في عهد الاحتلال العربي للاندلس ، ولعل السبب في راب صدعها وتوحيد كلمتها راجع الى دفع هذا الخطر العربي الذي جثم على ارضها ما يزيد على سبعة قرون . كانت اسبانيا منقسمة على نفسها يحارب ملوكها بعضهم بعضا ، ويتنافس امراؤها على السيطرة

والنفوذ ، رائدهم فى ذلك الاطماع الشخصية ليس غير . ولكن الكنيسة بما لها من وسائل دينية ناجعة ، استطاعت ان تذكي الحماس الديني فى النفوس لاسترجاع ما تبقى من ارض اسبانيا في يد العرب . فدب الايمان القوي في القلوب ، وهب الجميع متآلفين متحدين للزحف على غرناطة آخر مملكة عربية في الاندلس . ومما زاد في جمع الكلمة اتحاد فرديناند وايزابيلا عن طريق الزواج السياسي الذي باركته الكنيسة ، بل ، وسعت فيه كوسيلة من وسائل تمتين الروابط بين الملوك والامراء . هكذا سقطت غرناطة مخلفة حقدا دفينا في نفوس ابناء اسبانيا ، اذ كان وجود العرب على ارضها حافزا لها على الاخذ باسباب النهضة التي عمت كل ممالك اوروبا الغربية وقتذاك . ظهرت النهضة في شتى مرافق الحياة الاسبانية ، ولكنها اكتست حلة بهيجة في العلوم الجغرافية ، فبعد ان كانت فكرة كروية الارض محط جدال ونقاش بين الناس ، اصبحت الآن من الامور المسلم بها تقريبا ، وبعد ان كان المحيط الاطلسي مثار مخاوف ، ردحا من الزمن مخرت الآن مراكب كولومبس ورفاقه عبابه ، فوصلوا الى نهايته ظانين انها جزء من بلاد الهند ، ولكنها كانت امريكا . امريكا موطن الثروة والذهب ، وما هي الا فترة حتى ملكت اسبانيا المتحدة ، معظم اجزاء الدنيا الجديدة، فاصبحت بفضل ذلك امبراطورية استعمارية شديدة البأس قوية الامكانيات ، فليس من العجيب اذن ان تلتفت الى المغرب تحاول ان تاخذ بثارها وتنتقم لنفسها من الاهانة التي الصقها العرب بجبينها . فكان المغرب والحالة هذه في خط النار الاول من المعركة ، معركة الانتقام من المسلمين ، وكانت شواطئه الشمالية هدفا لهجمات متكررة يشنها الاسبانيون بين الفينة والاخرى . ان هذه الشواطىء هي التي اتخذها فيما قبل موسى بن نصير ، وطارق ابن زياد ، ويوسف بن تاشفين ، والمنصور الموحدي ، وغيرهم من صناديد المغرب ، اقول اتخذ هؤلاء من هذه الشواطىء قاعدة استراتيجية لاحتلال اسبانيا ، فلا عجب اذا هفت اليها الآن قلوب القادة الاسبانية تريد بسط سيطرتها عليها .

واما الدولة العظيمة الثانية فهي البرتغال . البرتغال عاصرت اسبانيا ، واخذت هي بدورها باسباب الرقي والتقدم ، واكتشفت هي الاخرى اكتشافات جغرافية ، ولكنها كانت تقول بفكرة الطواف حول افريقيا للوصول الى بلاد الهند مركز العقاقير . فاصطدمت في طريقها الى الهند بالشواطىء المغربية الاطلسية ، فاحتلت طنجة والعرائش وآسفي وآزمور ، وبنت حصونا منيعة كحصن (فونتي) بالقرب من ، اجادير) وبنت مدينة الجديدة ، ولا تزال آثار هذه المدينة الى الآن تشهد بذلك الاحتكاك البرتغالي — المغربي وهكذا كانت المصلحة الاقتصادية تحرك همم البرتغاليين في احتلال شواطئنا الغربية .

واما الدولة العظيمة الثالثة ، فهي الامبراطورية العثمانية الناشئة . هذه الدولة التي قامت على انقاض الامبراطورية البزنطية في العصر الوسيط ، فورثت املاكها واضافت اليها اقاليم العالم العربي من العراق الى بلاد الجزائر . وكانت هذه الامبراطورية تدعي انها تحمي حمى الاسلام ، ولذلك تسمي سلاطينها بالخلفاء واصبغوا على انفسهم حلة دينية قشيبة سهلت لهم فتح اقاليم العالم العربي . وبهذه الحلة نفسها ارادوا دخول المغرب ، ولكنهم فشلوا دون مسعاهم كما سيتضح لنا بعد قليل .

❊

ولنرجع الى داخل المغرب فنقول بانه في الوقت الذي تكالبت فيه هذه الدول كلها لاحتلاله كان محكوما من قبل سلالة مستضعفة هي السلالة الوطاسية . ففي عهدها اصاب المغرب عدة نكبات ، خروج العرب من الاندلس ، واحتلال الاسبان لمليلية ، ووصول الاتراك الى بلاد الجزائر ، واحتلال البرتغاليين لمعظم شواطئنا الغربية . فالوضع الداخلي اذن كان سيئا جدا ، ولكنه سوف لا يبقى كذلك ، بل ستنتظم حركة في منطقة السوس بزعامة السعديين ، وكان القصد منها تطهير البلاد من كل مظاهر السيطرة الاجنبية مهما كان نوعها. انها حركة مباركة حمل لواءها السعديون . وانها مهارتهم وديبلوماسيتهم ، فكيف استطاعت هذه الحركة ان تحمي الحدود وتطهر البلاد من كل معتد اثيم ؟ .

لقد لجأ ثاني سلاطينهم الملقب بالاعرج الى منطق القوة حيث ارغم البرتغاليين على اخلاء مراكزهم المحصنة في آسفي وفي عهد خلفه السلطان محمد الشيخ جلا البرتغال عن آزمور وفونتي ، ذلك الحصن الذي وصفه المؤرخون الاجانب بكونه امنع من عقاب الجو . وكان لسقوط هذه الحصون المتوالية في يد الجيش المغربي صداه الكبير في داخل البلاد وخارجها . فبالنسبة للداخل تحقق للسعديين ظفر كبير اكسبهم شعبية على حساب الوطاسيين الذين لم يستطيعوا درء الخطر الداهم عن البلاد . وبالنسبة للخارج اخذ الدول

العظمى تعتمد على المغرب وتريد جذبه الى فلكها لحفظ التوازن الدولي . فالامبراطورية العثمانية فكرت فى الاعتماد على المغرب واتخاذه كدعامة هامة فى وجه الغزو الاوربي للمغرب العربي . والاسبان والبرتغال اقتنعوا بجدوى التحالف مع المغرب للحيلولة دون تسرب الاتراك الى المغرب ، هذا التسرب الذي لم يكن من شانه ان يشكل خطرا على المغرب فحسب ، وانما على اوروبا نفسها . فهي لم تنس ذلك التوسع الاسلامي بالامس على يد العرب الذين اتخذوا من المغرب قاعدة عسكرية لاحتلال الاندلس كما سبق ان المعت الى ذلك من قبل . وهنا ظهرت الديبلوماسية المغربية ببراعتها وحنكتها ، واستطاعت الحركة السعدية ، بفضل هذه الديبلوماسية ان تلعب الدور الفعال فى حفظ استقلال المغرب من الضياع والزوال .

ولئن قتل السلطان محمد الشيخ فى محاربة الاتراك ، فان احد اولاده الملقب بالغالب حاول ان يحالف البرتغاليين والاسبانيين لتقوية جانبه تجاه الاتراك الطامعين فى استعمار البلاد وضمها الى اجزاء الامبراطورية الواسعة ، وقد دفع الغالب كثمن لهذا التحالف ميناء باديس بالقرب من مليلية للاسبان ، كما تخلى للبرتغاليين عن حصار الجديدة التي كانت قاب قوسين او ادنى من الوقوع فى قبضة المحاصرين المغاربة وهكذا شارك المغرب فى اول تحالف دولي ، تحذوه فى ذلك مصلحته الخاصة .

غير ان السلطان الغالب لم يوفق الى كسب الراي العام فى المغرب ، لان اخويه المعتصم والمنصور قاما يندذان بسياسة التحالف مع اعداء الاسلام صندا على اهل الاسلام . وجاء المتوكل بن الغالب الى العرش فامعن فى سياسة التحالف مع اوروبا واضطهد الاخوين اضطهادا دفعهما الى الذهاب الى القسطنطينية حيث شرحا للسلطان العثماني ما يتمخض عنه الموقف فى المغرب ، واقنعاه ان بقاءه مكتوف الايدي حيال هذه الاحداث الخطيرة ، سيؤدي حتما الى ضياع اقاليم افريقيا الشمالية كلها من يد العثمانيين .

ولم يجد الاخوان المعتصم والمنصور كبير عناء فى اقناع السلطان برايهما . وما هي الا فترة قليلة حتى وصلت الى فاس ، العاصمة ، حملة تركية بقيادة سنان باشا ، وذلك لمساعدة الاخوين على دخول العاصمة ، وعلى الاطاحة بالمتوكل القائل بجدوى التحالف مع اسبانيا والبرتغال . ولكن المسالة لم تنته بعد ، لان المتوكل يفر الى طنجة حيث حلفاؤه ، والاتراك فى المغرب يشكلون خطرا على استقلاله وسيادته ، وهنا سيظهر البطلان كثيرا من البراعة حين يصرفان بالمال افراد الحملة التركية ، فيرجعون الى سبيلهم بعد ان بات من الممكن ان يهيئوا الجو للاستعمار العثماني ، وعندما فرغ الاخوان من صرف الحملة التركية وجها كامل عنايتهما للتحالف الآنف الذكر . وفى معركة وادي المخازن الشهيرة ، اصيب هذا التحالف بضربة فى الصميم ، حيث قتل فيها ملك البرتغال سيباستيان، وسقط فيها حليفه المتوكل صريعا ، فانقشعت بذلك السحب المتلبدة ، واصبحت سماء المغرب صافية ، وارضه طاهرة وحكومته قوية وعظيمة ، ليس فى عين الشعب فقط ، وانما فى عين الدول العظمى ايضا .

وهكذا اخذت الدول العظمى تخطب ود المغرب ، واصبح مركزه الدولي قوي الدعائم ، بعد ان كان ريشة فى مهب الرياح ، فهذا سلطان تركيا يجدد اعترافه بالمنصور السعدي سلطانا على المغرب ، وهذه مملكة البرتغال تقضي نحبها اثر المعركة المذكورة ، وهذا بلاط المنصور يغص بوفود المهنئين من كل بقاع المعمور لعقد معاهدات الصداقة وحسن الجوار . وكل هذا بفضل الديبلوماسية المغربية التي راينا انها ما كادت تظهر فى الافق الدولي ، حتى اظهرت مهارة كبيرة فى استغلال الظروف ، بحيث لم تترك مناسبة ولا فرصة الا واهتبلتها لانقاذ المغرب من الورطة التي كاد ان يتردى فيها لولا مهارة هذه الدبلوماسية .



تحية

للشاعر الأستاذ
علي الصقلي



بزغت ، كقرن الشمس تزجي النورا ... للتائهين مع الدجى ، مسطورا

ومضت تشيد على العقيدة .. انفسا ... حيرى ، وتغرس بالعقول بذورا ..

وتميط عن وجه الجمال براقعا ... اسرفن في ابقائه مغمورا

واذا الجمال عن النفوس تحجبت ... آياته ، نمت البصائر عورا

***

يا « دعوة الحق » المقدس سره ... هاتي اشرحي لسنا اليقين صدورا

فكي عن العقل الشقي اساره ... فالعقل انكد ما يرى ماسورا

ودعيه يسرح في رحابك جامحا ... طورا ، وطورا لاهثا مبهورا

يعدو وراء الحق ، ليس يريمه ... حتى يرى ببيانه مسحورا

الحق عدته البيان ، فلا يكن ... الا كرائعة النهار ظهورا

فلربما عميت عن الحق النهى ... جهلا من الداعي له وغرورا

***

يا « دعوة الحق » المبين تحية ... كشذا الخزام يضمخ المعمورا

الحق الفى في يديك زمامه ... مستبشرا ، لا خائفا مذعورا

فاحمي به ركن الفضيلة وليكن ... بين الضلالة والهداية سورا

واليك شكرا لا يكدر صفوه ... اخلق بمثلك ان يرى مشكورا

دعاة مغاربة

عبد الله بن ياسين

للاستاذ محمد علي الكتاني



يزخر التاريخ المغربي بكثير من الوجوه اللامعة التي تستحق من الباحثين والمنقبين ان يميطوا عنها اللثام ، وان يظهروها للعيان بارزة الملامح ، سافرة الجمال وضاحة الجبين .

ورغم ان السير في هذا الطريق شائك ووعر ، ويتطلب الكثير من الصعوبات ويحتاج الى كثير من الجهود ، فان النتيجة حسنة على كل حال ، وفيها خدمة لمظهر من مظاهر عزتنا ما زال الستار لم يكشف عنه بعد . .

وامام الباحث الكثير من الشخصيات البارزة ، التي قدمت للبشرية كثيرا من الخدمات ، ورفعت راس الانسانية عاليا ، وبرهنت عن حيوية جديرة بالاعجاب ، وعن ذهنية ثمينة بالخلود . وليس ذلك يرجع الى مقومات خاصة عملت عملها ، او الى توجيه او ايحاء اثر اثره ، وانما يرجع ذلك الى سر يكمن في نفوس هؤلاء ، وبواسطته استطاعوا ان يبرزوا على مسرح الاحداث عمالقة من عمالقة التاريخ ودهاقنة من دهاقنته ! فالعظمة — احيانا — لا تستمد مقوماتها من الدرس والعمل والاحتكاك ، ولا تهيىء دعامتها من الاتصال واللف والدوران ، ولكنها تبرز سافرة لا يزينها الا نفسها ، ولا يحليها سوى ما يكمن فيها من ابداع ، وما يختفي فيها من اسرار . .

وامامي نماذج من هذا الصنف ظهروا على مسرح التاريخ المغربي ، وساهموا في خلق بنيانه ، وكانوا لبنة من لبناته . على سواعدهم نهض وبمجهودهم ظهر للعيان قويا يتحدى الزمن ويصمد امام الاحداث ، وليس من شاني ان اختار او انتقي فكلهم عظيم وفذ ، وكلهم كانوا شعلة نيرة تضيىء الارجاء وتوضح السبل ؛ وانما همي ان اقدم واحدا من هؤلاء كان له هدفه في الحياة ، وكانت سياسته تتسم بطابع الدعوة الى الله ، وتحث على التمسك باهداب الدين ، وبواسطة ذلك بنى مجدا وانشا دولة وخلف ذكرا حميدا .

وساحاول ان اصور نفسيته واخلاقه ، واستعرض بعض اعماله التي قد تخفى على الكثير ، وفيها مظهر عظمته ، وتستطيع بهذه الصورة الكاملة ان نجعل القارىء يحيا مع هذه الشخصية ، ويتقمص حاضرها، ذلكم الحاضر الذي تألقت فيه وشهدت مظاهر انتصار ، وعوامل نجاح ، وظهر فيه الصراع القوي بين الايمان والجهل والعقيدة والتعصب .

وبعد ، فمن هو صاحب هذه الشخصية ؟ انك ولا شك عرفت انه البطل المجاهد ابن ياسين الجزولي، مهدي المرابطين ، وباعث الروح في قبائل الصحراء . واحب ان الاحظ هنا ظاهرة واضحة في ظهور الدول التي تعاقبت على الحكم في البلاد المغربية ، فان ظهورها كان يعتمد — من جملة ما يعتمد عليه — على دعاة دينيين او على حركة دينية، وبهذه الوسيلة كانت الدول القائمة تجد سندا يدعم لها النجاح ، ويقودها الى الفوز. فلم يسجل التاريخ ان دولة في المغرب اعتمدت على حركة سياسية ظاهرة ، او دفعت المؤسسين لها دوافع تهدف الى المصلحة الشخصية او التملك لاجل الملك . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على تمسك الشعب المغربي بعقيدته ، وايمانه العميق الذي لا يتطرق اليه الشك ، او يعتريه الاضطراب . وتلك هي السمة التي جعلت هذا الشعب يتكتل ويتحد ويمتزج ، رغم اختلاف عنصر السكان ، فانمحت الفوارق وخمدت العصبيات ، وتلاشت الحزازات التي تنشا عن اختلاف

الدم ، واصبح الشعب عنصرا واحدا تثور ثائرته حين يرى الوطن في خطر ، وتدفعه روحه المتحدة المنسجمة الى الثورة على الاوضاع الفاسدة ، فيظهر الزعماء سواء اكانوا من العنصر العربي او العنصر البربري .

ولا حاجة الى استعراض التاريخ ، فيكفي ظهور الدولة المرابطية ، هذه الدولة اللمتونية التي تنتمي الى صنهاجة ذات الفروع العديدة ، والتي كانت تقطن الصحراء المغربية ، وتعيش فيها منعزلة ، طعامها اللحم واللبن ، وكان يمكن ان يظلوا في صحرائهم تائهين ، يسيطر عليهم الجهل ، وتطغى عليهم الحروب ، لولا ان ساقت اليهم الظروف الداعية ابن ياسين ، الذي ادرك ببصيرته ان قوة كامنة ، تختفي في هذا الاديم ، وان بالامكان لو وجدت الهداة والمرشدين ان تبرز للعيان قوية جبارة ، وان هذه الطوائف لا تستطيع اية قوة مهما كانت ان توحد صفوفها سوى الدين ، فهو الشعاع السحري الذي ينفذ الى الاعماق ، ويتغلغل في الافئدة ، فيلين القلوب القاسية والافئدة الصلدة ، ويبعث في النفس شعاعا من الامل ، ويفتح امامها نوافذ المعرفة واليقين ، فتتحدى الصعاب وتهزأ بالمخاطر . وسلك هذا المنهج فنجح فيه كل النجاح ، واستطاع ان يجعل من هؤلاء الذين لم يعرفوا طعم الخبز ولا تذوقوا لذيذ الطعام ، يسيطرون على دولة الاندلس ذات الرفاهية الممتازة والنعيم المتدفق .

ولنرجع الى عبد الله بن ياسين لنبدأ القصة من فاتحها . فمن هو عبد الله بن ياسين هذا ؟ لسنا في الحق نعلم عنه شيئا في مراحل حياته الاولى ، وكل ما يذكره عنه التاريخ انه كان تلميذا مخلصا لشيخه (وكاك بن زالو اللمطي) ، المربي الصوفي الذي كان يقطن السوس ، كما ان النسابين يعرفونه بانه (عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي بن ياسين الجزولي) . واذن فهو منسوب الى جزولة وهي فخذة سوسية ، اشتهرت باعلامها ودعاتها ، فلا بدع ان ينبغ فيها هذا الصبي الطامح ، الذي هاله ما هي عليه البلاد ، من جهل وميل عن الطريق المستقيم ، فالتجأ الى هذا المربي العظيم ، ليقوي من نفسه الضعيفة ، ويبعث في وجدانه الهائج المضطرب نوعا من اليقين ، وبصيصا من النور ، ولست ادري هل كان الطفل الصغير ، يعلم ماذا تخبئه له الايام ، وماذا سيحمل له الغد المجهول ..؟ ولسنا ندري ايضا ماذا كان يدور في نفس المريد الصغير، وهو منزو في زاوية شيخه اللمطي، يتابع قراءة اوراده ، ويذاكر القليل من العلوم ، ويزود نفسه بالكثير من الثقافة الروحية التي هي المعيار الوحيد لصفاء النفوس وصقلها وتطهيرها من ادران البشرية ؟ هل سيقف به السير عند حد التزود بهذا الزاد ، ام سيفك عن نفسه هذا الرباط ، ويخرج الى الناس مذكرا بالآخرة ، وواعظا منذرا ، يبصر الناس بامور دينهم ، وينهاهم عن الفواحش ما ظهر منها وما خفى ؟؟؟ .

وليس من شك في ان طغيان المادة اذ ذاك كان قويا ، فكان الناس يلجأون الى ثقافة روحية تنقذهم من مخالب الشيطان ، ورغم ما في هذا العمل من تواكل ، فانه كان الوسيلة المتبعة التي تحد على الاقل من غرور النفس ومطامعها ، وتجعل الانسان يهرب من الاوضاع الحاضرة ، يتقي بوروده ما لا يعجبه .

ومهما يكن فان الظروف كانت تهيىء صاحبنا لدور عظيم الاهمية ، وتدخره لمهمة ناجحة سيقلب بها وجه التاريخ .

ويجب ان نوضح ان (الربط) و (الزوايا) كانت اذ ذاك تقوم بمهمة عظيمة الاهمية ، فلم تكن تقتصر على اخراج المرشدين وكفى ، بل كانت تزود البلاد حتى بالعلماء والمفكرين ، الذين تصدوا بعد للتعليم واخرجوا جيلا صالحا ، ولذلك فابن ياسين لم يكن يقتصر على ثقافته الروحية ، بل كان يزود نفسه بالثقافة العامة ، ويدرس ويتعمق في فهم النصوص العلمية ، وكان كفاحه العلمي كفاحا مجيدا ، هو الذي اهله لكي يبعث الروح في لمتونة وينشئها من جديد .

وفد الحجيج الصحراوي

تعتبر الصحراء المجال الرئيسي للكثير من البرابر وعلى الاخص صنهاجة التي تنتمي الى البرانس ، والتي تعد من اعظم القبائل ، ولا يكاد يخلو اي قطر من اقطاره من بطن من بطونهم . حتى ليزعم بعض النسابين انهم ثلث البربر ... وقد تفرعوا بطبيعة الحال الى فروع ليست تهمنا الآن ، وانما الذي يعنينا ان كثيرا من هذه الفروع ، كانت تتطلع الى المجد وترنو الى العلياء ... واتاحت الظروف النجاح لقبيلتين ، هما : دولة بني زيري بن مناد ، ودولة لمتونة ...

وكان للمتونة منذ القديم الرياسة ، واستوسق لهم الامر ، واصبح لهم النفوذ الشامل منذ عهد (محمد ابن تيفاوت) الذي كان شخصية محبوبة ومحترمة . وعند موته انتقل امر هذه القبائل الصحراوية الى سيطرة (يحيى بن ابراهيم الكدالي) وهكذا دخلت قبيلة كدالة في الحكم واصبح لها الرياسة على قبائل تختلف في العادات والتقاليد ، ما زال الجهل يتحكم في

عقول الكثير منها ، ولم يكن الدين قد تغلغل في اعماقها الا سطحيا ، فقد كانوا يظهرون التمسك به ، ولكنهم لا يحافظون على طقوسه واحكامه ... وقد جرت العادة في البلاد المغربية ، انه اذا حل موسم الحج تالف وفد عظيم من الرجال الراغبين في اداء هذه الشعيرة ، يتراسه الحاكم العام ، ويضم خليطا من الرجال والنساء، ويرجع سبب هذا الى مخاطر الطريق وطول المسافة وصعوبة السير على انفراد ، فاتفق على ان يضفي على الرحلة هذا الجو الرسمي حتى تحتمي من الاهوال . وكان الوفد الحجيجي هذا يعلن عنه من قبل ، وينضم اليه كل طالب ، فاذا حل الابان خرج الكل على بركة الله ، شاقا طريقه على شكل قافلة تامة التجهيز ، مكتملة العدد والعدة ، ومستعدة لكل الطوارىء ...

وان دل هذا على شيء فانما يدل على اعتناء المغاربة بهذه الشعيرة ، وتفانيهم في ادائها رغم كل الصعوبات .

عندما دخلت سنة 427 هـ استخلف (يحيى) على رياسة صنهاجة ابنه (ابراهيم) وارتحل متجها الى الشرق منبع النبوة ، ومركز الاشعاع الروحي . وبعد ان ادى مناسكه ، وقام بفروضه على احسن ما يرام ، عاد عوده على بدءه ، وجعل طريقه كالعادة مصر فطرابلس فتونس ، وفي هذه الاخيرة عرج على بلاد القيروان التي كانت تنافس اذ ذاك قرطبة وبغداد ، فهي مركز من مراكز الاشعاع في افريقيا الشمالية ... وفيها المشرعون القانونيون ، والفقهاء الممتازون ، والوعاظ الاكفاء المرشدون . واعجب يحيى بهذه المدينة ، واستطاعت انوار المعرفة المنتشرة في ابهائها من ان تجلبه اليها وتوقفه الى حد . وهكذا التقى بالفقيه الزاهد (ابي عمران الفاسي) الذي كان بحرا في العلم لا ينضب له معين ، وعينا تتفجر بآيات الحكمة وصادق التعبير . وحضر دروسه واستمع الى وعظه وهديه ، فغشيه نوع من الوجوم ، وسيطر عليه نوع من الذهول اتكون قبيلة صنهاجة تدين بالاسلام ، ولا تعرف عنه اي حكم من احكامه ؟

— حقا ما اضيع قبيلتي ، وما اكثر ما اتحمل انا من مسؤوليات طوقت بها الى الابد .

وبدات الهواجس تراوده وتجسم له الخطر الذي يجتاح قبيلته . وكان لوعظ الشيخ ولانوار الحج الهادية اثره في نفس يحيى الذي صيغ من جديد ... فلم يكن من قبل يعرف الاسلام بهذا الصفاء ، ولم يكن يعهد فيه هذا الاتساع وهذا اليسر ، بل لم يكن يخطر في نفسه ان قدسية هذا الدين تتعالى الى هذا الحد .

ولم يجد مفرا من ان يقترب من الشيخ ، ذاكرا له اسمه ونسبه ومركز حكمه ، ومعرفا ببلاده وسكانها، وكيف ان الجهل غلب عليهم ، فهم لا ينقصهم الايمان ولا تعوزهم التوبة ، وانما تنقصهم الروح المدبرة ، واليد الآسية التي تحنو في رفق وتقاوم في غير شدة . وطلب من الشيخ ان يغرس شجرة في هذه التربة وان يمده ببعض طلبته ، كي تنقذ هذه البلاد ، ويتطهر اهلها .

لم يستصعب الشيخ (ابو عمران) طلبا كما استصعب هذا الرجاء ، فالمهمة التي القيت على عاتقه صعبة وشاقة ، فهذه الصحراء التي سيحمل اليها النور . خشنة العيش ، صعبة الحياة ، واهلها اصحاب طباع جافة . وقد الفوا حياة لا يقدر عليها غيرهم . فمن يا ترى يستطيع ان يقوم بهذه التضحية ويفارق اهله وخلانه ، ويهاجر في سبيل هذه المنفعة ؟ كانت المهمة تستدعي كثيرا من البذل وكثيرا من التضحية وليست هي بتلك السهولة التي كان يتخيلها (يحيى الكدالي) .

البحث عن المرشد

نشر الشيخ الفكرة بين تلاميذته ، بعد ان دعاهم لجمع عام ، ووضح لهم الهدف الذي يرمي اليه يحيى ، وندبهم للقيام بالمهمة المقترحة واحدا واحدا ... ولكنهم احجموا واشفقوا على انفسهم من هذا المصير المحفوف بالخطر ، ولم يستطع اي واحد ان يكون من ذوي العزائم الصادقة فيقدم على العمل غير هياب ولا وجل ... ولكن عزيمة الشيخ لم تلن ، وايمانه لم يضمحل تجاه هذا العصيان الغير المقصود ،وكان ما يزال في كنانته سهم يدخره للخاتمة ، ولم يجد مناصا من استعماله . فهنالك تلميذ مخلص عرف الشيخ قديما ، ويسكن الآن بلد (نفيس) من ارض المصامدة (بلاد السوس) فلم لا يكتب اليه عساه يحقق هذه الرغبة .

ونفذ الفكرة بالفعل ، وكتب الى التلميذ قديما ، المربي حديثا ، (واكاك بن زالو اللمطي) كتابا خاصا يرجوه فيه تزويد يحيى بمن يثق بدينه وورعه ، ولم يكن هذا الشيخ السوسي ليرد هذا الطلب ، وهو الذي بنى رباطا للعبادة والعلم ، وهيا نفسه للاصلاح والارشاد ... وتبحر في العلم تبحرا جلى به في ميدان المعرفة ، واعتبر من رجال التشوف الذين خلصت روحهم من الكدرة ، وطهرت نفوسهم من الرجس ،

واصبح المصامدة يتبركون به ويستسقون به اذا اصابهم قحط . . . فهل سيعجز وهو صاحب هذه المكانة عن تحقيق المعجزة ، وان يلبي هذا الرغبة التي كانت واضحة فى وجه يحيى المتلهف على النجاح فى مسعاه ، ورغم ان (وكاك) كان يعلم ان المهمة لا يقبلها الا زعيم من طراز خاص . فان بصيرته كانت تستشف المستقبل ، وتعلم ان من تلامذته من سيحمل هذه المهمة بصدر رحب ، ويرضى بها فى ايمان وثقة . وقد كان كذلك حين تقدم احد الطلبة الحذاق النبهاء ، وقبل الذهاب بدون تردد ، ولم يكن هذا الشخص سوى (عبد الله بن ياسين) الذي وصفه ابن ابي زرع بانه من اهل الفضل والدين والتقى والورع ، والفقه والادب والسياسة ، ومشاركا فى العلوم . . . وليس من شك فى ان هذه صفات تؤهل صاحبها لخوض معارك قاسية، وتضمن له النجاح فى عمله ان عرف كيف يستغلها الاستغلال المناسب . وهكذا هيئت الاقدار هذه المشاهد المتتالية ، لنرى فى الختام ، هذا المرشد الذي كانت تنتظره الاجيال ، يخرج دولة من العدم ويؤسس مملكة اتسعت دائرة حكمها ، فشملت المغربين الاقصى والاوسط ، والاندلس ، وحطمت تيجان ملوك الطوائف.

ابن ياسين يدخل الصحراء

دخل الطالب الصغير الى هذه البلاد الواسعة دخول المطمئن الواثق بنفسه ، ولم يكن يعبأ بشيء او يتخوف من فشل . وانما كان يعينه ان يتعرف موطن الاحساس فى نفوس رعاياه الجدد . فهو بمثابة الطبيب الحاذق لا تلهيه المظاهر البراقة ولا المشاهد المألوفة عن تلمس موضع الداء ، ليضع الدواء فى مراكزه . . . ولذلك فان الاحتفالات والترحيب الذي قوبل به لم يكن ليقعده عن مهامه ، او يلهيه عن ماموريته التي نصب نفسه للقيام بها .

وتصدى للتبشير من اول وهلة ، بعد ان ظهر له ان الخطر كامن فى كل وجهة . فالعوائد الضالة قد تحكمت فيهم تحكما مدهشا . والتقاليد سيطرت على نفوسهم سيطرة لا تقتلع جذورها بسهولة ، فالرجل قد يتزوج من النساء ما يزيد عن الحد الشرعي ويفخر بذلك فى يسر وسهولة . والمنكرات قد فشت فى الاسواق والمجتمعات وكأنها حالة طبيعية . وليس من السهل عليك ان تخاطب رجلا فى شهواته ، او تحد من غلوائه حين تكون المرأة ملك يمينه . . . ولكنه لم يأت ليشاهد هذا الاعمال المنكرة ويسكت ، فليرفع الصوت بالنكير ، ولكنه كان ينفخ فى رماد ، ويصيح فى واد . أيستمع اليه من غلب عليه الجهل وتحكمت فيه التقاليد؟ أيجيبه من لا يعرف من الاسلام الا الشهادة ولا يدري من شرائعه شيئا حتى يرق قلبه ويخشع فؤاده ، اذا هو ذكره بامر الله ونبهه الى قواعد دينه ؟ لذلك رأينا الطالب العنيد يضرب اخماسا فى اسداس ، تاسفا على هذا الشعب الشجاع الذي ترك لهذا المصير . ولكنه لم ييأس ولم يتطرق الوهن الى قلبه وشعوره . فكم من الحالات المستعصية يمكن علاجها ويسهل تلافي مضاعفاتها اذا عرف السبيل الى ذلك .

وبدا يجرب خطة . . . خطة ابانت عن فهم سديد ومعرفة دقيقة بنفسيات البشر . فلكي يثير فيهم احساس الندم ، ويوقظ فيهم الشعور بالحاجة الى التوبة ، ويهيج ضمائرهم الخامدة . قرر الاعتزال والابتعاد عنهم ، وكأنه يجعلهم وجها لوجه امام ضمائرهم ويجعل انفسهم شهداء عليهم فى جريمتهم النكراء . ايهيئ لهم القدر من ينتشلهم ويركلون باقدامهم النعمة ؟

نعم قرر العزلة فى جزيرة خاصة ، وتنسك هناك مع يحيى الكدالي وسبعة نفر من كدالة ، وابتنى هناك رباطا للعبادة ، يعيشون فى عزلة مع انفسهم يناجون ربهم فى صمت ، ويهزجون بدعائهم فى خشوع ، ويصهرون انفسهم فى اتون من الصبر والرضا والقناعة . . . ولم تكن اخبارهم لتخفى ، وقد ارتفعت مكانتهم فى اعين الباقين ، حيث وسموا بانهم فروا بدينهم من الضالين المضلين . فلا بدع ان يتأثروا وان تتسرب التوبة الى قلوبهم ، وان تتحرك فيهم عوامل الندم ، فيسرعوا الى يقينهم الذي تركوه ، ويثوبوا الى ايمانهم الذي اوشكوا ان يفقدوه . وها هي طوائفهم تتسارع الى عزلة ابن ياسين ، وتنضم اليه واحدة اثر الاخرى، حتى تكاثر العدد ووصل الى الالف ، وطبيعي ان يفرح بهذا العدد الذي ضم الكثير من اشراف صنهاجة ، وان يشرق قلبه بالفوز ، فهذه اللبنات ستضع اسس المستقبل . ولذا عكف على تلقين هؤلاء العلم والمعرفة، وسماهم المرابطين . لكونهم دخلوا معه فى رباطه .

الشروع فى العمل

لم يتوان او يتكاسل بعد ان حصل على هذا الفوز المبين ، فهو كان سيكتفي باقل من هذا المقدار ، وها هي الظروف تساعده، والاقبال يتزايد على برجه الخاص. فهل سيضيع هذه الفرصة، ويوقف هذه الفورة العارمة من القلوب المتلهفة الى الايمان ، والمتطلعة اليه فى ثقة واطمئنان ، والتي حسبه ان يلقى اليها بالكلمة لتتبعه انى شاء ، لا تسأله الى اين ولماذا . . . لذلك فليس من اللائق ان يقف برسالته عند هذا الحد ، وهو الطموح

المتطلع الى المعالي ، المتشوق الى بناء عز شامخ . فهو يكمل رسالته التي انيطت به ، وسوف يحمل على البقايا التي ما تزال ملتكئة ، والتي لم ترد ان تستمع الى صوت الحق والنجاح ، سوف يعطيها الدرس الناجح في حياتها ، وسوف يتغلب عليها رغم ترددها وانحيازها الى الصمت الرهيب . ايترك هذه القوة تذهب هباء بدون استغلال ؟ لم يكن يريد ان يكون كاساتذته يبنون رباطا للعبادة ثم ينغمرون فيه الى الابد . انه يريد ان يخرج الى الحياة ليجالدها وتجالده ، ويعرض ارادته عليها ، ويرسم نفسه زعيما رغم انف الزمن .

ولم يرد ان يسلك سياسة الارتجال تجاه الطوائف التي ما زالت لم تقبل الخضوع، بل كان يعتمد على لبقاته ومعرفته لنفسيات هذه القبائل المستعصى امرها . واختار لهدايتها وارشادها الرؤساء الذين آمنوا به ودخلوا رباطه ، فبواسطتهم يستطيع ان يضربهم الضربة القاصمة ، ولكن بعد انذار وتنبيه ، وهو كان يومن سلفا ان هذا الانذار سيكون عديم الجدوى ... ولكنها خطة اختطها ويجب ان يستمر فيها الى النهاية. وقد شارك في الانذار بدوره واستمر طيلة سبعة ايام ، وهو يخوف ويهدد وينذر ويوعد ، والقوم لا يزدادون الا عتوا ، ولا يقبلون اذعانا . وهناك شرع في الخطوة الثانية وهي الحرب ، فاشهر سيف نقمته ، وصب جام غضبه على المخالفين ، فانهزم امام عزيمته قبائل (كدالة) اولا، ثم (لمتونة) (ومسوفة) ، وتتابع العصاة يقدمون توبتهم واخلاصهم . ولم يكن يقبل هذه التوبة بدون ان يضع لها علامة خاصة ، ولم تكن هذه العلامة سوى ان يضرب كل واحد مائة سوط ، ثم يلقنه بعد ذلك التعاليم الصحيحة ، وقد يعترض على هذا النهج بان فيه نوعا من الجفاء والخشونة ، وقد يسم بعض المتنطعين هذا الاجراء بانه تعسفي ، ولكن الحقيقة تكذب هذا ، فقد تظهر التجربة ان بعض الاقوام لا تنفع معهم الا الشدة ، وانك لو ظللت الدهر كله ، تخاطبهم باللين وتتبع معهم الاجراء العادي ، تفشل لا محالة ، على ان آخر الدواء الكي ، فهو قد استنفد جميع الوسائل ، واداه اجتهاده وتمرسه بالاحداث الى ان هذا العمل خير معوان على النجاح ...

وقد نجح بالفعل ، وكان الجميع يتقبل هذا التطهير الجسدي بغاية الانشراح ، وينضمون الى الغزاة ليحاربوا بقية المخالفين بعزيمة لا تقهر ، وايمان لا يتبدد .

ونلمس ظاهرة جديرة بالملاحظة في هذه الفترة ، تدل على حرص هذا الداعية على نشر كلمة الاسلام ، وتشجيع القوامين عليه ، ذلك ان الاخماس والزكوات وطائفة مهمة من المال التي كانت تتوفر له ، لم يكن ليصرفها على نفسه ، او يستمتع بها ارضاء لنزواته ، وانما كان يبعث بها الى طلبة المصامدة ، وقضاة الشرع فيها ، تشجيعا لهم على الدراسة ، وترغيبا في احلال الدين محل العوائد والتقاليد ...

واخرى يجب ان نهتم بها ، وهي انه بعد موت (يحيى الكدالي) ، كان بامكانه لو اراد ان يجمع السلطة في يديه ، ويتحكم في مصير الصحراء وبلاد السوس بدون معارض ... ولكنه عزف عن ذلك ، واكتفى بتلك السلطة الروحية التي ملكها عن جدارة ، ونقل الامر الى فرع لمتونة الذين نسبت الدولة اليهم بعد ، وظهر منهم (يوسف بن تاشفين) بطل الاسلام والمسلمين .

فهذا ان دل على شيء فانما يدل على انه خط لنفسه خطة لا محيد عنها ، وهي التبشير والانذار ثم التوجيه والارشاد ... وكفى بهذه راحة لضميره وغذاء لوجدانه ...

على انه كان يفكر بعيدا ، فهو لا يريد ان تبقى هذه الدعوة النيرة مقتصرة على هذه الارجاء ، ولا ان يستمر هذا المشعل في هذه الرقعة المحدودة ، بل كان يطمح في توسيع دائراتها ، وجمع كلمة المغرب الذي مزقته الاهواء وتحكمت فيه النزعات ، واضحى نهبا لاقطاعيين همهم ارضاء نزواتهم في الحكم والرياسة ، ولكي يحقق هذا التوسع كان لابد له من ان يبقى بعيدا عن ميدان السياسة والحكم المباشر . وان كان في الحقيقة هو المدبر لكل الاشياء .

المعركة داخل المغرب

لم يبخل الحظ على ابن ياسين ولم يترك ساحته، فها هي الصحراء قد دانت كلها بالطاعة ، وها هي ارجاؤها تتجاوب بالايمان بالله وتسبح بحمده . فهل يقتنع بهذا وحده ، وهل ستكتفي نفسه الطموح بهذا المقدار من النجاح ؟

اغلب الظن انه كان في نفسه يدبر الخطط ويهيء البرامج ... ولكن الحوادث كانت تسبقه دائما ، وها هي بلاد المغرب تتفتح امامه بسهولة . وها هي سجلماسة تدعوه وتلح في الدعوة ، وترجوه على لسان فقهائها واشياخها ، ان ينقل دعوته الى جوانبها ، وينشر فيها النور والصلاح كما نشره في غيرها ...

وسجلماسة قطر مهم يعتبر صلة وصل بين الصحراء وداخل البلاد ، وقد اختطها عيسى بن يزيد الاسود على رواية ، ومدرار بن عبد الله على اخرى . وكانت تتميز بسمة الحسن فى طبيعتها وهيئة بنائها ، وقد سيطر عليها بنو مدرار الذين ينتسبون الى مكناسة، وانقرض حكمهم على يد مغراوة ... ولكن مغراوة لم تحسن السير مع سكانها ، وسرعان ما حل الناس سيطرتهم ، وواتتهم فرصة ظهور ابن ياسين فارادوا التخلص منهم نهائيا ... وهكذا رايناه يفتح هذه المدينة ، ويقطع منها دابر الفساد الذي عشعش فى قصورها ودورها ، وانزل ضربة قاضية بالامير مسعود ابن واندين الزناتي . وهكذا اصبحت ساحة سجلماسة وبجانبها منطقة درعة مطهرة من الرجس ، يعلو فيها نور الحق ، ويسيطر عليها داعي الله ، وتتابعت المعارك فى السوس ، بعد ان فتحت الطريق امام ابن ياسين ، فانضمت (جزولة)و (ماسة) ومعقل السوس الحصين (تارودانت) ، هذه المدينة التي كانت ترزح اذ ذاك تحت سيطرة طائفة من الروافض ...

ولم تكن نشوة النصر لتوقف ابن ياسين وصحبه فهم حماة دعوة دينية سمحة ، لاتنهار ازاء التطورات ، ولا تضعف تجاه المغريات . فليستمروا فى سعيهم النبيل ، وليقدموا راحتهم ضحية لهذا العمل النبيل . وكانت فورة النجاح تدفعه الى متابعة الخطو ، وتحفزه لمتابعة الجهود ... فرايناه بعد فى بلاد المصامدة ، ونواحي الاطلس الكبير ، يضرب ضرباته الموفقة ، ويقضم ظهور الضالين المضلين ، حتى دخل اغمات دخول الظافرين المنتصرين سنة 449 هـ وهكذا حيزت معاقل الجنوب بسرعة مفرطة ، وتغلب على اجزاء كان من الممكن الا تحاز الا بعد ان تسيل الدماء وتفنى الجهود ، ولكن سيل النجاح كان يطفى على كل شيء ، وامارات الفوز كانت تخف من كل الاخطار ، وتجعل الكفاح سهلا لينا .

مع البرغواطين

واخيرا وقف وجها لوجه مع قبائل برغواطة ، هذه القبائل التي جاهرت بالكفر ، وانشأت ديانة خاصة بها ، واستطاعوا ان ينتشروا بكثرتهم فى مناطق تامسنا — الشاوية — الغنية بارضها الممتازة بجودة تربتها ، فكان لا بد ان يقف معهم موقف حياة او موت، فهو لم يتهاون ازاء المترددين ، ولم يضعف تجاه العصاة ، فما بالك بهؤلاء الذين استعصى امرهم على كثير من الامراء ، ولم يستطع المغراويون — رغم محاولاتهم العديدة — القضاء عليهم ولا الحد من نشاطهم فالواجب دعاه لان يقدم حربهم على كل شيء ، ويخلص البلاد من مجوسيتهم التي دنست ارجاء هذا الوطن المومن .

والواقع ان برغواطة يرجع فسادها الى (صالح ابن طريف) المتنبيء ، وهو رجل خبيث النزعة يهودي الاصل ، قرا كثيرا وتنقل فى الاندلس والمشرق ، ولم يجد مكانا خصبا لشعوذته ونفاقه الا هذه البلاد التي اغرى اهلها واستطاع ان ينفذ الى اعماق قلوبهم ، واستهواهم باساليبه الشيطانية حتى اصبحوا اطوع له من بنانه ، وهناك شرع ينفذ فيهم تعاليمه ، التي تحتاج الى شرح طويل ، وربما تناولناهم بالدرس فى حديث مقبل باذن الله .

لذلك فمحاربة هذه النحلة واجب اكيد ، جند ابن ياسين من اجله كل جهوده ، ولكن مع الاسف لم يشهد فى ختامه نتيجة كفاحه ، اذ استشهد — رحمه الله — بعد معارك طاحنة وملاحم شديدة . وهكذا انطفا هذا النجم اللامع ، وخبا هذا الشعاع الذي كان ينير الارجاء . وكان القدر يرسم له خطوطه النهائية ، ويهيء له هذه الخاتمة النبيلة ، التي لا تكون الا للابرار المتازين . فقد انتهى هذا الشخص النبيل الانساني العظيم ، بدون ضجة او عويل ، وعلقته اوهاق المنية وهو يشهد هذا الصراع الجبار بين عقيدتين : عقيدة مخلصة تتعالى جذورها الى السماء ، وعقيدة زائفة بناها صاحبها لاغراض دنيئة ولغايات خسيسة ... ولكنه ما مات حتى كان قد غرس شجرة اينعت وآتت اكلها ، ولئن مات فى المعركة فان قومه تابعوا الكفاح حتى طهروا البلاد من هذا الدنس ، واستطاعوا ان يجعلوا نومة الرجل العظيم نومة مستريحة ، حيث ارضى ضميره الحي ، وانقذ امته من شر كان سيؤدي بها الى الهاوية .

ونقل ابن ياسين بعد تجهيزه الى قبيلة (زعير) ، حيث دفن فى الموضع المسمى اليوم (بكريفلة) وسكنت روحه هناك على ربوة تزار الى الآن . وفيها يرقد هذا الصوت الذي جاهر بالحق وهو وحيد ، وكافح ضد الباطل ونجح حيث يفشل الكثير .

ابن ياسين فى الميـــزان

والآن وقد وصلنا الى هذه المرحلة من حياة هذه الشخصية ، وصورنا كفاح هذا الرجل العظيم فى انسانيته ونبله ، ووضحنا قوة ايمانه التي حطمت كل

العراقيل ،وتغلبت على الشدائد رغم صعوبة المسعى وقلة الامل . فهل كانت دعوته دعوة الحق ، ام كان يسعى الى غايات اخرى ؟ .

الواقع ان كل الدلائل كانت تشير الى انه كان يعزف عن كل شيء ، وكان يهدف فقط الى نجاح دعوة الله والدين الحق ، وكانت سبيله ـ رغم ما فيها من قسوة احيانا ـ سبيل المؤمن المضحي بهنائه وراحته من اجل سمو روحي وراحة فكرية .

فهذا عامل من عوامل نجاحه ، وسر من اسرار تفوقه ، فالرجل الذي يقبل الدخول الى الصحراء وهو اعزل الا من سلاح الايمان ، ويقاوم نزعات مختلفة تحكمت في اصحابها منذ القديم ، وورثوها ابا عن اب واستطاع ان يحطمها ويبددها بسهولة ، ثم يخلق من اصحابها اقواما جددا ، صيغوا من جديد صياغة محكمة وتشبعت افئدتهم بيقين غريب في بابه ... هذا اليقين الذي دفع بهم الى الامام ، وجعلهم اداة طيعة في يده ، يصوغهم حسب النهج الذي يرتضيه ، هذا الرجل ، رجل عظيم جدا بدون جدال .

وعامل آخر يجب الا ننساه ، ويرجع الى معرفته للنفسيات البشرية وطرق علاجها ، وكيفية التغلب عليها ، ومقاومة شرورها وتصريف طاقاتها تصريفا كله صلاح وحكمة ، فلو كان ناقصا من هذه الناحية ، وغير متعمق في هذا الفهم ، لكان بالامكان ان يفشل في دعوته ويخيب في مسعاه ، ولامكن ان يبقى في رباطه الذي بناه للعبادة ، منزويا على نفسه ، لا يذكر ولا يعرف ولا يسجل التاريخ عنه شيئا . وعامل ثالث ايضا يرجع الى ان دعوته كانت دعوة اصلاح، بعيدة عن البهرج والزيف، والخرافات والضلالات ، فلم يضع لنفسه رهبانية خاصة ، ولم يفرض على اتباعه طقوسا معينة ، الا شعائر الدين والشريعة السمحة في صفائها ورقة جداولها ، ونبل احساسها . ففتن الناس بالدعوة ، ومالوا اليها عن ايمان ، واعتنقوها عن رغبة ، وتفانوا في الدفاع عنها بكل ما يملكون من طاقات للعمل .

وعامل رابع يجب ان لا نغفله عند الحساب ، كان من الاشياء التي ساعدته على النجاح ، وهيأت له سبيل الظفر . ذلك ان المغرب اذ ذاك كان يعيش في بركان هائج .

ودولة مغراوة وبنو يفرن يتقاسمان النفوذ فيما بينهما ، وقد مل الشعب ملكهما الذي كان يعتمد على تقلبات واهواء : سياسة الاندلس التي يديرها وينظم دفتها المنصور ابن ابي عامر ، وسياسة القيروان التي يديرها ساسة العبيديين ، ورغم ان زيري بن عطية حاول ان يرأب الصدع ، ويجمع الكلمة ، الا ان الحالة كانت متأزمة والفوضى تضرب اطنابها ، والاحوال في الاختلال . فكانت الظروف كلها تحتم قيام دولة متينة البناء ، شامخة الاعمدة ، تعتمد على ايمان جديد ، وتتوفر على امكانيات ضخمة من الرجال والقوة والعتاد، يكون سبيلها محو سلسلة الظلم التي طوقت اعناق الرعية ، واذلت السكان .

لذا تقبل الناس قيام هذه الدعوة التي لم تكن تؤمل هذا النجاح ، بالقبول الحسن ، وساعدوها بالاعانة والتاييد ، فالاحداث اليومية ساقته هذا المساق ، وهيأت له هذا الفوز الغير المترقب ، لذلك اذا كان يؤخذ على دعوته انه خرج بها من المنهج الديني الارشادي ، الى منهج سياسي ، وانها اصبحت حركة تحرير بعد ان كانت حركة تطهير ، فان دوافع متعددة هي التي ساقته بدون ان يكون قد وضع في حسابه هذا التقدير ... ولو وكل اليه الامر لاكتفى بان يبتعد عن كل مصلحة سياسية ، وان يقتصر على دعوة الارشاد والهدى . ولكن دوامة الاحداث غمرته من اخمص قدميه الى قمة راسه ، فلم يجد مناصا من ان يتابع التيار ، وان يترك الميراث لابناء لمتونة ليتابعوا اداء الرسالة ، التي بلغت قمة نجاحها ، حين تسلم زمام الامور البطل (يوسف بن تاشفين) .

ومهما يكن فعبد الله ابن ياسين شخصية خصبة الجوانب جديرة بالاهتمام . واننا بهذا العرض البسيط انما قمنا ببعض الواجب ، في الوقت الذي كثر فيه الحديث عن الصحراء ، وانضمامها الى الوطن الام . فهذا واحد من ابناء الصحراء المصلحين سجلنا تاريخه في هذه الفترة الحاسمة لنبرهن مرة اخرى على اننا امة واحدة ، وان كان ذلك قد اصبح من الوضوح بحيث لم يعد بحاجة الى برهان جديد .

ذكرى ايليا ابي ماضي

للاستاذ : محمد الصباغ



هذه الكلمة اعدت لتلقى فى حفلة تأبين الشاعر الكبير المرحوم ايليا ابي ماضي بتطوان .

وقد كانت بين كاتبها وبين الشاعر الراحل ، صداقة ادبية متينة .

وقد كتب الشاعر المرحوم الى الكاتب محمد الصباغ فى سنة 1956 الكتاب التالي :

اخي الاديب الاستاذ محمد الصباغ

امامي كتابك ، وانه لنسمة لطيفة عطرة تهب على روحي من ارض المغرب ....

كتابك (اللهاث الجريح) لم يصل بعد ، ويلوح لي اني قد قرأت عنه شيئا فى احدى المجلات ، اني فى شوق اليه ، لانه بدون شك صورة راقية للادب العربي فى المغرب .

هذا وثق باخائي واستعدادي لكل خدمة مستطاعة، واسلم للادب والقلم ولي

15 كانون الثاني 1956 — ايليا ابو ماضي

فى اليوم الذي مات فيه ذلك الشاعر اللبناني المهاجر الذي نحتفل اليوم بذكراه الاربعينية ، مات فيه كذلك عظماء سياسيون ، واغنياء مترفون ، ونبلاء ذوو القاب وقصور تشمخ بانوفها على السماء . منهم رئيس دولة عظيمة فى اوربا ، ووزير امة من امم امريكا ، ونبيل من عائلة انجليزية عريقة فى المجد والالقاب وسفير من سفراء احدى دول آسيا ، كما مات فى نفس اليوم جاري الفقير عبد السلام ... الذي شيعته الى حفرة السلام العالمية مع حفنة من اهله واصدقائه فى صمت رهيب ، احتشد فيه عويل الانسانية وافراحها .

وبعد ذلك اليوم ، اليوم الثالث والعشرين من نوفمبر الماضي ، قرأت فى شتى الصحف : ان رئيس الدولة الاوربية الذي مات قد خلفه رئيس آخر ، كما عين فى الوظيفتين الاخريين وزير وسفير آخران . اما النبيل الانجليزي فقد ورث عنه ابنه لقبه .

كما قرأت ايضا : ان جميع هؤلاء العظماء قد شيعتهم الى حفرهم جموع غفيرة من كبراء قومهم وعليتهم . وتقاطرت على دولهم عديد من برقيات التعازي) التي تقول بها اللياقة السياسية والدبلوماسية المتفق عليهما فى عقد « النفاق الدولي » من جانب جميع الدول . ويمر الزمن الذي لا ينافق ولا يحابي ولا يجور، واذا به يسدل ستاره على مسرحياته التي تمثل فى كل يوم ، بل فى كل رمشة عين . واذا بمسرحه خلو من اسماء هؤلاء « العظماء » واذا بكراسيهم ونياشينهم والقابهم من « سعادة » و « فخامة » و « نبيل » قد نخرها سوس النسيان ، فغدت وكأنها لم تكن فى الحسبان .

ويعود الزمن فيرفع ستارته الحريرية عن اشخاص قد عرتهم الحياة من القابها ، وجردتهم من دفئها ، وحرارة امومتها ، وامسكت عنهم حتى انفاسهم ، ورمت بهم الى مطلقها الذي لا حدود له ولا قرار . فمنهم من تاه فى دروب الضياء مفتشا عن نور

عينه المساوب، ومنهم من توسد خياله في غيبوبة فجربة قائما يحلم رمادي ، ومنهم من اعتصم بالليل حتى اذا راى القمر بازغا قال : هذا ملكوتي ، ومنهم من تغذى بسلخات لحمه ، وتمزقات عروقه ، وشرب من بئر دمائه ، وفوارة دموعه ، وغدير عربه في خلوة نفسه ، ووحدة انفاسه .

لن ادعو « هوميروس » ولا « سقراط » ولا « الخنساء » ولا « المعري » ولا « المتنبي » ، لا ، ولن اناديهم من ذهن الزمن اليقظ ليثبتوا لكم صدق ما قلت . فهم حاضرون معنا ، متقمصون في ذرات هذا الهواء الذي تتنفس ، وهذا الجمال الذي نرى ونلمس . وحبذا لو رفعتم معي عقيرتكم بالنداء الى اولئك « العظماء » من رؤساء ووزراء ، من نبلاء واغنياء ، من حكام وسياسيين ، ومن شابههم في ذلك الزمن الذي رفعهم على اكتاف الجور ، في نفس الوقت الذي كان غيرهم ممن ذكرناهم مهملين في شقوق النسيان ، لابسين اكفان الحياة ، متنعلين بالشقاء والدمار .

حبذا لو رفعتم معي عقيرتكم بالنداء الى «عظماء» ذلك الزمن لعلهم يسمعون فيجيبون ، بل وحبذا لو رجعتم الى زمنهم مفتشين عنهم في صفحات التاريخ ان وسيفه وليله وبيدائه في بيته المشهور .

اني اؤكد لكم ، وباسم ضرارة « هوميروس » واسم « سقراط » وتشاؤم « المعري » وصخر « الخنساء » وشرف « المتنبي » انكم لن تعثروا عليهم . وان كنتم عنيدين في البحث فستعثرون على بعض الاسماء كـ « كافور » و «سيف الدولة» اللذين شرفهما « المتنبي » بشرفه الرفيع الذي يراق على جوانبه الدم طموحا الى الامارة والحكم ، ناسيا نخوة قلمه و سيفه وليله وبيدائه في بيته المشهور .

ثم بعد هذا فأي يد سحرية جمعتنا في هذا المكان، وربطت بعضنا ببعض بخصلاتها الحريرية تحت هذا الرواق المرقش بلهاث النجوم . وفي ذهن كل واحد منا فكرة واحدة عطرت دماغه وخياله ، كما عطرتني انا، فرفرف خيالي كأنه سرب حمام من عصير الورد والياسمين وصفار البنفسج . الا وهي فكرة احياء الذكرى الاربعينية للشاعر ايليا ابي ماضي .

اذن فمن هو هذا ايليا ابو ماضي ؟ وما الذي احيا لنحيي ذكراه ؟ وما هي علاقتنا به ، ونحن لم نره قط، ولم يمد لنا في يوم من الايام يدا لمساعدتنا حتى نرد اليه جميله ؟

اسئلة اطرحها على نفسي وعليكم . فاقرا الاجوبة عنها في ثلاثة دواوين من لون « الخمائل » وترنيمة « الجداول » وصدى « الماضي » في الحاضر ، بل تاتيني اجوبتها فائرة مني ومنكم . فاحسبني واحسبكم فوارات اسرار وعجائب والغاز وطلاسم وظما وجوع الى مطر لا اثر للماء فيه ، والى خبز لم يخطر ببال السنابل . ثم تتسع هذه الفوارات وتمتد ، وتزيد في الاتساع والامتداد حتى تشمل الكون الذي يغدو فوارة هائلة من عجيب الاسرار ، وغريب الالغاز .

من الناس : جماعة تسبح في خضم هذه الفوارة ليل نهار ، جاهدة للوصول الى قرارها فلا تستطيع ، وتظل جاهدة حتى يدركها العياء فتستسلم الى لججها . وجماعة كلما مسها رشاشها فرت منه فرار الظلال من النور

وجماعة عاشت على غير هدى تحت اقواس نخيلها الشفافة غير مهتمة بها ، فهي كالسائمة في مراعي السراب .

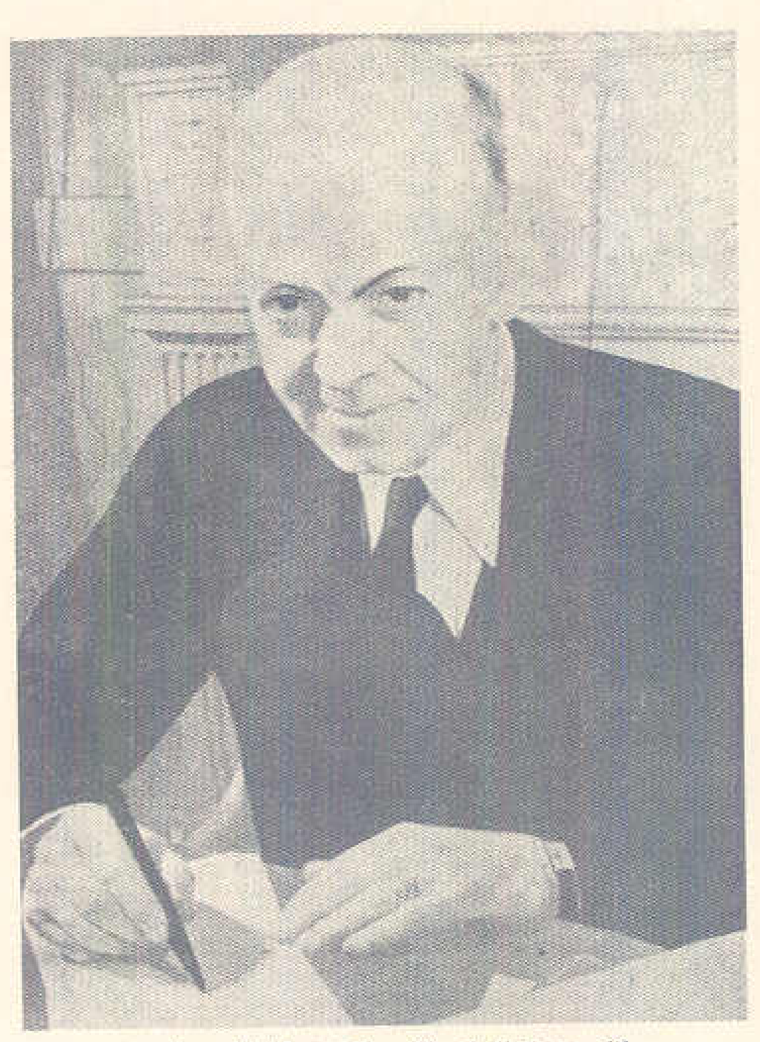
وجماعة نفذت ببصيرتها الحادة الى كل قطرة من قطرات اسرارها وعجائبها وغرائبها ، وما تقنع منها بحجاب الغمام ، واستار الصخور والجلاميد ، واروقة الازمان ، واسوار الطين واللحم والدم ، وما اختفى منها تحت قشور عناقيد الدمع ، واظفار العويل ، وتفاح الفرح . **وهؤلاء هم شموع كل امة . والويل كل الويل لامة لا تضيئها مثل هذه الشموع ، او تستعير نورها من شموع غيرها .**

ومن بين هذه الجماعة ايليا ابو ماضي ـ شمعة الارز ـ الذي اشعلته الحياة نورا حادا فولج الى مخ الحياة وعصارتها وشرايينها ، مفتحا حواسنا بشرارته لرؤية ما قار امامه من اسرار بنغم نلمس فيه قلبه ، وقلب الانسانية ، وقلوبنا ايضا ، وحنين يخلق فينا رغبة مداعبة الاطفال والغزلان ، واحساس يجعلنا نرى سراديب اجسامنا مضيئة كاجسام النجوم ، وتفاؤل بالحياة يبعث فينا نشوة الرجوع من حيث جئنا لنولد ولادة ثانية .

وقد كان ايليا يغرف من دمه الحار الوهاج ، ويقدمه للناس باقات من الورد الضاحك ، تمرسا بالم التفاؤل الذي مصدره البحث عن الجمال المغلف بالبشاعة ، والفرح المقنع بالتشاؤم ، والحقيقة ذات القشرة الصلبة واللب العميق ، حتى اذا تاه في البحث وراء حقيقة هذا الجمال وضاع فيه ، نفى عن نفسه المعرفة الكلية واستسلم لـ « لا ادرية » . وفي هذا الاستسلام ، وذلك النفي اثبات للحقيقة ، وتطلع الى جوهر جمالها المتفائل المنبثق من ملاعب فوارة الوجود .

لعلنا ادركنا قيمة ابي ماضي ، وارتباطنا به ، وسبب احيائنا لذكراه دون غيره من «العظماء» الذين ماتوا في نفس اليوم الذي مات فيه اومن شابهم مع اختلاف الزمان والمكان .

فليعد التراب الى التراب ، وليبق الوهج المستعصي على الزمن مضيئا دروب الحياة وفوراتها العجيبة ولتظل ابتسامته مشرقة على المبسم الحزين الحائر المتشائم .



آخر صورة للشاعر الكبير المرحوم ايليا ابي ماضي

الأعلام في الفكر الإسلامي

للأستاذ محمد الأمري المصمودي



ظل موضوع الاحلام مصدرا لكثير من البحوث والدراسات التي قام بها فلاسفة ومفكرون واطباء من مختلف الازمان والاجناس ، وهو الى الآن لا يزال يستأثر باهتمام كثير من الباحثين في علم النفس ، بل انه اصبح مصدرا للتعرف على كثير من الادواء والعقد النفسية التي لابد ان تخضع للتحليل بطريقة او اخرى، ذلك لان طب الاجسام اصبح لا يستغني عن العلاج النفسي ، ومرد ذلك الى ان جميع الاطباء وعلماء النفس صار من المؤكد لديهم ان كثيرا من الادواء ذات الاساس النفسي ، لن تفيد المركبات الكيمائية واخلاص العقاقير في علاجها ، ومن هنا جاءت هذه الاهمية التي صارت تعطي لدراسة الاحلام ، بينما كانت هذه الاهمية عند القدامى تاتي من مصادر تختلف باختلاف الازمان والبيئات والمشارب والاهواء ، بالاضافة الى مصدر يتفق فيه الجميع وهو النزوع الى استكناه ظاهرة من الظواهر الانسانية التي تستدعي التحليل والتعليل .

وبالرغم من ان البحوث في هذا الباب قد قطعت اشواطا بعيدة فاننا لن نستطيع بحال ان ندعي ان الحقائق المتوصل اليها لحد الآن ، رغم وجاهتها واهميتها ـ قادرة على القاء اضواء كاشفة عليه من جميع الجوانب ، ذلك لان الحقائق المتعلقة بالانسان ومحيطه ستبقى قابلة للتصحيح والتعديل ما دام للانسان عقل يفكر ، وما دام حب الاطلاع يدفع به دوما الى استكناه الاسرار الكونية ، والكشف عن الخفي المجهول ، وستظهر كشوف وكشوف في مختلف ميادين النشاط الانساني تستطيع ان تلقى اضواء اكثر تركيزا على كثير من النظريات التي تتصل بالانسان ومحيطه ، وسيستفيد موضوع كهذا من هذه الكشوف كما استفاد من كشوف قبلها غير قليل ، وهل ننسى نظرية اللاشعور او العقل الباطن التي كان الفضل في اثباتها للعالم النمساوي اسيجوند فرويد ؟ وهي نظرية ساهمت بحظها في محاولة الكشف عن هذه الظاهرة المستعصية (1) .

وكان من الطبيعي ان يسترعي موضوع كهذا فلاسفة ومفكري الاسلام ، لعوامل مهما تعددت فان من ابرزها عاملا قويا هو محاولة تفسير حقيقة النبوة، يسوي في ذلك الفلاسفة والشرعيون والصوفية ، ومما يسترعي اهتمامنا انهم يعتمدون في تعليلها ـ في الغالب الاكثر ـ على تعليلات روحانية ميتافيزيقية ، وان كانوا لا يغفلون احيانا بعض التعليلات الفيزيولوجية والسيكولوجية ، وسوف يتسنى لنا ان نعرف ذلك فيما بعد بوضوح ، وسوف لا نستغني هنا ايضا عن العلامة ابن خلدون؛ لانه يمثل في الحقيقة كثيرا من اراء فلاسفة الاسلام وعلمائه ، وبعبارة اخرى نراه نموذجا لتفكيرهم في هذا الباب ، حيث استطاع ان يوفق بين آرائهم ، ويكون من مجموعها نظرية لا تخلو من عناصر فلسفية، واخرى صوفية ، واخرى شرعية .

1) يقول الاستاذ سلامة موسى : « لقد تعلمنا كثيرا من فرويد ، ولكننا لا نزال في حاجة الى المزيد » من مقال « سيكلوجية فرويد » نشر في مجلة « العلوم » العدد السابع سبتمبر 1956 .

وعلماء الاسلام ، وضمنهم ابن خلدون ، لا يطلقون لفظ الاحلام الا مضافا الى الاضغاث ، وهم في الاغلب يطلقون لفظ « الرؤيا » الذي هو اعم واشمل ، والرؤيا كما يحددها ابن خلدون :

« مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات » (1) .

ولكي يتضح لنا هذا علينا ان نذكر ان للنفس الناطقة عندهم ادراكين : 1) ادراكا بالحواس ، وهو الادراك الظاهر ، 2) وادراكا بواسطة القوة الدماغية (الحس المشترك ، والخيال ، والواهمة ، الحافظة والمتصرفة) وهذه تسمى بالادراك بالباطن .

والنفس روحانية بالقوة ، وانما هي مستكملة بالبدن ومداركه ، ومعنى هذا ان للانسان استعدادا لادراك ما في العالم ، ولا يعوقه عن هذا الادراك الا قيد الجسم ، فاذا ارتفع هذا القيد بطريقة ما ، تم له ما اراد من الاطلاع على الامور الغيبية المستقبلة ، وما النوم الا احد هذه الطرق التي يرتفع بها هذا القيد .

ثم ان هذا الاستعداد عام في البشر جميعا ، الا انه عند الاولياء اقوى ، اما عند الانبياء فهو استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية المحضة ، التي هي اعلى الروحانيات ، والتي لا تتوقف في ادراكها على الحواس .

ومعنى هذا ايضا ان الانسان يتوفر على قوة من الادراك خارجة عن نطاق العقل ، ودليلهم في ذلك ما يرى الانسان من الاحلام التي تجد طريقها الى عالم الحقيقة والواقع ، وفي هذا دليل على ان النفوس البشرية ليس من العسير عليها ان تهتدي الى العوالم العلوية « **بل كل واحد راى في نومه ما صدر له في يقظته مرارا غير واحدة ، وحصل له على القطع ان النفس مدركة للغيب في النوم ولا بد** » (2) .

ولحد الآن لا نجد فيما سبق سوى شرح يعتمد على الروحانية الميتافيزيقية ، مأتاه في الحقيقة طريقة فهمهم للنفس الانسانية ، وهي طريقة لا تختلف في جوهرها عن طريقة ارسطو وغيره من فلاسفة اليونان ،

وجريا على محاولة فلاسفة الاسلام دائما التوفيق بين مضامين الفلسفة اليونانية والنصوص الواردة في القرآن او الحديث ، ويبدو لنا ذلك جليا عند الفارابي الذي كان اول فيلسوف اسلامي ادخل في حسابه التوفيق بين العقل والوحي، فهو مثلا يقابل العقل الفعال بالروح الامين ، والعقول المتدرجة بالملائكة ، والافلاك بالملأ الاعلى ، الى غير ذلك ، نقول : جريا على تلك المحاولة نراهم هنا ايضا يحاولون ان يستفيدوا من نظرية النفس في اثبات حقيقة النبوة عن طريق الرؤيا التي هي خواص النفس الانسانية **« واذا جاز ذلك (اي ادراك الغيب) في عالم النوم فلا يمتنع في غيره من الاحوال »** (3) .

وابن خلدون يورد حديثا يقول : « **الرؤيا جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة، وفي رواية : ثلاثة واربعين، وفي اخرى : ثلاثة وسبعين** » ويفيدنا ان المقصود الكثرة، لا حصر العدد .

واغلب مفكري الاسلام يقسمون الرايا الى : 1) صادقة 2) وكاذبة ، ويحلو لبعضهم ان يضع لهذه وتلك انماطا متعددة .

فالصادقة منها ما هو من الله ، ومنها ما من الملك، فما كان واضحا جليا لا يحتاج الى تعبير هو من الله ، وما كان مرموزا بحاجة الى تعبير هو من الملك .

اما الكاذبة فهي في مختلف صورها عند الغزالي كما عند ابن خلدون من الشيطان ، والشيطان ينبوع الباطل ، والنابلسي يفرق بين ما هو وحي الشيطان وما هو في وسوسة النفس او من الامزجة والطبائع ، ويبني ابن خلدون تقسيمه على حديث صحيح : « **الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان** » ويستمر في ايضاح كل نوع معتمدا على المضامين الفلسفية : « **وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه ، فالجلي من الله ، والمحاكاة الداعية الى التعبير من الملك ، واضغاث الاحلام من الشيطان لانها كلها باطل ، والشيطان ينبوع الباطل** » .

ويجب الاعتراف بان علماء الاسلام اولوا عنايتهم القصوى للرؤيا الصادقة ، وحسبوا ما عداها باطلا من

1) المقدمة الرايا ص 178 طبعة دار الكتاب اللبناني
2) المقدمة الرؤيا ص 183
3) نفس الفصل من المقدمة

الشيطان ، لكننا مع ذلك لا نستطيع ان ننكر لهم كل اساس فيزيقي ، بل انهم كما سنرى استطاعوا ان يتوصلوا الى كثير من الاسس السيكولوجية والفيزيولوجية لتعليل الاحلام .

فاخوان الصفا مثلا ومعهم ابن سيرين والنابلسي يربطونها بالامزجة والطبائع ، فذو المزاج الدموي في نظرهم تتراءى له الرياحين والمزامير والملاهي ونحوها، وذو المزاج البلغمي تتراءى له الانهار والامواج والبياض ، وذو المزاج الصفراوي تتمثل له الصواعق والحروب والنار والدم ، اما صاحب المزاج السوداوي فتتراءى له المخاوف .. ويقول الامام الغزالي : وسببها حركة القوة المتخيلة وشدة اضطرابها .. ويكون لمحاكاتها ايضا اسباب من احوال البدن ومزاجه » (1) .

ومثل هذا الراي نجده عند الفارابي في « المدينة الفاضلة » فهو يقرر ان المخلية آثار اليقظة اثناء النوم ، او انها تخلق صورا جديدة متباينة الاشكال ، وذلك ان المتخلية تحفظ ما ارتسم في النفوس من المحسوسات بعد ان تفصل بعضها عن بعض ، وقد يصادق ان يوافق البعض ما كان محسوسا ، وقد يكون مخالفا له، وهو لا ينكر ان الاحلام تتشكل بالامزجة والرغبات والميول التي تسبق الحلم او تصاحب النوم ، ومردها عند ابن خلدون الى صور تعيها الحافظة ، وكانت اودعت فيها عند اليقظة من لدن الخيال ، لكنها اما ان تكون صادرة عن الروح العقلي المدرك ، وتسمى حينئذ رؤيا ، واما ان تكون ناشئة عن الصور التي في الحافظة وهي الاحلام (2) .

وابن رشد الفيلسوف المغربي العظيم نـراه في « الحاس والمحسوس » يتفطن الى اهمية رغبات النفس البهيمية وميولها ، فالنفس المشتاقة الى شيء او عدمه تمثل لها المخيلة ما هي مشتاقة اليه ، فالعطشان مثلا يروي ظماه في النوم .

والمحب يشبع في المنام حبه ، اليس هذا قريبا مما يعبر عنه حديثا بالكبت او التنفيس ؟ !

ثم انهم ادركوا الصلة الوثيقة للحلم بشخصية صاحبه ، ومن ثم كنا نراهم يلزمون على المعبر ، اي شارح الحلم ، ان يكون على اتصال بصاحب الحلم حتى يسعه ان يفهم حقيقة الرموز ، ونفس هذا الموقف هو الذي نراه عند علماء النفس المحدثين الذين جعلوا اداة للكشف عن حجب النفس البشرية ، وعلاج كثير من الامراض الناشئة عن عقد نفسية تقتضي التحليل النفسي .

ونستطيع ان ندلل على انهم ــ ولا سيما من جردوا انفسهم لتعبير الرؤى ــ تعمقوا تاويل الرموز التي ترى في الاحلام ، وهي تاويلات لن يجافيها الصواب دائما ، وقريبة من نتائج بعض التجارب الحديثة ، فالبحر ربما كان يرمز الى السلطان ، والمداوة ربما رمز اليها بالحية ، ولا بد من عامل الحس هنا ، فالولد الاعمى لا يمكن ان يصور له السلطان بالبحر ، ولا العدو بالحية، ولا النساء بالاواني ، على حد تعبير ابن خلدون ، لانه لم يدرك شيئا من هذه ، فيكون الرمز من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات ، وابن خلدون يبهرنا بنظرية تكشف عن صدق التجربة ، وهي مشابهة لبعض النظريات الحديثة ، فهو يقرر ان الرؤيا لا تحدث الا عند ابتداء النوم وذهاب الاختيار في الكلام. ويقرر الاستاذ « فولكمان » انه لاوعي ولا شعور على الاطلاق في النوم العميق ، وان احلامنا تقع في الانتقال التدريجي الى اليقظة ، ويرى « ودوبرث » في كتابه « السيكولوجيا » فصل التخيل ، ان الحلم يحدث بعيد النوم او عند النوم الخفيف .

ولا بد من الاشارة الى ان عامل البيئة والوازع الديني كان لهما الاثر الفعال في تكييف آراء علماء الاسلام في الموضوع ، وان كان هذا لا يعني قطعا انهم لم يستفيدوا ممن سبقهم في الموضوع من اليونان ، بل انهم تاثروا ولو تاثرا ضئيلا ، (فالسمنودي) نحا نحو (ارطميدوس) في تصنيف الاحلام وتعليلها الى : المحمود ظاهرا وباطنا ، والمذموم ظاهرا وباطنا، والمحمود ظاهرا المذموم باطنا ، والمذموم ظاهرا المحمود باطنا، وهو ياتي بنفس الامثلة التي اتى بها (ارطميدوس) لنفس الغرض ، لكن مع التغييرات التي تفرضها ديانة السمنودي المسلم فيجعل بدل الآلهة ، الاله مثلا (2) .

---

1) مقاصد الفلاسفة ص 310 ــ 311
2) المقدمة الفصل الثاني عشر تعبير الرؤيا ص 858

1) المقدمة الاخبار بالمغيبات ص 190
2) « كتاب الاحلام » للدكتور توفيق الطويل ص 66 ــ 67

ولعل من الافيد ان نعرض نظريات المحدثين من علماء النفس في الموضوع ، وقبل ذلك ننبه الى ان الذي فتح باب الجدل في الموضوع من جديد ، هو العالـــم النفسي والطبيب النمساوي (سيجموند فرويــد) فقد ذكر في كتابه النفسي « تاويل الاحلام » وقد ظهر سنة 1900 ان الحلم ظاهرة من الظواهر النفسية المعقدة التي تستحق البحث والتدقيق ، وليس حسب راي بعض القدامي آثارا مهوشة لاضطراب الخلايا والمراكز العصبية ، ولكنه عمل خاضع لقوانين وقواعد (3) .

ويقول الاستاذ (ادغار بيتش) في كتابه عـــن فرويد « اما فرويد فقد استطاع ان يعيد الى الحـلم طابعه النفسي الذي حذفه عنه اصحاب مذهب الذرة والاطباء العاديون والعقليون ، بيد انه دون ان يعود الى الشروح الصوفية اقام نظريته على اساس مـــادي ، وحاول النفاذ الى تفهم آليته ، وان تصريحه بان الاحلام هي نتاج يحدث في داخل النفس ، اي انها تحـدث في الشخص النائم ، وانها ليست رسالة الهية في كثير او قليل ، كان تصريحا صدم التقاليد القديمة لــــدى الروحيين ، ويمكن تعريفه بصورة مختصرة بانـــه ارضاء (هلوسي) لاحدى الرغبات التي لم ترض ، والتي هي لا شعورية بصفة عامة » (4) .

اما التصنيف الحديث لانواع الاحلام ، فهو كما يلي : 1) الاحلام التمثيلية ، وهي التي تمثل لنـــا الحوادث التي سبق ان وقعت لنا بالفعل ، وذلك تمثيلا مطابقا لما كان وقع تقريبا 2) الاحلام التنفيسية ، ووظيفتها ارضاء رغبة مقهورة او شهوة مكبوتة ، وفي نطاق هذا النوع الرغبات الغرزية المكبوتة ، وقد راينا كيف تفطن بعض فلاسفة الاسلام الى هذا النـــوع 3) الاحلام التنبؤية ، ولها تعليلان آخران زيادة على التعليل الروحاني الذي رايناه يثبت ان النفس مدركة للغيب ، وهو ما عليه اغلب مفكري الاسلام ، وضمنهم ابن خلدون ، اما التعليلان الآخران ، فاولهما ان مثل هذا النوع من الاحلام يشابه التفكير في اثناء اليقظة والعقل الباطن عند النوم يتوصل الى امور مجهولة اثناء الاحلام ، مستفيدا من معلومات العقل الظاهر ، ويدعى هـــذا التعليل : **بالتعليل الاستنباطي** . وثانيهما ان مارئي في الاحلام كان حافزا قويا في العمل على تحقيقه ، فكانها حسب هذا التعليل : نوع من الايحاء الذاتي الدافـــع الى العمل ، ويعرف هذا التعليل **بالتعليل الايحائي** ، واذا كنا لا ننكر ان التعليل الاخير مقبول في بعض الحالات ، فليس ذلك مما يجعلنا نعتقد بصحته دائما ، خصوصا اذا كان تنبؤ الحلم يتعلق بشخص غيرنا .

اما التعليل القائل بالصدفة ، ومن القائلين به « تريدون » ــ فينقضه ما يلاحظ من ان هذه الاحلام قد تتكرر في غير زمان او مكان ، ولا يعقل ان الصدفة تتدخل دائما .

اما الدكتور (رجرز) فقد بنى رايه في الحلم على نظريته في العقل ، حيث يعتقد انه يتكون من طبقـات عليا وسفلى ، ونتيجة لذلك كان للانسان نوعان مـن السلوك : 1) سلوك راق دقيق يخضع للتفكيـــر والروية ، وتضبطه الطبقات العليا للعقل ، وله ارتباط بطبقات المنح الظاهرة . 2) وسلوك بدائي ساذج وهو المتصل بالطبقات السفلى للعقل ، ويخضع للطبقات السفلى من الجهاز العصبي .

وينحصر السلوك الاول في الانسان اليقظ المفكر .

اما السلوك الساذج فيبلغ غايته في احوال غيـــر عادية كما في النوم او التنويم المغناطيسي ، وعنـــد الاضطرابات والامراض العصبية .

ورئرز لا يعطي للغريزة الجنسية نفس الاهمية التي يعطيها اياها (فرويد) واتباعه ، كما انه لا يجعل الاحلام قاصرة على تحقيق الرغبات المكبوتة بطريقـة رمزية ، وانما يذهب الى انها تخضع لظاهرة التقهقـــر التي تقع في احوال خاصة كالنوم وما شابهه ، ومن ثم كان يقول بتدخل تجارب من النوع الذي حصل للانسان الاول في الاطوار الاولى في الاحلام ، فرؤية الانسان نفسه يطير ، او ان ثعلبا يهاجمه ، وما اشبه هذا ليست الا ذكريات عن الماضي ، عادت كما هي بتعديل ناشيء عـن امتزاج العناصر والحوادث بعضها ببعض ، امتزاجا اساسه عدم التمييز ، او نقص فيه ، او تداعي المعاني . وهذه من خصائص التفكير عند الاطفال والانســـان المتوحش ، فاوهام الاحلام على هذا نتيجة مباشـــرة لنشاط انواع اخرى من انواع السلوك العقلي كانت

---

3) عن كتاب « في علم النفس ج 2 ــ 295 »
4) فرويد تاليف ادغاربيتش ترجمة تيسير شيخ الارض ص 61

تمنعها من الظهور الطبقات العقلية العليا ، او التجارب التي حصل عليها الانسان في ادوار حياته اللاحقة لدور الطفولة (1) وقريب من راي « رجرز » هذا ، راي العالم السويسري « برنج » .

ويمكن ان نلخص راي جمهرة المحدثين في ان الحلم يتمثل في احدى صورتين : 1) ادراك خاطيء 2) او وهم مجسم ، ومعنى هذا ان الاول يتضمن صورا عقلية ادت اليها مؤثرات موجودة بالفعل ، غير ان النائم ادركها على غير وجهها ، بينما يشبه الثاني خواطر اليقظة من حيث انه افكار وصور تتداعى بعضها وراء بعض ، دون اتصال بمؤثر حسي اطلاقا ، ولكل من النوعين انصار ومؤيدون ويذهب اغلب العلماء الى الجمع بين الاتجاهين ، وهكذا انتهوا الى تقسيمها الى 1) احلام حسية تنشا عن مؤثرات تقع على الحس الظاهر او الباطن عند النائم 2) احلام نفسية تنبع من معان عقلية وتستمد وجودها من ذكريات تفيض مما اختزن في اللاوعي من تجارب الماضي واختباراته ، ومع هذا لا توجد هناك احلام حسية محضة لا تتشكل بالرغبات والاهواء ونحوها من وجوه الحالة النفسية عند النائم ، كما لا توجد هناك احلام ناشئة عن مؤثرات نفسية بحتة لا تتدخل المنبهات الحسية في نشاتها .

ومما تقدم نخلص الى ملاحظتين اثنتين :

1) ان ظروف المحدثين المتوفرة على دراسات بيولوجية وعقلية وفسيولوجية ، لم يكن لها ما يشابهها عند المسلمين .

2) ان النظريات المحدثة في مجموعها تبقى ناقصة وغير مقنعة في جميع الحالات ما دام عنصر الروحانية مقصى عنها ، واذا كان العلم الحديث لم يستطع بعد اخضاع هذا العنصر الى التحليل ، فليس له مجال ان ينكره على الاطلاق ، ولا نعدم محاولات في هذا الباب لعلماء محدثين يصرون على رد الاعتبار لهذا العنصر الغامض على اساس علمي ، ومن ذلك محاولة العالم الرياضي الانجليزي (دن) في اثبات نظرية « البعد الرابع » وهي نظرية تتعلق بالزمن ، وهي في اساسها تهدم الفلسفة المادية ، ويستدل عليها بتدليلات رياضية لها نصيبها من قوة المنطق ، وكان يرى ان خير ميدان لاثبات نظريته هو العالم الآخر ، لكن لما كان هذا العالم خارج نطاق التجريب العلمي فقد فكر (دن) في حالة اخرى هي اشد ارتباطا بالموت وتدخل في نطاق الاختبار البشري .

كان يستثير انتباه هذا العالم ظاهرة عجيبة ، هي ان بعض ما يتوارد على حياته من وقائع وحوادث كان يصحبه احساس بانه قد شاهد هذه الحادثة او وعى هذا الحديث من قبل ، وبلغ هذا الشعور اقصاه عنده حين قرا خبر ثوران بركان ، وذهاب آلاف من الناس ضحايا من جرائه ، فقد احس ساعة قراءته الخبر تمام اليقين انه كان يعرف ان هذا البركان سيثور ، وانه كان على علم بعدد الضحايا ، ولما شرع يحلل هذا الشعور خطر له انه ربما كان قد حلم بالحادثة قبل وقوعها (1)

وهذا عالم انجليزي آخر هو الدكتور « سوال » كان يثير فضوله ظواهر لا يمكن تعليلها بالقوانين العلمية المعروفة ، ومن هذه حادثة ثبتت عنده ثبوتا قاطعا وهي ان فتاة في نحو العاشرة كانت تسير في طريق زراعي تقرا كتابا هندسيا ، فاحست فجاة كانما المناظر التي حولها قد تبدلت وتلاشت ، ثم رات امامها امها ملقاة على ارض احدى الغرف وقد بدت عليها علامة الموت ، ولتاثر الفتاة بالمنظر مضت فورا الى الطبيب واستصحبته معها الى البيت ، وقد وجد الطبيب ام الفتاة ملقاة على الارض في غرفتها التي وصفتها الفتاة ، وكانت تشكو من ازمة قلبية حادة لم ينقذها منها الا مجيء الطبيب ، وحفزت هذه الحادثة الدكتور « سوال » الى القيام بتجارب عديدة قال بعدها : « ان الماديين سينكرون لهذه النظريات لانها تهدم اسس فلسفتهم المادية . على اننا لا نقبل الزعم القائل بان العالم المادي يحوي الحقيقة جميعها ، وفي اعتقادي ان جذور وجودنا الانساني يجب ان نتلمسها في ذلك العالم اللامادي ، الذي فيه وحده نستطيع ان ندرك معنى البقاء بعد فناء كياننا الجسدي (2) .

ولعلنا من هذا نستطيع ان نعلم ان تعليل مفكري الاسلام للرؤيا على اساس روحاني لا يزال يجد له انصارا ومدافعين من العلماء المحدثين ، واذا كانت اكثر اراء فلاسفة الاسلام في موضوع الرؤيا مستمدة من ارسطو، فان فيها بالرغم من ذلك بعض الجوانب المبتكرة التي ترد الى طبيعة التفكير الاسلامي نفسها ، ويتجلى هذا الجانب المبتكر في نظرية الاتصال بالعقل الفعال عند الفلاسفة ، وفي مذهب الاتحاد عند الاشراقيين من الصوفية ، وفي القول بالالهام وما شاكله عند المتصوفة .

---

1) في علم النفس ج 2 من ص 307 الى 313 باختصار وتصرف

1) الاحلام والخرافات والسحر تاليف عبد الله حسين ص 180

2) فاتحة الدراسات النفسية لنفس المؤلف ص 178 الى 181 باختصار

نهر «السين» في المساء

للشاعر الاستاذ محمد الناصري

سبق للمجلة ان نشرت فى عددها العاشر بحثا قيما للاستاذ محمد الناصري تحت عنوان (عوامل اختفاء المذهب الاسماعيلي من افريقيه الشمالية) .

وتنشر له اليوم هذه القصيدة ، آملين ان تكون بذلك قد ساهمنا فى ربط الصلة من جديد بين الاستاذ الناصري وبين العالم الجميل الذي طال هجره له حتى كاد ان ينساه ؛ عالم الشعر . فقد عرفت الاوساط الثقافية المغربية الاستاذ الناصري شاعرا قبل ان يغادرها الى القاهرة لاتمام دراسته .

وقد اتم الاستاذ الناصري دراسته بالقاهرة ، وحصل على شهادة الليسانس فى الآداب والدراسات الاسلامية من كلية دار العلوم بجامعه القاهرة ، واشتغل مدة مدرسا بالمدارس الثانوية ، ثم غادر الشرق العربي الى باريس حيث يعمل الآن من اجل تسجيل رسالته للدكتوراه .

و « دعوة الحق » اذ ترجو للاستاذ الناصري اطراد التقدم والنجاح ، ترجو منه الا ينسى المساهمة بنصيبه الوافر فى بعث الحركة الفكرية ببلاده .

دعوة الحق

اي سحر رائع بعد الغروب ، كامن فى ضفة « السين » الخصيب
عكست اضواء باريس نجوما على صفحته ليست تغيب
مذرآها البدر فى دجوته سابحات تبدو فى مراى عجيب
غار منها فغدا ينزع عنه ثيابا من ظلام وشحوب
وهوى يسبح فيما بينها ، ويباهي بسناه ويهيب
ياله من منظر ! اضفى على النهر فى هجعته السحر الغريب

سبح الزورق فى لجته ، وله فوق لجين الما دبيب
ينشر المجداف فيه جوهرا لامعا يرسب فيه فيذوب
كم تماثيل اسود جثمت فوق جسر واستعدت للوثوب
فكان النهر يجري صامتا واجما خشية مرآها الرهيب

كـم محب جـاء يشكـو وجـده لحبيـب لـم يجـد فيه رقيـب
وفتـاة خطـرت في مشيتهـا حولـه والقلـب منها في لهيـب
ترتجي ان يدنـو الميعـاد في لهف كيمـا يوافيهـا الحبيب
ترقب الساعة تخطو خطوهـا وتمد الطرف في الشط الرحيـب
ثم تدني معصما رخصا الى مسمـع ارهفـه وعـد الحبيب
علها تسمع من ساعتها مثـل ما في القلـب منها مـن وجيب

كـم ليال سـرت في صفحتـه اطـرد اليـأس على قلبـي الكئيب
واناجيـه بلحـن حائـر وعلى نجـواي بالصمت يجيب
ليـس لـي فيـه انيـس غيره وامان ارتجي الا تخيب
دام انسا ومـلاذا لفـؤادي الـذي امسى بمجراه غريـب



واحات للنخيل على سفح جبل « زاكورة »
باقليم « ورزازات » من وادي درعة



للأستاذ المهدي البرجالي



1) ما هي اصول هذا العطف الزائد الذي نعم به أسير أغمات على حساب ابن تاشفين ؟

2) ما هي حقيقة التيارات المتنوعة التي امكنها ان تجترف المعتمد وتقوده الى مصيره الاخير في الجنوب المغربي ؟

3) هل يمكن تسويغ عمل يوسف من وجهة النظر السياسية الصرفة ؟ هل يمكن تبريره باعتبار الجانب الخلقي والانساني ؟

4) ما هي الاسس السياسية والتاريخية والفكرية التي تنهض عليها نظرية « مشروعية التدخل المرابطي » الذي افضى الى تصفية الانظمة الطائفية بما فيها « مملكة اشبيلية » ؟

5) ما هي اصول التقدير الصحيح « للماساة » بما ساهم في خلقها من تيارات وعوامل بارزة وخفية ؟

قصة المعتمد وابن تاشفين من قصص التاريخ الفريدة ، اسهمت كثير من العوامل في احاطتها باجواء خاصة ، تغمها اكرم المشاعر الانسانية وانبل الاحاسيس العاطفية من جانب ، وتحفها احد انفعالات السخط واشد مظاهر التأثر الغضبية من جانب آخر .

فالواقع ان ابن عباد كان ذا شوكة وسلطان « محدودين » ، وكان مقتعدا غارب المجد ، راتعا في اعطاف النعيم ، والواقع ايضا ان « سليل لمتونة » قد املت عليه عقليته المغربية الصحراوية ان ينتزع من اشبيلية « رئبالها » ويسلب العرائن المتيمة الجانب ضرغمها وحامي ذمارها وموئل منعتها ومناط عزتها ومفيض البهجة والاشراق على عرصاتها ومراتعها . . .

والواقع كذلك ان الفاتح المغربي ما عتم بعدذلك ان هيمن على مقاليد الامور في الاندلس، واستصفى لسلطانه غالب ولاياتها ، واستنزل من على « العروش » ملوكها واقيالها ، ثم ضمها اخيرا الى المغرب ملحقة من ملحقاته ، ودائرة من دوائر ادارته ، فلا عز للطوائفيين بعد ذلك بشارق ، ولا لمعان « امجادهم » وتألق مكارمهم حين ذاك ببارق (1) وانما هي ادارة ليس لها من « الاندلسية » الا ما كان متصلا بالمظاهر ، ونظام جديد من الحكم لا تكاد تتبين منه اثرا لتلك « الدقة » التي كانت تغمر حياة الاندلس في الموارد والمصادر .

هذه هي اندلس ما بعد ابن عباد كما تحدث عنها وصور جوانبها الكثيرون من اصحاب العقلية

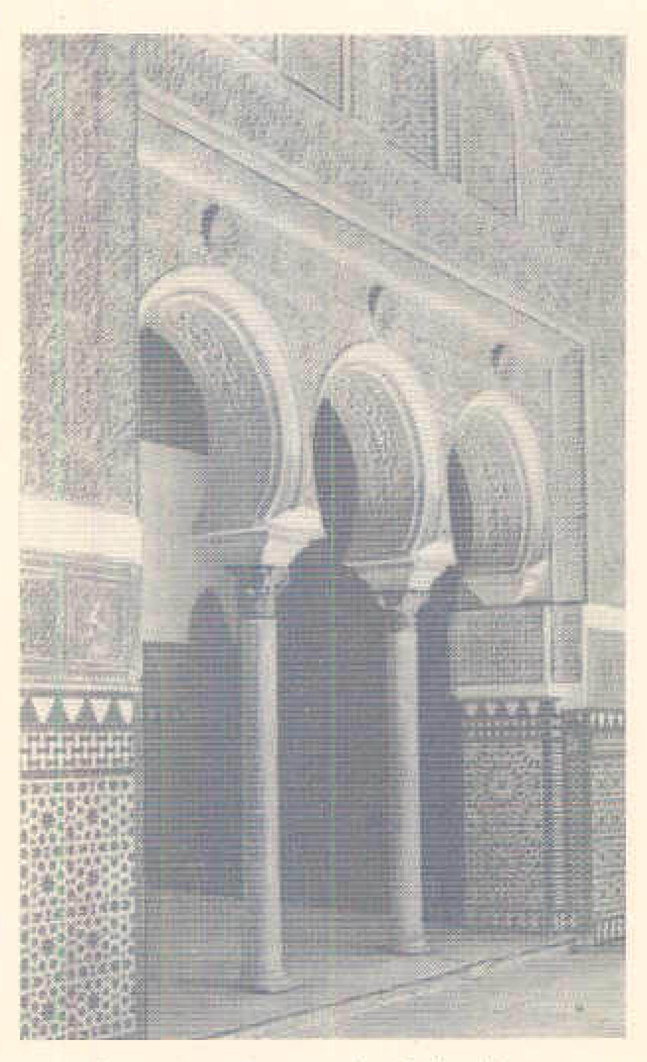
1) لقد تقصدنا هذا الضرب من السجع المتعمد ، لان جو شوقي وكثير من اضرابه ممن شجبوا عمل يوسف يغري به ويحمل عليه .

« المعتمدية » « الوسني » يوم ان اقدم على عملـه الحاسم ، ويوم ان عاد ودين السلام يرفل فى مطارف العز والمكارم ، ثم يوم ان ودع للناس دنياهم ملتحقا باخراه وناعما بجوار ربه ، ثم يوم ان تقادم على كل ذلك العهد ، واستطال به الوقت ، وامتد به الزمان الى عصر « احمد » امير الشعراء وشاعر الامراء ، عليه الرحمة وله المغفرة .

ليس هناك فى جوهر الامر تضارب كبير فى رواية الواقع عما تم حدوثه فعلا ، فقد كان ثمة ــ فى جلية الحال ــ « معتمد » وطوائف ، وقد اقدم الامير اللمتوني ــ ولا ارتياب ــ على انهاء اثر الجميع ، من حيث انهم حاكمون ذوو امر وسلطان ، ثم بادر فالحق الولايات الاندلسية ــ بعد ذلك ــ بالمغرب ، على الاقل من الوجهة الادارية والسياسية ، فالقصة اذن لها جذور متصلة فى الواقعية ، ليس الى الاغضاء عنها من سبيل ، وليس هناك من مدلول منطقي لهذا الاغضاء ، لانه ليس له من داع او موجب ، الا ان اصحاب العقلية المعتمدية ومن تحت تاثيرهم من قريب او بعيد ، لم يكن لهم فى مجال الواقع غناء كبير ، فاذا هم وقد لجوا فى شنها حملات تقريع صارخ وثلب مرير ، لصاحب حملة الزلاقة ، تجاوبت اصداؤها من عهود الاسر فى اغمات مواكبة سير التاريخ الادبي الى عهد مؤلف « اميرة الاندلس » حيث اضحينا نعقل ان الامر بين المغرب والعدوة لم يكن ــ فى اهم نواحيه ــ امر سياسة او دولة ، او شان حكم وولاية ، او مناط اتجاه وعقيدة ، وانما كان ــ فى بعض الجوانب على الاخص ــ امر زواج ونساء ، وحب وغرام ، وتبار فى الفوز باميرة الاحلام ، (قصة بثينة وسير بن ابي بكر) (1) وقبل ذلك باحقاب متطاولة ، عزوا اصول القصة الى رغبة جامحة من جانب يوسف ، فى الاستئثار بما كانت تتوفر عليه اراضي ما وراء الزقاق من خير وافر ، ونعيم مقيم ، بينما اتجه الآخرون الى اعتماد تعليلات « حضارية » قوامها ما كان بين العدوتين من تفاوت فى التقدم والتطور ، وقد ذهب الى غير ذلك الكثيرون ، وكان الهدف فى الغالب هو يوسف ، يصيبونه بسهام النقد المرير ، ثم لا يتورع بعضهم عن النيل منه الى حد اللجوء لارخص اساليب التعيير والتشهير .

❋

هذه فى الواقع ظاهرة تاريخية غريبة ، ومن الغرابة بالمكان الابعد ، فلم يسلف ــ الا فى النادر نسبيا ــ ان تعرض امير مثل الامير اللمتوني ، الى مثل هذه الحملة المنظمة المنسقة ، لما اتى به من عمل سياسي يعتبر فى الواقع عاديا ، لا من وجهة النظر السياسية او المنطقية ، بل يمكن مع غض النظر عن بعض الاعتبارات الثانوية ، ان يسوغ حتى من الناحية الاخلاقية والعاطفية . ولم يسبق ايضا فى كثير من الحالات ان نعم امير مخلوع ، او ربيب نعمة مولية ، بكل هذا العطف الى حد التدليل فى حياته او بعدها ، مثل ما كان عليه الامر ولا يزال بالنسبة لصاحب اشبيلية . واخص وجوه الغرابة ــ باعتبار بحثنا المحدود ــ ان ينطلق لسان ما فتىء ــ فى الغالب ــ يستبكي المآقي ويقرح الجفون ، على مجد الاندلس العربية الداثر ، وعزها الغابر ، ليعود كرة اخرى فيفيض تنديدا بالذي كان له



حجرة النوم فى قصر المعتمد بن عباد ، باشبيلية .

(1) راجع الفصل الاول من (اميرة الاندلس)

اعمق التاثير في استنفاذ هذا المجد وصون معالمه لاحقاب متطاولة ، ويستعر تقريبا للذي حمى ذمار هذا العز وذاد عن حياضه ، واستبقى له قوة الاستمرار لمدى عهود بعيدة . واشد من ذلك ايغالا في المفارقة والاغراب، الا يتورع امير الشعراء عن انطاق « ابطال » روايته « المثالية » بكل هجن من التعبير ومقذع من التعبير ؛ في شخص صانع امجاد الزلاقة ، بل يعدو ذلك الى القدر الذي يحيط فيه جو الحديث عن « المغاربة » باطار من الزراية الرخيصة والمس الصارخ ، وكل ذلك لان قاهر « الادفنش السادس » اقدم على بادرة لم يكن له محيص عن القيام بها في سبيل الابقاء على مقاعيل الوضع السياسي ، الذي خلقته حملات طارق وابن نصير في منطقة شمال المتوسط الغربي .

فكيف يمكن تعليل هذا الاتجاه الذي اتخذته مدلولات « حادثة » المعتمد في اذهان رجال التفكير والقلم قديما وحديثا ؟ ارجح الظن ان ذلك يؤول في بعض الجوانب الهامة الى ذاتية المعتمد نفسه و « فيوضه » الوجدانية والخلقية ، فقد كان صاحب اشبيلية ـ الى مكانته السياسية ـ كعلم طوائفي بارز ـ شاعرا مرهف الاحساس ، عميق الشعور ، انيق النفظ جميل السبك ، حسن الديباجة والصياغة ، على جانب لا باس به من رحابة الافق ، وسعة الخيال، وقوة التاثير وكان ـ الى ذلك ـ شديد الكلف بمحاضرة الادباء ، كثير الحدب عليهم، شديد التقدير للعمل الادبي الجيد ، بالغ العطف على من يخلق هذا العمل ويبتدعه. فقد استمكن اذن ـ قبل ان يصارم الاندلس ـ ان يعد لذكرياته وصورته الشخصية والاجتماعية ، اجواء موائمة في محافل الشعراء والمتشاعرين ، والادباء والمتأدبين ، والظرفاء والمتظرفين ، واستطاع بذلك ـ بعد ان افل نجمه السياسي ـ ان ينطقهم ـ بصورة تلقائية ـ بكل ذي تاثير من القول ومستفز للشعور من الحديث ، بل انه هو عينه كان اكثر من لسان ذلق ، ذرب ، ومرن على التعبير عن « ماساته » وتصوير جوانب « محنته » ، مجيدا في احاطة كل ذلك بجو « دراماتيكي » عنيف . وقد بلغ من ذلك الى القدر الذي يستجيش اكثر العواطف كمونا ، ويستنزل اشد العبرات استعصاء . وقد كان مستهدفه من ذلك هو ـ علاوة على معالجة الغمة بالتفريج عنها ومغالبة الكربة بازاحة غيومها ـ المس على نحو غير مباشر بذكر آسره ، واستعداء الراي العام على هذا الخصم « القاسي » ، حتى يكون له من ذلك سبيل الى الاثار لعرشه ، والانتقام لمسلوب عزه وفقيد مجده . ومع انه لم يقتدر على اصابة المرمى الا بعد (امكانية العودة الى الاندلس) ، فانه على الاقل استطاع الى حد بعيد ان يبلغ من هدفه الثاني الشيء الكثير . وتهيا الجو المعد من قبل ، فاضفيت عرائس التقدير وآيات الثناء على ذكر « اسير اغمات » فيما انصبت القوارص المقذعات الجارحات على هامة آسره ؛ الى الحد الذي يمكن من الاعتقاد بان قد كان هناك تضافر في الجهود على الاطاحة بسمعته في الجحيم . واستشرت العدوى على تطاول الحقب ، وتلقف مظاهرها كل من امكنه ان يعرف شيئا من المعتمد وابن تاشفين ، وكانت الصورة دوما هي تلك التي رسمها المعجبون بادب « الشهيد » ومآتيه ، واستطال الزمن على الصورة ، فما زادها الا ترسيخا في النفوس ، وتركيزا في القلوب ، وهل كان لامير الشعراء ان يشذ عن القاعدة ، بعد ان شملت حتميتها غير الطبيعية عقولا موضوعية التفكير ، منهجية التقدير ، عملية التصور والادراك ؛ وهل كنا لنسفح الدمع السخي على صخر لولا الخنساء ؟ وهل كانت قلوبنا تهتز لذكرى فقيد ابن الرومي الصغير ، لولا مراثي ابيه البليغة المؤثرة ؟ وهل كان لنا ان نفيض عطفا ونرق اشفاقا على قرينة « ابن الزيات » لولا قصيدة زوجها المشجية المؤسية ؟

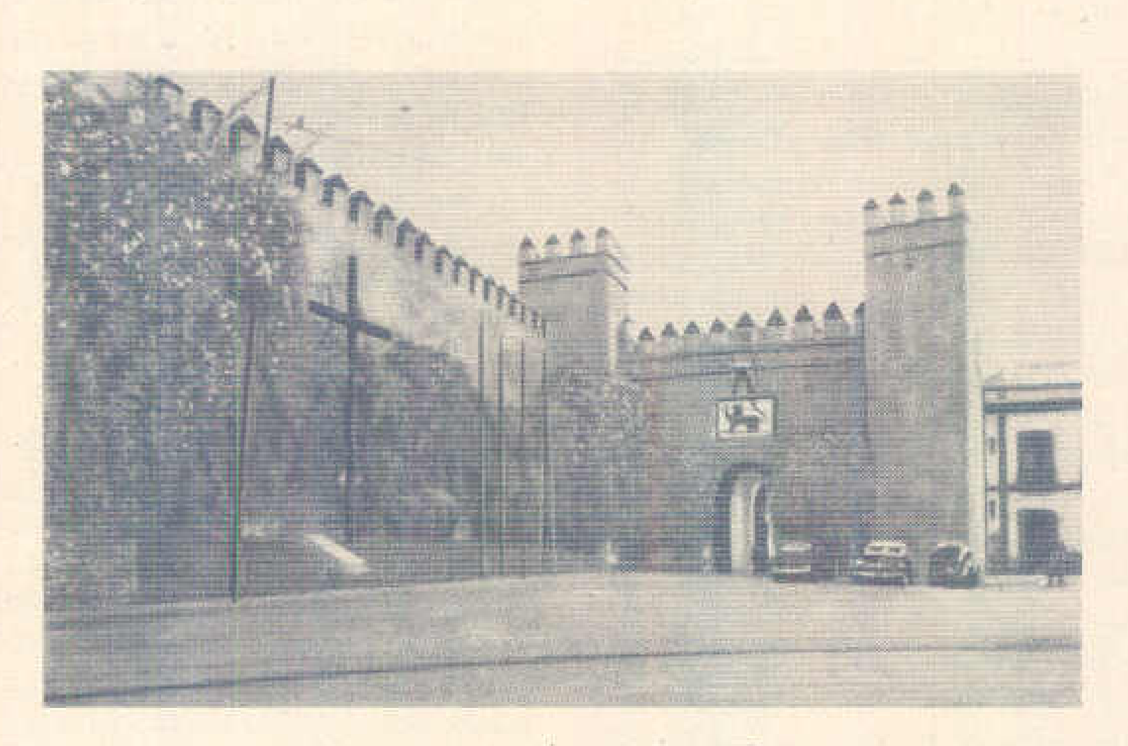
انه من الجائز الا يكون شقيق « تماضر » ، او وليد ابن الرومي ، او عقيلة ابن الزيات ، جديرين بكل هذه المشاعر ، التي تخلقها في وجداناتنا ما قيل فيهم من مراث مؤثرة ، ولكنها رقة الشعر ، التي اذا لابست حقائق التاريخ ، فان النتيجة الحتمية لذلك ، تكون في الغالب من نوع ما لحظناه في قصة يوسف والمعتمد .

على ان هناك ظروفا اخرى اسهمت هي الاخرى في اصطناع اسباب هذه المؤامرة التاريخية على شخصية ابن تاشفين ، وهي في هذه الكرة ذات طابع سياسي صرف ، ذلك ان يوسف قد اصطدم عندما اتخذ بادرته الحازمة ، بانظمة لم يكن هناك ما يميزها عن بعضها ، الا ما يتصل بالمظاهر السطحية ، الناشئة عن الروح الاقليمية والطائفية ، اما من حيث اللون والاتجاه ، فقد كانت كلها ـ وسائل واهدافا ـ تتركز في بؤرة واحدة : اهواء الامراء وذوي النفوذ ، من بني عباس ، وبني هود، وبني الافطس ، وغيرهم من اعلام النظام الطوائفي . وقد اقتدرت القوات المرابطية على الاطاحة بهذه الانظمة المهلهلة ، عن طريق الفتح القاهر وقد كان مصير اولئك الملوك ، مصير كل محارب في العصور الوسيطة ، عندما تتم عليه الهزيمة ، ويقع قيد ارادة خصيمه . لقد كان

المصير في الغالب : القتل البسيط او المعقد . ولم تكن نهاية ابن عباد ـ لحسن قدره ـ على هذا النحو الذي لم يكن هناك ما لا يجعله مرتقبا ومتوقعا ، فقد ابقى عليه « امير المسلمين » ناقلا اياه الى العدوة الافريقية من المتوسط ، وهناك في اغمات ، عاش كما يعيش الاسرى ومعتقلو الحرب ، وامتد به الوقت في القيود ، فكان ذلك سبيلا لاخصام يوسف من انصار الانظمة الطائفية ، نفذوا منه الى الاثار لنفوذهم الدابر ، عن

منه قضية انسانية عاطفية . من شانها بالطبع ان تثير « حالات » اتخاذ مواقف مضادة من جانب كثير من المؤرخين ، وتسيل عبرات الشعراء من مثل « شاعر البلاط الخديوي » له المغفرة .

ثم اننا اذا سايرنا ايضا الجانب السياسي للقضية ، فاننا قد نجد ـ وهذه محض افتراضات ولكن ليس هناك ما من شانه ان يؤكد انها صرف خيال ـ للانقلاب الحكومي في المغرب ، ذلك الذي افضى الى



« باب الاسود » كما يبدو اليوم احد أبواب قصر المعتمد بن عباد باشبيلية

طريق استغلال حالة المعتمد ، وابراز ما فيها من نواح انسانية وعاطفية ، وتجسيم كل ذلك في شكل صارخ ومثير .

لقد كان من المعقول ان يلجأ انصار الانظمة الآفلة الى مثل هذه الاساليب ، في مناهضة الموجة المرابطية الكاسحة ، تلك التي اجترفت في مجراها مصالحهم وظلالهم اجترافا ، فكانوا وهم يندبون حظ المعتمد ، ويستبكون عليه متحجر العيون ، انما يستهدفون من ذلك مرامي سياسية ابعد ، قوامها اثارة حرب سيكولوجية « انسانية » على الخصم المشترك . ولم يكن من الممكن ـ بعد ذلك ـ وقد تطاولت الايام على الحادث ، الا ان يأخذ هذا الشكل الذي اصبح يجعل

قيام النظام الموحدي ، بعض التاثير في الامر ، فقد دأب الموحدون منذ تسلموا قياد الحكم على النيل من اخصامهم اللمتونيين ، عن طريق العمل على شجب نهجهم الديني ، وانتقاد سلوكهم السياسي ، واستهجان مفاهيمهم الاخلاقية ؛ وليس ثمة ما له قوة الحمل على استبعاد ان يلجأ « المهدويون » في حملاتهم المضادة لاسلافهم من اللمتونيين ، الى تجسيم خشونة طبع عميدهم المبرز ، وابراز مظاهر « غلظ قلبه » وضعف شعوره الانساني .

ومهما كانت العلل والمؤثرات ، فقد كان لحادثة يوسف ـ المعتمد اصداء بعيدة الاثر في كتابات المؤرخين ووجدانات الشعراء ، وتفكير الادباء ، على توالي الاحقاب

وقد كان نصيب يوسف من النقد ، اكثر بكثير مما صادفه عمله من مصادقة او تحبيذ . والواقع ان هذه العاطفة التي تثيرها على ذكرى يوسف حادثة المعتمد ، لم تكن كما سلف ان رأينا — في كثير من جوانبها — الا مفتعلة مصطنعة ، ثم اصبحت — بعد ذلك — تحت تأثير قوة الاستمرار، تقليدية وتلقائية وذات بواعث لا واعية. فمن الجلي ان الاتصالات الاندلسية المغربية الاولى ، لم تكن من صنيع يوسف ، ولم يكن هناك ما يوحي بانه كان يمهد لها او يصطنع اسبابها وموجباتها ، فهو لم يقدم — في واقع الامر — على مزاولة تداخله في الاندلس، الا استجابة للضغط المعنوي الذي مارسه عليه سكانها المسلمون حيث استدروا عواطفه باستغاثاتهم ، وحملوه على ركوب كل صعب وذلول لانجادهم ودرء الملمات عنهم . على انه ولو لم يكن هناك ما يبرر تدخله من استغاثة او استصراخ ، فقد كان من الحتمي بالنسبة الى المغرب والاندلس ، ان يتم هذا التدخل ايا كانت وسائله او اساليبه او ذيوله ، فالعدوتان كانتا منذ احقاب متباعدة ، تكونان وحدة سياسية وادارية متكاملة ، وتؤول جذور هذا الترابط الاولى — فيما يتصل بالعصر الاسلامي — الى ان المغرب كان منفذ العرب الى شبه الجزيرة ، يوم تم لهم اكتساحها بجموع اكثر وحداتها من اهل هذه البلاد . هذا علاوة على ان المفاهيم الدولية التي كانت تضبط نوع الارتباطات الاممية ، لم تكن بالضرورة او بالفعل مشاكلة لما عليه صورها اليوم ، ولما تتجسد فيه هذه الصور من كيانات قومية متميزة ، ورقع سيادات وطنية حيوية ، ومجالات حفاظ على ذاتيات اقليمية متباينة .

وعلى اي ، فقد كان من الضروري غداة ان ولت فلول المسيحيين مدبرة على الاعقاب في الزلاقة ، ان توضع مشكلة الاندلس السياسية على الطاولة ، فالانتصارات السياسية — وان كانت ساحقة صاعقة — لا يجوز مطلقا ان تفضي الى اقرار اوضاع سليمة وثابتة ، ما لم تتلها — ان لم تكن على نحو متواقت (1) فعلى الاقل علىاساس من التعاقب — تدبيرات سياسية رشيدة ، وتنظيمات ادارية قويمة ومحكمة ، اذ من شان ذلك ان يساعد على استمرار النتائج التي تتجلى عنها المعارك الظافرة الفاصلة ، فالانسجام في التحركات ، والدقة في التكتيك ، والتناسق في الاتجاه ، والتجانس في المظهر ، هي من اوليات العلل في سحب معركة ما ، وكذلك الشان في السياسة والحكم . فحتمية لازمة اذن ، ان يكون هناك نوع من الاستمرار والاطراد في الروح التي يجب ان تسود جو المعركة الناجحة ، وتضبط سير الامور في الوضع الذي قد ينبثق عن هذه المعركة ، وهذا ما نفتقده نحن — كما فعله من قبل « امير المسلمين » على صعيد اندلس ما بعد الزلاقة — فلا نحس له اثرا ، ولا نكاد نسمع له ركزا .

فالجو السياسي الاندلسي كان يضبطه عاملان اساسيان : عامل الروح القومية الايبرية والمشاعر المسيحية المضطربة من جانب ، وعامل الشعور بمشروعية امتداد « الحضور العربي » والملة الحنيفية في تلك المنطقة القصوى من غربي اروبا من جانب آخر. فالامر اذن كان مسالة وجود او عدم بالنسبة الى الكيان الذي كان يشكله وجود المستوطنين المسلمين في شبه الجزيرة ، وهذا الكيان لم يكن له لينعم بالتماسك والثبات طويلا امام العناصر المضادة ، لسبب بسيط هو انه كان لا يتوفر على اسباب هذا التماسك والثبات. وشاهد ذلك ما كان يحدثه وجود الانظمة الطائفية من ثغرات وصدوع بين صفوف كان المفروض لها ان تكون في تلك الظروف الدقيقة وهي اشد ما يمكن عليه من الالتحام والتكافل والتراص ، واذا اكتنهنا — من جهة اخرى — حقيقة الروح القومية الواسعة المفهوم ، تلك التي كانت تسود الاذهان عصرئذ ممتزجة بملابساتها العقائدية والدينية ، وبكل ما كان لذلك من تشابك مع المدركات السياسية ومعطيات العلاقات الاممية ، ادركنا حقيقة الحوافز التي حدت بابن تاشفين — في اتصاله الثاني بالاندلس — الى اعادة الكرة على القطر، واستباحة التدخل المباشر في نظامه السياسي — الحكمي ، وتعديله على ذلك النحو المسرحي المثير .

فالاندلس لم تكن — في جوهر الامر — او على الاقل — كما كان المفهوم السائد عندئذ ، او كما يتعين ان يكون — ملكا خالصا لعناصر ربيعة او مضر ، ممن اتخذوها وطنا جديدا او موئلا ثابتا ، انها كانت في واقعية المدركات السياسية ، التي ليس هناك ما يسلبها لحد الان قيمتها الاستدلالية الاحتجاجية — موطىء قدم للعرب في غربي اروبا ، ومنطقة ارتكاز لاشعاع اسلامي محتمل ، ومنطق تسرب « حضاري » شرقي لاقاليم ما وراء « البيريني » وشواطىء المتوسط الشمالية الغربية . فامر الاندلس اذن لم يكن امر معتمد او مستعين او معتضد ، ومصير الوجود العربي

1) ما يقابل اللفظ الفرنسي Simultané

والاشعاع الفكري الاسلامي . في مناطق شمال غربي المتوسط وما وراءه ، لم يكن ثمة ما يقسرهما على ان يبقيا رهن ارادة او قيد مصالح اصحاب الشامخات الشاهقات من قصور اشبيلية او قرطبة ، لانه لم يكن هناك تلازم عقلي او واقعي بين الضرورة التي كانت تخلقها ارادة الحفاظ على سلامة ذلك المصير ، وبين طبيعة الجو العام الذي كانت تكيف جوانبه وتحدد شكله روح من العمل على استمرار تلك المصالح واطراد وجودها .

على ان المستوطنين المسلمين بالاندلس ، كان من الجائز بضرورة ما لهم من وجود فعلي واحتكاك مباشر مع القوات الخصيمة ، ان يكونوا بالمفترض فيهم من تماسك وقوة واستعداد ، الدرع الواقي والصرح الشامخ الذي من شانه ان يدرا عن مجالات فتوحات طارق وابن نصير ما كان يتهددها من مخاطر ، وما كان يتوكفها من اسواء ومصائر ، ولم يكن ثمة فيما لو كانوا على هذا القدر من شموخ الروح المعنوية ونبالة الاحساس الديني والجنسي المشترك ، موطن لتحقيق اي لون من التدخل في مصون « عرائنهم » ، ومحاولة التاثير على توجيه مجرى الامور في مواطىء عزهم ومراتع مجدهم وحمى ذمارهم . كان الدفاع حينذاك عن البلاد لا يعدو ان يكون فرضا كفائيا ، يسقطه القائمون به عن القاعدين عنه ، ولم يكن ثمة بضرورة المقتضيات المنطقية والحالية ما يهيب بامير المغرب المرابطي الى ممارسة العمل على تعديل نوعية نظام حكم الاندلس ، الا ان يكون واقعا تحت تاثير الرغبة في استخلاص « المكاسب » و « المنافع » ولكن الوضع كان على قسط من المناقضة لذلك ، مما جعل من الحتمي تدخل يوسف او غير يوسف ممن كان يمكن ان يهيئهم القدر لانقاذ الموقف الذي كان قيد الانهيار .

فابن تاشفين اذن لم يفعل الا ان انجز واجبا حتمته العقيدة ، واستوجبته القرابة، وارتضاه الضمير، وباركته العناية ؛ والا ففيم كانت هذه الجحافل التي اقتادها الى ميادين العراك في الزلاقة ؟ فيم كانت كل هذه التضحيات التي بذلها عن طواعية ، وتحمل تبعاتها بكل اقتدار ؟ اكان القصد مجرد غارة عابرة ليكون الهدف الابعد الكبير – بعد ذلك – اتاحة الجو المطمئن المامون « للطوائفيين » ، حتى يكون في ميسورهم آنئذ استمراء ما كان يتوافر لديهم من طيبات الحياة واشراقة النفوذ ولمعان السلطان وبسطة الحول ، ولو كان السبيل لذلك التآمر على تراث الماضي ومقدسات الحاضر عن طريق الارتباطات المريبة مع الخصم المشترك . ان يوسف كان على الارجح اكثر فهما للشعور العربي ، واعمق ادراكا للواجب الديني ، من ان يتوقف – بالنسبة للماساة التي كانت نذرها الرهيبة تخيم على جو الاندلس العربية عند هذه السطحيات غير المستساغة .

*

وتاتي بعد ذلك قصة اسر المعتمد ، وقد افاض فيها الكتاب والشعراء القول ، كل على طريقته الخاصة ، وبالاسلوب الفكري والتعبيري الذي ينبثق عن طبيعة تاثراته النفسانية ، واختلاجاته الوجدانية ، وجوه العقلي ، وعديد منهم من ذوي الحساسية المرهفة جدا ، لم يتورعوا – منفعلين بظروف الحادث وملابساته – عن الايغال في النيل من امير المغرب المرابطي الى حد الاقذاع المسف احيانا ، وكان النصيب الاوفر من الطاقة الشعورية الزائدة التي تتوافر لهذا الصنف من المقذعين، والتي ربت موجباتها امام ظروف حادث المعتمد – عاملا قويا حفز الباحثين منهم الى الانسياق وراء افانين من « التحقيق العلمي » لم يعد فيه للذاتية او الموضوعية من مفهوم او موجب تمييز . اما اصحاب القريض – من المتاثرين بالعقلية المعتمدية الشوقية – فكان لهم باعث على الوقوع تحت سلطان كثير من المشاعر الثائرية ، قادت عديدا منهم الى كثير من « الشطحات » الشعرية، المتدنية احيانا الى حضيض الاسفاف البالغ الزراية .

على ان هذا الاسر اذا وضعناه في حدوده المعقولة، فانه لا يسوغ لنا ان نتناوله على ان يكون حادثة خاصة يمكن اعتبارها وتقديرها بصورتها الانفرادية المستقلة؛ انه جانب فقط من جوانب كثيرة لقضية معقدة ومتشعبة : تلك هي وضع الاندلس السياسي بعد تفكك الحكم الاموي القار ، بل انه نتيجة منطقية لما يمكن ان يكون هناك من بوادر تعديل وضع كان في اساسه شذوذا ناشئا عن الانحلال الاموي في اواخر القرن الحادي عشر م . لقد كان على النظام الطوائفي ان يجابه في اي وقت مصيره الحتمي ، لانه كان بشذوذه وعدم طبيعيته ، لا يتوفر على ما يمكن ان يتركز عليه من قاعدة شعبية يعتمدها ، او مثالية ولو متواضعة يستند اليها ؛ ولهذا فقد كان يحمل في تضاعيفه عناصر فنائه وانمحاقه ، ولم يكن يوسف الا عامل هذا الفناء ، والوسيلة التي امكنه ان يخرج بها من حيز القوة الى الفعل . وقد كان من الجائز ان يكون العامل غيره ، اما نهاية القصة فلم يكن لها الا ان تكون في كلتا الحالتين متجانسة ومتشابهة .

وتبدو الينا الغرابة عندما نلحظ ما تفرد بـه صاحب اشبيلية من عطف الراي الخاص عليه، في الوقت الذي لاقى فيه كثير من « زملائـه » في الطائفيـة . مصيرا كان في بعض الاحيان اقسى ظروفا واشد هولا . ولا تعنينا هذه الملاحظة كثيرا ؛ فقد كان يمكن ان يكون لشاعريته كما المعنا اليه في صدر هذا المبحث ، ضلع هام او تافه في ذلك ، الا ان الذي يعتصر منا الاغتـراب اعتصارا ، هو هذا الاندهاش الذي بدا على الكثيرين ، من اقدام الامير المرابطي على « انتزاع النسر من معقله » وايداعه غياهب اغمات الرطبة ، على حد تعبير صاحب « اميرة الاندلس » . فهل كان على يوسف ان يترك ذلك الصقع الاروبي المتعرب لمصيره القاتم لكيلا يضطرب سكون ابن عباد ، وتظلم — الى حد ما — آفاقه الشخصية المتلالئة . . ؟ اكان على تلك العقلية اللمتونية الجادة البناءة ان تتلبث اكثر مما فعلت امام العوامل السياسية والعسكرية الكاسحة . . . تلك التي كان من شانها ان تستعجل هذا المصير، وتؤذن بظهور ارهاصاته واماراته ؟ ام هل كان عليها ان « تترصن » اكثـر ، فـتبقي لدولة القريض (عميدها) وراعيها وناشر « الويتها » ولو كان ذلك على حساب الكيان القومـي الموحد الذي كان على الاقاليم الاسلامية الاندلسية ان تنتظم فيه امام غارات « الادفونش » الرهيبة ؟ .

ثم لماذا اودعه السجن ؟ وهل من الجائز ان يتوقع ادنى من ذلك من حشد الحشود وشرع الاسنة وشهر البيض الصفاح ، في وجه جيش محرر ، ثم سقط اخيرا في قبضة ذلك الجيش ووقع رهن اعتقاله ؟ انه ليس من المفهوم مطلقا ان ترجى للمعتمد بعد ان تازم الموقف بينه وبين « جيش الانقاذ » الى حد اللجوء لاستصراخ العدو المشترك ؛ مصيرا اجمل او نهاية افضل .

ماذا كان يمكن ان يكون عليه الامر لو كان المعتمد في موقف مماثل لموقف « امير المسلمين » ؟ اتراه كان يمكن ان يكون اكثر احساسا بدقيق المعاني الانسانية ، واعمق شعورا بارق المفاهيم الاخلاقية ؟ ان النهاية القاتمة التي كان لاقاها ابن عمار ، والنكال الذي اصابه به ابن عباد ، ذي القلب الرقيق والاحساس الدقيق ، تجدينا في الاجابة عن ذلك ، وليس من مرامي اثـارة الاعاصير على اسم المعتمد لتصرفه القاسي مع « صديق امسه » ابن عمار ؛ فقد كان من الجائز ان يكون صفي المعتمد السابق جديرا بذلك المصير المؤلم ، ولكن الذي استهدفه من هذه الاثارة العابرة ، هو تقدير ما عسى ان نستنتجه من الموازنة بين موقفين — مع وجود الفوارق طبعا — لنتبين من ذلك انه لم يكن هناك في تصرف ابن تاشفين ، ما من شانه ان يستثير كل هذا الاندهاش والاشمئزاز والاستهجان .

قد يجوز ان يكون ثمة فارق كبير بين مفهوم القدر المتمثل في انقلاب ابن عمار ، وبين موقف الدفاع عن النفس المشروع ذلك الذي اتخذه صاحب اشبيلية، ولكن على اية اسس اتجاهية او ايديولوجية كان هذا الدفاع ؟ على ماذا يستند اليه من مقومات معنوية او مثالية رفيعة ، او جوانب مصلحية عليا ؟ بل اية صبغة سياسية مقبولة يكتسيها ، واي رداء عقائدي ان لم يكن رداء الميكيافيلية يتشح به ؟ انه لم يكن في جوهر الامر الا استماتة في سبيل التمسك بامتيازات فردية ، ما كان لقضية الاندلس الكبرى فيها من كبير غناء ، ولم يكن لها بها متين صلة او شديد ارتباط ، وهذا ما يمكن ان نعتبره بالنسبة لموقف ابن عمار ، الذي لم يكن منطلقا الا من نقطة مماثلة . فمظهر الصراع الاول لم يكن الا تعبيرا عن شديد اضطرام روح الاثرة والاستئثار داخل النظام الطوائفي ، اما مظهر الصراع الثاني فقد كان وليد انفجار هذا النظام تحت تاثير العوامل التي من شانها ان تعفي عليه بالنظر الى تطور الاجواء حوله ، وتقدم ركب الايام عليه .

فقد كان التفجر اذن نتيجة كيميائية سياسية ، تفاعلت بموجبها العناصر الاولى للوضع المتخلف ، مع مادة الجو الجديد الذي خلقه تدخل المرابطين ، فكان التضاد بين العناصر سبيلا الى حدوث التصدع ، ولم يمس بالطبع الا الجزئيات الاكثر ضعفا والاقل تماسكا والاشد تسمما ونخرا . . .

انه من الضروري لكي نتفهم هذا ان نتذكر باستمرار — وهذا ما لا اجد ضيرا في تكريره — ان مصير الاندلس العربية . . . ذلك المصير الذي لم يكن له ان يكون مشرقا ناصعا في ظلال انظمة مهلهلة من مثل تلك التي كان يمثلها ابن عباد — لم يكن هناك ما يقتضي جعله قيد وجود نظام خاص او شخص بعينه او وضع بذاته . انه كان مصير الاسلام الذي تعد الممانعة عن حوزته ، فرضا عينيا على كل من كان كفؤا قديرا ؛ وقد كان ابن تاشفين الكفؤ القدير .

على ان اصحاب العقلية المعتمدية ، قد يستمسكون في نهاية المطاف بالجانب الاخلاقي والعاطفي من القصة، منطلقين من ذلك الى التدليل بحماس ملحوظ احيانا على تجمد شعور الامير المرابطي وتحجر عاطفتـه ، وقسوة سلوكه ازاء الملك الذي اخنى عليه من اخنى على لبد . . .

والواقع ان هذه النقطة بالذات هي من اكثر النقط متانة واوفرها دلالة في اقامة الحجة على يوسف ، فقد كان الامير المرابطي في واقع الحال ، اقل عاطفية واكثر صرامة في مسلكه مع « الملك الاسير » .

على انه ان جاز تقدير هذا الجفاف في المعاملة من الوجهة الاخلاقية الفلسفية ، فانه لا يسوغ مطلقا اعتباره من وجهة الخلق السياسي القويم ، فقد كان على يوسف — شان كل فاتح — ان يكون على درجة من التيقظ والتبصر ، وقد كان طبيعيا بموجب كل هذا ان يحتاط — لصالح اقرار الوضع الجديد في الاندلس — بتحديد حرية المعتمد وتقييدها في جدران اغمات ، فابن عباد وان لم يكن هناك — شان غالب ملوك الطوائف — ما يبرهن على شعبيته الكاملة في بلاده ، فانه لم يكن ثمة ما يكفه عن الاستفادة من عطف بعض الانصار والمستنفعين والمتنفذين في اثارة مظاهر الارتباك السياسي ، في بلاد كانت سلفا تكاد ان تنفجر تحت تاثير التصادم الجنسي والديني بين التيارين المتواجهين فيها : الايبري المسيحي ، والعربي الاسلامي .

وقد كان « الخلفاء » من آل العباس اكثر جدا من يوسف قسوة واشد منه ضراوة ، وذلك في سبيل تامين خططهم السياسية والعسكرية (المنصور : ابو مسلم الخرساني — الرشيد : البرامكة — المتوكل : العلويون) بل ان الاول منهم لم يتورع عن ركوب متن المخاتلة والغدر السافر ، دون ان يلاقي ذكره من ذلك ، ما صادفه ذكر ابن تاشفين من تلويث وتلطيخ ، لان الضحية كان في الاولى فارسيا بينما كان في الثانية عربيا ينتمي الى البهاليل الشم العرانين ، من المناذرة ملوك الحيرة

وقد يجوز القول بان الامر كان في حق المعتمد اشد ايلاما واعمق تاثيرا من القتل نفسه ، لان الالم هنا يتصل بالصعيد النفساني ، الامر الذي قد تعنف خطورته وتثقل وطاته ، بالنسبة الى ربائب النعمة من اصحاب القصور والمحفوفين بالحشم والقهارمة والدايات . ولكن هذه قضية اعتبارية نفسية ليس ثمة من سبيل معقول الى النفوذ منها لتكوين قواعد ثابتة ، او معايير ذات طبيعة شمولية ، وعلى هذا فليس من الحصافة في شيء الاستناد عليها مفردة ، في تكوين حكم ذي مشمولات عامة وكلية ، على ان الجانب الاخلاقي من القضية ليس — فيما لو انعمنا النظر جيدا بذي خطورة بالغة — كما يجتهد المعتمديون في اقراره ، فابن تاشفين لم يكن في تصفية شخصية المعتمد الا آسرا لا سفاكا ، وقد اقدم قبله او بعده الكثيرون على اهدار دماء اكثر براءة ، وفي ظروف اشد قسوة ، ولاسباب ابلغ تفاهة وابرز تعسفا ، وفي مظاهر اعمق تاثيرا ، ومع ذلك فلم تخلق اعمالهم تلك كل هذه الحملة الصارخة الصاخبة ...

❋

وقد افاضوا كثيرا حول نوعية الحياة المادية — المعيشية « القاسية » تلك التي اقسر على العيش فيها زوج الرميكية صاحبة الطين . غير اننا اذا اكتنهنا طريقة العيش ومستوى اللبونة في الحياة التي كان يعيشها يوسف نفسه ومن اليه — على ما يبدو — من بطانة وخاصة ، فاننا ندرك ان الجو المادي « المتواضع جدا » ذلك الذي احيط به المعتمد في اغمات ، لم يكن بالقياس الى الحياة العامة وحتى الخاصة ، جحيما لا يطاق او سعيرا لا يتحمل . ان استقراء نسب التطور المعاشي الذي كان عليه المجتمع المرابطي ، و على الاقل بعض عناصر هذا المجتمع ، هو الذي يمكن ان يضبط لنا مدى عناصر التنكيل والاعتساف من غيرها في تكييف الجو الحيوي الذي اكتنف وجود المعتمد في اغمات . وان تقصيا من هذا الصنف ليس من شانه الا ان يقود الى امكانية الاعتقاد بان الخشونة المعيشية ، التي صادفها « ربيب القصور » في منفاه بالقرية المغربية الجنوبية ، لم تكن كلها مصطنعة ومتعمدة ، وانما كان الكثير منها — ان لم ينسجم — فعلى الاقل لا يتنافر تنافرا حتميا وكليا مع نظرية رئيس الدولة والمتاثرين به من عناصر الجهاز التنفيذي العام — في تحديد طبيعة العيش الامثل ، وعلاقته بالدين والاخلاق والحكم .

انه ليس من الضروري ان نخلص من ذلك الى السبيل الذي يمكن ان يبرز لنا ملامح صورة المستويات المعيشية ، التي كانت تتوافر لوحدات المجتمع المرابطي ، وانما الذي يعني اساسيا في هذا المجال هو التدليل على ان طبيعة المفاهيم الدينية والخلقية ، التي كانت تضبط في الكثير سلوك يوسف العام لم تكن بالضرورة ، مما يتسق وجوانب الحياة الوردية التي كان عليها غيره من اعلام الطوائف ، وهذا ما من شانه ان يكون له بالطبع كثير من الانعكاسات الاوسع مدى على منسوب الرفاء في حياة اولئك الذين كانت تضمهم جدران مراكز الحجز والاقامة الاجبارية ، كما كان الشان في اغمات .

واذا تم تاكد ذلك ، فانه من شانه ان يزيح كثيرا من سحب الاتهام الذي احيط به في هذا المجال ذكر

يوسف ، فانتفاء ارادة الشر ، لا يمكن الا ان يعتبر ظرفا او مبررا فى الاتهام ، ولو مع وجود ذلك الشر وتجسمه .

هذا الى ان ظروف الحياة المترفة الناعمة ، التي كان صاحب اشبيلية يشرب كؤوسها حتى الثمالة ، والتي كانت بالطبع تتنافى مع حقيقة المصالح الشعبية الاندلسية ، لم يكن من شانها الا ان تجسم نسبة الفوارق بين مستويات العيش فى ابهاء قصور اشبيلية ، وبينها فى اغمات . وهل كان على يوسف ان يحيط جو اسره بالمظاهر الحمراء او حتى ما دونها ، مع انه كان هو عينه لا يحفل باشد مطالبه الجسمية الحاحا فى سبيل الصالح الاعلى ؟

اما القيود فهي بالاضافة الى ان اللجوء اليها لم يكن فى مفاهيم تلك الحقبة الحضارية القاصية امرا ادا — كما يبدو الآن — فانها — ولو مع افتراض انها القيت عليه منذ اتصالاته الاولى باغمات — كانت شرا ضروريا حتمته ظروف اعتقال المعتمد . ودرجة خطره السياسي، وشدة الحذر المتبصر الذي كان معهودا فى يوسف . الا ان الواقع ان نزيل اغمات كان قد تهيأ له فى معتقله — منذ البداية — جو مجرد عن كثير من عناصر العسف مما كان يلاقيه عادة المحبوسون فى دهاليز القرون الوسطى (1) فلم تكن القيود فى رجليه تعوقه عن السير الحر ، ولم تكن الاصفاد فى يمناه او فى يسراه تحد من ارادته فى الحركة والتناول ، بل انه كان على النقيض من ذلك ينعم بحرية واسعة تبيح له الاتصال بالزائرين والعاطفين (2) بل انه كان ينشد بعض مجالسيه ، ويبثهم لوعاته المعتمدية ، ويفضي اليهم بشؤونه وشجونه . وقد كان من الجائز ان يكون فى ذلك بعض التأثير على استقرار الاحوال بالاندلس وحتى بالمغرب ، ولكن الارادة الكريمة (نسبيا) تلك التي كانت تهيمن على مصايره ، لم تشأ — مضحية بحق الدولة ومصالحها — ان تتذرع بذلك الى زيادة اثقال الجو الذي كان يكتنفه داخل جدران المعتقل ، والذي قضت به كما رأينا ظروف واسباب تتصل بالصالح الاعلى ، الا ان عاملا جديدا طرا على الموقف السياسي بالاندلس ، وحيث انه كان من ذيول حادثة المعتمد ، فقد كان من المنطقي ان تتأثر به ظروف حياة « نزيل اغمات » تأثرا سيئا ، ذلك حينما ثار عبد الجبار ابن المعتمد باحد المعاقل المجاورة لاشبيلية (مجاورة الانامل للراح، ظاهرا على بسائط وبطاح ، لا يمكن معه عيش ، ولا يتمكن من منازلته جيش ، فغدا على اهلها بالمكاره وراح ، وضيق عليهم المتسع من جهاتها والبراح ...) (3) .

وكادت هذه الحركة الثورية تأخذ شكلا خطيرا ومهددا . وقد رافق قيامها بل كان اساسا لها حادثة سجن مالقة ، اذ تمكن محبوسون من استرداد الحرية بعد ان نجحوا فى نقب الجدار .

لقد كانت الثورة كما راينا رد فعل عنيف للعمل الذي قام به يوسف فى الاندلس ، وبدا — ولو عن طريق الظن — ان هناك تآمرا محكما على الوضع الراهن ، قد يجر اذا تم له السير الى مجراه النهائي تحرير المعتمد وقيام حالة من رد الفعل المعاكس فى الاندلس، قد يفضي لا بالحضور المرابطي بل بالوجود العربي فى العدوة الشمالية الى الانمحاق ، فكان لذلك من التأثير ان وضعت القيود على المعتمد ، وحددت حريته تحديدا دقيقا بعد ان كان (... لا يروع له سرب وان كان آمنا ولا يثور له كرب ولو كان فى ضلوعه كامنا ..) (4) وهذه تدبيرات وقائية احتياطية ان لم تكن مشروعة من وجهة النظر الفلسفية المجردة ، فهي — على الاقل — كذلك باعتبار الجوانب السياسية ذات المنطلقات الاخلاقية العادية .

وقد يزيدها معقولية ما بدا على المعتمد غداة قيام الثورة ، من حالة نفسية مضطربة متميزة — كما لمح ذلك بعض المراقبين — بشوق زائد وحنين جامح الى العودة لدست الحكم فى قاعدة اشبيلية وعلى ضفاف الوادي الكبير، ولكن تلك التجليات الروحية والاشراقات الوجدانية ، وشكان ما استحالت الى اسف عميق على

---

1) حين كان الهدف من مراكز الاعتقال : التنكيل بالمعتقل وتعذيبه ، لا مجرد تحديد نطاق حريته وتقييد ارادته ، وكم لهذه المراكز الآن من نظائر فى ارض الجزائر المجاهدة فى سبيل حريتها واستقلالها .

2) وكان فيهم بعض الاسماء اللامعة كالاديب ابي بكر اللبانة « احد شعراء دولته المرتضعين درها ، المنتجعين دررها ... » على حد تعبير صاحب الفتح .

3) هذه عبارات صاحب الفتح ، وهي مغنية فى التدليل على مدى الخطورة التي كانت تكتسيها الثورة .

4) شهادة من صاحب الفتح، وهي ادل من اي شيء آخر على حقيقة الجو الطيب الذي كان يحوط المعتمد — بداية الامر — فى معتقله قبل انطلاق شرارة التمرد .

سوء ظروف الثورة ، التي لم تفعل في الواقع الا ان اعانت على تجهيم وجه الحياة باغمات على اسيرهـــا المعاني .

وان في هذه الظاهرة ، ظاهرة الحنين الى العودة « لدست الحكم » لما يجلو حقيقة الدوافع المذهبية المثالية ، التي كانت تحدو سيد اشبيلية الى ابداء هذه المقاومة المستبسلة في منازلة جيش الغزو المرابطي، فهل كانت دوافع فردية او ذاتية ؟ او «مبدئية» جماعية ؟ ليس لنا ان نعرض لتحليل ذلك ولو ببعض التفصيل ، وانما نجترىء بالتعرض لهذه الابيات الحماسية التي انتظمت له في المنفى ، والتي تؤكد ـ مجددا ـ على ان البربر غداة انهيالهم على قصور اشبيلية ، لم يجترحوا توقيف مجرى تيار تاريخي فاصل ، ولم يقترفـــوا خطيئة الاعفاء على عامل قومي فعال ، كان يمكـــن ان يكون له تاثير على الاحداث حاسم :

لمـــا تماسكـــت الدمـــــوع
وتنهنـــه القلـــب الصديـــع

قالـــوا : الخضـــوع سياســـة
فليبد منـــك لهـــم خضـــــوع

والـــذ مـــن طعـــم الخضـــــو
ع على فمي الســـم النقيـــع

ان تستلـــب عنـــي الدنـــى
« ملكي » وتسلمني الجمـــوع

فالقلـــب بيـــن ضلوعـــه
لم تسلـــم القلب الضلـــــوع

لم استلـــب شـــرف الطبـــا
ع ايسلب الشرف الرفيـــع ؟

قـــد رمـــت يـــوم نزالهـــم
الا تحصننـــــي الـــدروع

وبرزت ليـــس ســـوى القميـــ
ـــص عن الحشا شيء دفـــوع

وبذلت نفـــي كـــي تسيـــ
ـــل اذا يسيل بها النجيـــع

اجلـــي تاخـــر لـــم يكـــن
بهـــواي ذلـــي والخشـــــوع

ما سرت قط الـــى القتـــا
ل وكان مـــن املـــي الـــرجـــوع

شيـــم الالـــى انـــا منهـــم
والاصـــل تتبعـــه الفـــروع

هي اذن انغام الفخر الذاتي ، والتسامي الشخصي الرخيص احيانا ، مما يندرج في اساليب فخر الطغرائي والشريف الرضى سواء بسواء ، ولم تكن الاندلـــس العربية وهي في دوامة الاحداث المروعة التي كانت تكاد ان تعصف بكيانها المتميز ، بالمفتقرة الى مثل هـــذه العقلية الذاتية الفردية بالرغم عن تقديرنا لخصائـــص صاحبها البطولية .

*

ويطالعنا بعد ذلك مثل هذا التساؤل : هل كانت تخامر حمية يوسف الدينية ... تلك التي اهابت به الى ميدان الصراع في الزلاقة ، نوازع استيلائيـــة او اكتساحية ؟ قد يكون ذلك جائزا من الوجهة المبدئية ، ولكن الظروف التي تم فيها التدخل ، وملابســـات الانقلاب السياسي الذي اعقبه ، من شانها ان تضعف من قوة هذا الاحتمال .

وليس من الحتمـــي تحليل هذه الظـــروف والملابسات بالنظر الى انها قد شرحت شرحا تفصيليا في ثنايا هذا المبحث ، الا ان الذي يستوقف الفكر في هذا الموطن بالذات ، هو تضارب الاقوال وتباينها ، وتناقض الروايات وتضادها ، في اثبات هذه القضية او نفيها . فبينما كان امر الجزيرة « عظيما » عند يوسف قبل ان يراها « فلما رآها وقعت لديه دون الوصـف ... » نجد انه « كان يظن انه قد « ملك » شيئا فلما راى تلك البلاد صغرت في عينه مملكتـــه ... » (1) فكيف يجوز التوفيق بين هذه الافانين الغريبة مـــن التناقض الشامل ؟ يعلل « المراكشي » ذلك بانه كان ناشئا عن دهاء يوسف وتلونه السياسي ، الا انه لـــم يشأ ان يجشم نفسه عناء التدليل على ذلك ، ويجتزىء كثاب كثير من رواة الاخبار القدماء ، بنقل النصوص دون تحليلها ، ومقابلتها ببعضها ، وامعان النظر في كل ذلك ، مع العناية باستخلاص الحقائق وتمحيص النتائج المنبثقة عن دراستها .

---

1) المراكشي بواسطة كيلاني (296) .

ثم ما مفهوم ان يكون يوسف قد عرف عن « الجزيرة » كل هذا ثم لا يبادر الى مزاولة تدخله في شؤونها الا بعدما استدرجه الى ذلك امراء الطوائف، مستخدمين كل دقيق من وسائل الاغراء وجليل ، فهل انه كان لا يدري بوجودها على الضفة الاخرى من بحر الزقاق قبل ان يعقل ذلك عن طريق الكتب التي انفذت اليه غداة مؤتمري اشبيلية وقرطبة ؟ هل يمكن ان يكون حديث المجالسين له عن « عظمة الجزيرة » من وحي هذه الكتب وباثارة منها ؟ ولكن ما علة هذا التردد الذي بدا عليه بعد ذلك بصورة ملحوظة ، وكاد يصده عن الاستجابة لصرخة الغوث الاندلسية ؟ ام ان ذلك كان ايضا من صميم الميكيافيلية التاشفينية ... تلك التي عرض لها « المراكشي » بقوله : ان يوسف كان يسر حسوا في ارتقاء ... ؟ قد يكون ذلك ، وخاصة اذا كانت تسنده شواهد مفحمة من صنف تلك التي ساقها صاحب « المعجب » .

على ان وهن الاستدلالات التي اعتمدها مثل هذا الضرب من المؤرخين في اثبات الرداء الميكيافيلي الذي « تتشح به سياسة يوسف الاندلسية » لا تقف في هذا الموطن بالضبط ، بل تعدوه الى غيره من المواطن ، حيث يسود التناقض السافر بين التأكيدات المتضادة ، (فقد كانت – مثلا – قلوب الاندلسيين قد اشربت حب يوسف) كما تطوع باثباته المؤرخ صاحب العقلية المعتمدية ، حينما كانت جموع « اهل الجزيرة واهواؤها مجتمعة ، وقلوب اهلها على محبة المعتمد منتظمة ... » (1) وذلك فقط عندما شرعت القوات المرابطية في تحركاتها العسكرية التطهيرية .

اي منطق متين !

الواقع ان ملف اتهام يوسف ، كما اعده المعتمديون من المؤرخين والكتاب والشعراء ، يضم كثيرا من لطائف المفارقات والمتناقضات ، مما لا يخلو من لذة ومتعة وطرافة ، وشواهد « المعجب » من « اعجب » النماذج لذلك .

*

وعلى الرغم من كل هذا ، فليس من المعقول ان تكون الحوافز المثالية الصرفة ، هي التي حدت بيوسف الى ممارسة عمله السياسي والعسكري في الاندلس على حساب الطوائف . انه من الجائز على النقيض من ذلك ، ان تكون عناصر نفسية متنوعة ، قد اسهمت في تكوين المركب الاتجاهي الذي قاد امير المرابطين الى اتخاذ بادرته الحاسمة ، بل انه من المستساغ ايضا ان يكون من بين هذه العناصر ، ما يتصل بصعيد افاعيل غرائز الاثرة وارادة الاستيلاء، ولكن ملابسات الواقع وتطورات الاحداث مما يمكن استشفافه من بين فقرات هذا المبحث ، لا تبرهن على ان هذه الغرائز كان لها تاثير جذري واساسي في حبك جوانب القصة وتلوين اتجاهاتها وتصميم اخراجها ، بل تدل على انها – وان كان لها مفعول موجه ، فانه لم يكن لهذا المفعول من التاثير الا بالقدر الذي لا يرقي الى ان يكون الديناميت الفعالة المحركة ، والاستدلال على ذلك قد يسوقنا الى تكرار ليس له من مسوغ .

ونلتقي مرة اخرى بمترجم « اشباح » فاذا ابن تاشفين ، وقد « اسبغت قسوته نحو المعتمد ونحو باقي امراء الاندلس على سيرته وعلى خلاله سحبا لم تمحها جميع الاعذار التي انتحلت لتبرير عمله .. » (2)

ونلتقي من جديد بامير الشعراء ، فاذا بعميد المغرب المرابطي وجيوشه « تمارس في زحفها على قصور المعتمد ، اخس اساليب النهب والاستيلاء واكثرها وضاعة » (3) وتحس في جو « اميرة الاندلس » وكان المؤلف يخال ان امير المسلمين ، هو الذي اوصى لبعض افراد جنده بممارسة هذه الاعمال ، مع ان مثل هذه المخالفات تصدر عادة في مثل تلك الظروف ، عن افراد اكثر الجيوش نظاما واشدها تهذيبا ، دون ان يكون لقادتها ضلع مباشر في ذلك بالنسبة لكثير من الاحيان (4) .

ونلتقي ثانية بشاعر الامراء ، فاذا يوسف لا يزال دون المروءة بالدرجة التي لا يستطيع معها حتى بذل المعروف لمن فضل جماله الصحراوية على خنازير الروم

1) المراكشي بواسطة الكيلاني (296 – 297) .
2) تعليقات عنان .
3) الفصول الاخيرة من « اميرة الاندلس » .
4) قد تم ارتكاب اخطر من هذه المخالفات في كثير من ظروف الحرب العالمية الاخيرة نفسها .

الاروبية . وكان الامير اللمتوني . كان على تلك العقلية المعتمدية ــ السوقية ، التي تحفل بالبراق من القول والخلب من الحديث ، وتؤثره على الاهتمام بمصاير الامم ، والتاثير على سير التاريخ، وتوجيهه الوجهة التي تتلاءم والمصالح الوطنية والعقائدية .

ثم نجد امير المسلمين وقد نزلت بـه في راي « احمد » « بربريته » وبدائيته ، الى الحد الذي يبدو فيه انه لا يستطيع التمييز بين الخير والشر ، ثم يتدنى به « شرهه » و « نهمه » الى الدرك الذي لم يعد فيه لديه امام المال والنشب تقدير لاي من القيم الاخلاقية والانسانية ، ثم لم ينس ان يصب على « السلطان الشحيح » ــ كما شاءت مروءة ابطاله ان يصفوه ــ جاما من النعوت والاوصاف الاكثر دلالة على تدني الطبع ورداءة الخلق ونذل الدخلة (1) .

ولا جرم ان كل هذا الشعور المرير ، الذي يشعه هذا الاسلوب الثائر ، هو وليد شعور صادق مخلص ، انفعل به وجدان « احمد » امام « ماساة » زميله اسير اغمات ، وملك الصابرين ، كما شاء ان يصفه .

وعلى هذا الاساس ، فليس لنا ان نذهب بعيدا في تقويم موقف الشاعر الروائي ، لانه كاشباه له كثيرين ، كان واقعا تحت عاطفته، ومتفلتا من سلطان منطقيته، عندما بدرت منه كل هذه التعبيرات غير الجميلة وغير الشعرية . انما الذي يعنينا جدا هو ما يمكن ان نصل اليه من التاكيد بان يوسف وان كان انسانا يضطرم قلبه بالنزوات والمراغب وتستعر نفسه بالبدوات والاهواء ، لم يكن في جوهر الامر واقعا وقوعا تاما تحت تاثير مظاهر الضعف الخلقية هذه ، وذلك عندما اتخذ بادرته الفاصلة ضد نظام الطوائف ، الذي كان يوجه مصاير الاندلس المسلمة . واكبر آيات ذلك ان ما ينحله من التاثر بمفاتن تلك البلاد ، مما قد يمكن ان يكون اساسا حقيقيا لتدخله في شؤونها يناقضه ما نراه من عزوفه عن الاقامة بها طويلا ، وايابه بتلك السرعة المثيرة ، بعد ان حقق اهدافه السياسية لا « المتمعية » فيها ، وبمجرد ان اطمان على استقرار الاحوال والمجريات في ربوعها ؛ ثم ما نلاحظه من عدم وجود ما يؤكد انه كان يغترف من فيض متعها ، او ينهل من حياض لذائذها ، او يفيد منها في استمداد اصول عظمته الشخصية او مجده الفردي الخاص .

فعملية تجريد الاندلس من الطائفية لم يتح ليوسف ــ باعتبار المراغب الخاصة ــ فرصا جديدة ، ولم يفسح له آفاقا اخرى لم يكن له من قبل اليها من سبيل ، وانما كان التدخل وسيلة لتصحيح اوضاع كان تعديلها ضرورة حتمية لخير العدوتين ، ولمستقبل النظام السياسي ، الذي كان يحدد دورهما كمكمن امين للاشعاع العربي والاسلامي ، في ضفتي الجزء الغربي من المتوسط .

*

وبعد : فان اسر المعتمد كان في الواقع حادثة مؤسية ومشجية ، ومثيرة لكثير من مشاعر الرثاء والاشفاق لانها مفعمة بالعناصر الدراماتيكية القوية التاثير ، وحافلة بالصور المثيرة والمشاهد العنيفة ، المستفزة للشعور ، حين يتشخص للذهن كيف يتنكر الدهر ، وتتقلب الجدود ، وتتلون الايام ، وتتغير النهايات والمصاير ، ولكن ليس هناك مفهوم لان يتخذ ذلك نكاة للولغ في المقدرات المعنوية لرجل ، لو لم يكن ثمة ما يسوغ تصرفه من خلق او دين ، فانه كان على الاقل يجد تبريرا لسلوكه من حيث النظر السياسي البعيد . على انه لم يكن الى حد ما متجافيا ايضا مع مفاهيم بعض الجوانب الدينية ، او متنائيا ومبادىء اخلاق معينة ، وان كان متناقضا بعض الشيء ، ولا نتلمس له الكمال ــ مع اخلاق معينة اخرى .

فاذا كان ثمة من لزوم للتقدير او ضرورة للتقييم، فليكن اذن على اعتبار ان الحادث لم يكن له ــ بالنظر لحتميته وضروريته من جهة ، ومظاهره العنيفة المثيرة من جهة اخرى ــ الا ان يثير في نفوسنا اسفا عاريا عن الغضب ، واسى مجردا عن السخط ، واشفاقا خاليا من الثلب وعطفا منزها عن النقمة .

وتلك ــ على ما ارجح ــ نتيجة التقدير المجرد ، ومظهر الشعور السليم .

1) (**هو اهل لان يغدرك**) ومثل هذه التعبيرات التشهيرية المثبتة في « اميرة الاندلس » .

جولات قصيرة في تاريخ المغرب

البطل الشعبي محمد العياشي

للاستاذ عبد القادر الصحراوي



هناك بعض الزعماء والابطال ، يكتب عليهم ان يوجدوا في ظروف غير مواتية ، وغير مساعدة لهم على الافادة او الاستفادة من الصفات البطولية التي يتحلون بها .

ونحن لا نؤمن ايمانا أعمى بان التاريخ من صنع الابطال فقط ، ولكنا لا نؤمن ايضا ايمانا أعمى بـان التاريخ في تطوره ، والانسانية في تقدمها ، يستطيعان ان يستغنيا استغناء كاملا عن الابطال والقادة والعباقـرة والمغامرين .

هنالك دائما شيء اسمه (رجل الساعة) وهنالك دائما ايضا شرط اساسي لنجاح (رجل الساعة) ذلك ان تحيط به الظروف المواتية ، وان يبرز ببطولته في الساعة التي تشتد فيها الحاجة اليه ، وتتهيأ المشاعر والاذهان للاستجابة له والالتفاف من حوله والايمـان بما يدعو اليه .

وكم من بطولة او عبقرية اهدرت ، لانها كتب عليها ان تتقدم عن عصرها او ان تتاخر عنه ، وكم من بطولة او عبقرية ، اخرى ، صادفت حظا قليلا من نجـاح ، وكانت خليقة ان تفعل الافاعيل وتاتي بالمعجزات لـو انها تاخرت قليلا ، او تقدمت قليلا ، عن الوقت الذي برزت فيه .

*

وبطلنا ، هذا الذي نريد ان نتحدث عنه اليـوم ، بطل شعبي ، لم تلده القصور ، ولم يزين مفرقه تاج ، ولم يكن في مركز من مراكز المسؤولية .

كان مجرد طالب ، لا اكثر ولا اقل ، وكان مريدا يبحث عن طريقه الى الله ، وكان من الممكن جـدا ، بالنسبة للبداية التي بدا بها حياته ، وبالنسبة للعصر الذي وجد فيه ، ان تنتهي حياتـه (درويشـا) او (مجذوبا) تطلب عنده البركات ، ويمسح بيده رؤوس المرضى ، ويسأل عن تأويل الاحلام والمنامات .

فقد كان العصر الذي انجب (محمد العياشي) عصر (دروشة) (وجذب) بكل ما في الكلمة من معنى ، كما كان عصر جهل وتخاذل وانحطاط واستكانة الى الظلم والاحتلال والفوضى واللامبالاة ، كان عصرا من هذه العصور التي ينام فيها التاريخ ، وتترك الامور فيها لنفسها ، لتسير وحدها كما تريد ، وقد لا تسير اصلا ولكنها لا تجد من يهتم بها او يفكر فيها او يسأل عنها . كان عصرا من هذه العصور التي يسودها التواكـل والاهمال والتجرد من المسؤولية ، من العصور التـي يعيش فيها الناس لبطونهم ، لا يفكرون فيما عداها ، ولا يفكرون في ماهية ما يملأون به هذه البطون ، فقـد يكون رشوة ، وقد يكون اجرا عن خيانة ، وقد يكون سرقة مفضوحة لا غبار عليها ، ولكن المهم ، فقط ، انه شيء يملأ البطن ، ويحفظ الحياة .

*

كان ذلك في اواخر عهد الدولة السعديـة ، في النصف الاول من القرن السابع عشر .

والدولة السعدية قد انتهت بالضبط يوم وفاة المنصور الذهبي ، ولو انها استطاعت ان تغالب سكرة ، الموت بعده نحوا من سبع وخمسين سنة ، تعاقب فيها على العرش من ابنائه واحفاده نحو من سبعة ملوك .

ونحن نقول : (نحو من سبعة ملوك) لان تعدادهم بالضبط عسير كل العسر ، فهم لم يكونوا ملوكا بالمعنى الصحيح ، وانما كانوا رؤساء اقطاعات ، وثـــوارا ، ومحاربين .

كان الواحد منهم يقضي حياته — وهو بعيد عن العرش — في ثورة، ويقضي حياته — وهو على العرش — في رد عادية الثوار عن عرشه .

اما الشعب فقد كان موزعا بينهم ، يعطي اليوم ولاءه لهذا ، لينتزعه منه غدا ، ويعطيه لاخيه او ابنه او ابن عمه ، او ينتقل به الى اسرة اخرى ، اما لانه يعلق املا ، واما لانه يجد عندها من الخبز اكثر مما يجد عند غيرها ، فقد كان الشعب نفسه في هذه الفترة يعيش نكسة روحية ، وكان اليأس قد استبد به فصرفه عن كل مثل اعلى ، وكان الفساد في الراس ينعكس علـــى القاعدة كلها ، كان الفساد في العرش ينعكس على الشعب كله ، فاذا هو مريض العقل والشعور والوجدان ، يعيش نهاره في طلب حاجاته المادية ، ويسمر ليله في ترديـــد كرامات الاولياء والدراويش والمجاذيب والمعتوهين .

*

ونحن لا نريد هنا ان نصدع دماغ القـــارىء الكريم ، بالدخول به في تفاصيل النزاع حول العرش في هذه الفترة الحالكة من تاريخ المغرب ، فنحن ارحم به من ذلك ، نحن ارحم به من أن نزج به في اعصار لاقرار له ولا اول ولا آخر ، ويكفي أن نقول : ان الطابع الذي يتسم به تاريخ المغرب في هذه الفترة ، هو الفوضى ، والاضطراب ، وتوزع المسؤوليات ، والاستهانة بهـــا ، وكثرة الطامعين في العرش والمرشحين له من السعديين وغير السعديين ، وان الشعب في هذه الفترة ، لم يكن مهيأ للقيام باي عمل ايجابي ، فقد كان من السهل على كل ثائر ان يجذبه اليه ، وان يرمي به وقودا رخيصا الى المعركة . وقد لجأ الشعب في هذه الفتـــرة ، وفي وسط هذا الظلام المخيم الحالك ، الى نوع من الروحية المريضة الجاهلة ، يتطلب البركات والكرامات ويتأول الاحلام ، ويتمسح بالاضرحة ، ويتلو الاوراد .

*

وفجأة ، ومن غير مقدمات ولا ارهاصات ، وفي وسط هذا الخضم الهائل من الفوضى والاضطراب ، ظهر في الميدان البطل الشعبي (محمد العياشـــي) ليحارب الاسبان والبرتغاليين ويدافعهم عن شواطىء المغرب التي اصبحت هدفا سهلا لمغامراتهم وقرصنتهم وجشعهم الذي لا حد له ، وليتعـــرض لاضطهاد السعديين الذين ضاقوا ذرعا بظهوره ، خصوصا عندما بدات القوى الشعبية تتكتل من حوله ، وليعاني من الخيانة والارتشاء الذين كانا متفشيين في رجال الحاشية ولتنتهي حياته بماساة على يد الشعب الذي كافح طول عمره لينقذه من الظلم والاقطاع والاستعمار .

*

كان على العرش عند ما ظهر محمد العياشي في الميدان لاول مرة سنة 1604 الملك السعدي زيدان بن احمد المنصور الذهبي ، وكان محمد العياشي من مدينة (سلا) كان طالبا بها ، ومريدا لشيخ من شيوخهـــا المشهورين بالعلم والكرامة ، لكنه ظهر في الميـــدان لاول مرة في ناحية (آزمور) .

وقصة انتقال محمد العياشي من مدينة (سلا) الى ناحية (آزمور) — كما يرويها التاريخ — قصـــة طريفة تمتزج فيها الخرافة بالتاريخ امتزاجا يبعث على الشك في تصديقها ، مهما يكن ، فقد ظهر العياشي في ناحية آزمور ، داعيا للجهاد ضـد البرتغاليـــن في (الجديدة) التي كانوا قد استولوا عليها من قبـــل وحصنوها واستقروا بها ، مغتنمين ضعف الدولـــة وعجزها عن مقاومتهم والنهوض اليهم ، وانشغالهـــا بالثورات والحروب الداخلية والنزاع حول العـــرش ، فقد روى التاريخ — فيما روى — أن (زيدان) الملك السعدي الذي ظهر (محمد العياشي) في عهده ، قضى ملكا او كالملك ، خمســا وعشرين سنة، لم تخل سنة منها من حرب له مع اخوانه واقاربه والخارجين عليه !!

ولم تكن كلها حروبا او ثورات سهلة يسيرة من النوع الذي يمكن القضاء عليه بسهولة ، فقد بلغ مـــن خطورة بعض هذه الحروب والثورات ، ان طوحت به بعيدا عن عاصمته ومقر ملكه (مراكش) الى مدينـــة (تلمسان) بالمغرب الشرقي ، يطلب العون من الاتراك العثمانيين الذين كانوا يحكمون الجزائر اذ ذاك ، على استرجاع عرشه الضائع .

*

كان البرتغاليون يحكمون (الجديدة) بقوة الحديد والنار ، وقد بلغ من هوان الشعب على نفسه وعلـــى المحتلين البرتغاليين ، انهم لم يعودوا يقيمون له وزنا ،

او يحسبون لعواطفه اي حساب ، وكيف يقيمون وزنا لعواطف الشعب ، وهو يظهر التودد اليهم ، والترحيب بهم ، ويتحفهم بالهدايا ، ويتلقاهم بالزغاريد . قد يكون ذلك خوفا ، او (تقية) او استسلاما للقوة ، ايمانا بها . المهم انه واقع اليم ، يصعب على النفس احتماله ، ويشعر الانسان بالخزي والحسرة من مجرد قراءته او الاطلاع عليه .

وهذه زوجة الحاكم البرتغالي بالجديدة ، تريد يوما ان تلهو فلا تقترح اقامة مسرح، ولا تطلب استدعاء مهرجين ، ولا تفكر فى الخروج الى نزهة ، وانما تطلب الى زوجها العزيز ، ان يقترح على حاكم (آزمور) المغربي ، تنظيم مناورات حربية بين الجيش البرتغالي بالجديدة ، والجيش المغربي بآزمور ، ويتم كل شيء وفقا لرغبة صاحبة السعادة زوجة الحاكم البرتغالي المدللة ، ويحدث اثناء المناورة ان يقتل جندي برتغالي جنديا مغربيا ، فيحتج حاكم آزمور المغربي على ذلك . فيجيبه حاكم الجديدة البرتغالي بمنتهى البرودة والبساطة :

— واي باس فى ذلك ، لقد مات شهيدا كما تقولون .

فى هذا الجو المفعم بالخزي والهوان، كتب على محمد العياشي ان يظهر بناحية آزمور ، ليدعو الى الكفاح المسلح ضد البرتغاليين . وليس هذا هو موطن العجب ، وانما موطنه ، ان محمد العياشي قد نجح فى محاولته ، وقد استطاع ان يحرك الضمائر ويلهب العزائم ، وان يحشد من القوى الشعبية ، ما استطاع به ان يدخل فى معارك متعددة ضد البرتغاليين .

وتشاء الصدفة ان يموت فى هذه الاثناء ، الحاكم المغربي لمدينة آزمور وناحيتها ، فلا يجد الملك السعدي زيدان بن احمد المنصور ، خيرا من محمد العياشي ليقلده اعباء الحكم بهذه الناحية الرابضة على ابواب الخطر ، اما لانه اولى من يقوم بهذه المهمة ، واما لانه اصبح هو الحاكم الفعلي لمدينة آزمور وناحيتها وصاحب الكلمة الاولى فيها ، فيكون من حسن السياسة اقراره رسميا على ذلك .

مهما يكن ، فقد اصبح محمد العياشي يحكم آزمور وناحيتها باسم الملك ، ولم تشغله الوظيفة الطارئة عن مواصلة العمل لاتمام المهمة التي بداها ، فاستمر فى حرب البرتغاليين ، وانتصر عليهم فى معارك عدة وامسك بخناقهم ، وكاد النصر ان يتم له نهائيا على

قواهم المحتلة الباغية ، لولا انهم لجاوا معه الى نوع من المقاومة لم يحسب له حسابه منذ البداية ، ولم يكن فى استطاعته ان يتقيه او يصمد له .

لجاوا الى نوع من المقاومة قوامه الرشوة ، وشراء الضمائر ، والكيد ، والخسة ، وكل ما هو معروف من اساليب الاستعمار والاحتلال الاجنبي عندما تخذله القوة ، وعندما يصطدم بالوطنية الصادقة والعزم الاكيد .

لم يستطع البرتغاليون ان يهزموا (محمد العياشي) فى ميدان المعركة بين آزمور والجديدة ، فقرروا ان يهزموه بعيدا عن ارض المعركة ، هناك فى مراكش ، وفى بلاط الملك نفسه .

قرروا ان يهزموه بيد الملك الذي ولاه آزمور ايثارا له على غيره ، او خضوعا للامر الواقع . واذا كانت الحرب تكلف الكثير جدا ، خسائر فى الانفس والاموال والعتاد ، فان هذه الحرب التي شنها البرتغاليون على محمد العياشي فى بلاط الملك ، لن تكلفهم اكثر من بعض (الهدايا) يتحفون بها رجال الحاشية ، ويتركون لذكائهم بعد ذلك ، ان يتولى البحث عن طريقة للخلاص من محمد العياشي .

وتخرس ضمائر رجال الحاشية ، لتتكلم (الرشاوي) التي تملأ جيوبهم وبطونهم ، وتفوح فى الجو رائحة الخيانة خبيثة كريهة تزكم الانوف ، ويقتنع الملك بسهولة ، ان محمد العياشي هذا يجب التخلص منه باية وسيلة ، فقد قوى ساعده واشتد عوده ، وقد اصبح ذا نفوذ كبير اكثر مما يمكن ان يسمح به للولاة وحكام الاطراف .

ان محمد العياشي هذا قد اصبح خطرا على العرش ، على الملك نفسه ، فلماذا لا يتخلص منه ، لماذا لا يبعث اليه بحملة تاديبية ؟ لماذا لا يطلب راسه ثمنا لما سببه من ازعاج للدولة الآمنة المطمئنة ، واحتياطا مما يخاف منه فى المستقبل من اخطار قد يستعصي التخلص من آثارها بعد ان تكون قد وقعت بالفعل ؟ ؟

*

وهكذا وقع الاختيار على القائد (محمد السنوسي) ليكون على راس هذه الحملة التاديبية ، وليأتي براس

محمد العياشي الى مراكش ، حيث يعلق على اسوارها عبرة للخارجين على الدولة والمؤتمرين بسلامتها .

ويبدو ان القائد (محمد السنوسي) كان رجلا عسكريا شريفا ، لم يقتنع بمشروعية الحملة التي اختير ليكون على راسها ، ولم يستطع في نفس الوقت ان يمتنع من تنفيذ الامر الذي القي اليه ، فقرر ان يحتال لنفسه وان يجد له مخرجا من هذه الورطة التي زجوا به بين احضانها .

ومن يدري ؟ فربما كانت نفسه تحدثه وهو في الطريق الى آزمور على راس الحملة ، ان محمد العياشي يقوم بواجب وطني ، كان هو بصفته عسكريا اولى بالقيام به ، وكان وجوبه آكد بالنسبة اليه هو نفسه ، فلماذا يحاربه وهو ليس ثائرا او خارجا على الدولة او مجاهرا بالعصيان ؟ وانما هو رجل وطني مخلص حر الضمير ، برز من صفوف الشعب ليرفع راية الكفاح ضد الاحتلال الاجنبي ، وكان اولى بالدولة ان تساعده على امره ، بدل ان تحاول التخلص منه ، كان اولى بها ان تنوه به وترفع من ذكره ، وتمده بما قد يحتاج اليه من مال او عتاد ، فاذا لم تفعل ، فلا اقل من ان تتركه يحاول انجاز المهمة التي لم يطلب من اجلها اجرا ولم يكلف الدولة مساعدة ، وانما اكتفى بالاعتماد على القوى الشعبية الكامنة ، التي لا تحتاج ، لكي تعمل ، الى اكثر من تحريك وجدانها ، واثارة عاطفتها الوطنية .

واخيرا اهتدى القائد (محمد السنوسي) الى حل للمشكلة ، بعث الى محمد العياشي على جناح السرعة ، وهو في الطريق اليه ، بعض من يثق بهم من خواصه المقربين اليه ، بعث اليه يطلب منه ان يهرب من آزمور قبل ان يصل هو اليها ، فقد جاء اليه باسم الملك ، لكي يقتله ، ولكي يحمل راسه هدية الى سيده المطاع .

كان من الممكن ان يرفض محمد العياشي فكرة الهروب ، وان يصمد للحملة التي بعثها اليه الملك ، كما صمد من قبل للبرتغاليين ، لكن حرب العدو غير حرب الصديق ، وقتال الدخيل الاجنبي مهما تكن قوته، ايسر من قتال المواطن ، مهما يكن ضعفه ؛ ومهما يبلغ الايمان بظلمه وانحرافه ، ورحم الشاعر العربي القديم.

وظلم ذوي القربى اشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

وهكذا خرج محمد العياشي (هاربا) من مدينة آزمور ، خرج متسللا في خاصته والمخلصين لدعوته ، لم تمش معه البنود ، ولم تصدح له الموسيقى ، ولم تشيعه دموع الاهالي ولا هتافاتهم .

جاء الى آزمور وفي قلبه آمال ، وخرج منها وفي قلبه حسرة ، جاء اليها ليحارب العدو والدخيل ، وخرج منها هاربا كما يهرب اللصوص والمجرمون والسفاكون والقتلة .

ودخل مدينة آزمور بعد ذلك بقليل ، القائد العسكري محمد السنوسي ، على راس حملته التأديبية واستشاط غضبا عندما اخبروه ان محمد العياشي قد هرب ، واستعمل كل وسيلة ممكنة للبحث عنه فلم يعثر له اثر ، بحث عنه في كل بيت ، واشتد في عقاب كل من قد تتوجه اليهم شبهة اخفائه او التستر عليه ، واستمر في ذلك زمنا حتى خامره الياس من العثور عليه ، واخيرا عاد الى مراكش ليخبر الملك ان محمد العياشي قد هرب ، وان الحملة لم تنجح النجاح المطلوب ، ولكنها مع ذلك لم تفشل كل الفشل ، فقد كفينا امر هذا (العياشي) وعادت المياه الى مجاريها من جديد .

*

خرج محمد العياشي من آزمور (هاربا) وحط رحله مرة اخرى بمدينة (سلا) بعد ان كان قد فارقها تسع سنين كاملة (من سنة 1604 — 1614) وعاودته الذكريات ذكريات هذه السنين التسع الاخيرة بما كان فيها من كفاح وجهاد وصبر وتضحية ، وذكريات ما قبلها من السنين ، يوم ان كان مجرد طالب بسيط، يطلب المعرفة عند شيخ من شيوخ (سلا) المشهورين بالعلم والمعرفة والكرامة ، ويوم ان كان شيخه الجليل يتنبا له بالمستقبل الزاهر والمجد الكبير .

ترى قد تحقق كل ما كان يتنبا له به شيخه ؟ ترى ان العودة الى (سلا) هي نهاية المطاف ام انها لا تعدو ان تكون نهاية شوط من اشواطه ؟ .

وجاءه الجواب سريعا ، ان العودة الى سلا لا يمكن ان تكون نهاية المطاف ، فالظلم والفوضى والاستبداد والاضطراب لا تزال كلها ضاربة اطنابها ، والاعداء من البرتغاليين واسبانيين لا زالوا يقتسمون عددا من

شواطئ المغرب، ويعيشون في الارض الفساد، ويستذلون المواطنين ابشع استذلال واسواه .

ان هي الا مرحلة من مراحل الكفاح ، ولابد من احدى الحسنيين ، من نصر مؤزر كامل ، او شهادة تفتح الطريق الى الله على مصراعيه ، وما دامت هذه الشهادة المرجوة لم تتأت بعد ، فلا مناص مطلقا من مواصلة الكفاح .

لقد عاد محمد العياشي الى (سلا) ليستأنف الكفاح من جديد ، وليقف وجها لوجه امام سلسلة طويلة من المتاعب ظلت حلقاتها تتقاذفه الى ان اسلمته اخيرا الى الموت .

ولكي نستطيع ان نفهم حقيقة المتاعب الجديدة التي جابهها محمد العياشي ، فنحن مضطرون أن نقف وقفة قصيرة ، قد تساعدنا على فهم الظرف التاريخي الدقيق الذي كانت تعيشه سلا والرباط في هذه الايام فقد كانت المدينتان المتجاورتان تعيشان في هذه الفترة التاريخية الدقيقة ، عملية (صهر) صعبة ومعقدة ، كانتا تعانيان من حالة (عدم انسجام) بين السكان ، وكان ذلك يرجع في اصوله الى الغزو المسيحي للاندلس المسلمة ، والى انتصاره فيها واضطهاده المسلمين بها ، والى اضطرار هؤلاء اخيرا الى الهجرة الى البلاد الاسلامية المختلفة ، والى المغرب من بينها على وجه الخصوص .

كان ذلك أواخر القرن الخامس عشر عندما تم للمسيحيين نهائيا الاستيلاء على الاندلس ، وذلك باستيلائهم سنة 1492 على غرناطة آخر معقل من معاقل المسلمين بها ، وكان ذلك بشروط كثيرة ، اهمها احترام حرية التدين لكل واحد من السكان . لكن المسيحيين نكثوا عهودهم جميعا ، ونكثوا على راسها تعهدهم بترك الحرية للمسلمين ان يحتفظوا بدينهم ، وان يمارسوا شعائره في حرية كاملة ، واشتد البلاء في ذلك على المسلمين بشكل قل ان سجل التاريخ له نظيرا في الوحشية والتعسف وشدة النكير ، واخبار محكمة التفتيش معروفة مستقصاة في كتب التاريخ ، لا نرى موجبا لذكرها ، او سرد امثلة من مخازيها وضراوتها وقسوتها المتناهية ، **وانما الشيء المهم الذي نريد ان ننص عليه هنا ، ان هذه المحنة قد استمرت اكثر من قرن كامل من سنة (1492) التي تم للمسيحيين فيها الاستيلاء على غرناطة الى سنة (1608) التي قرر المسيحيون فيها التخلص نهائيا ممن بقي بين ظهرانيهم من المسلمين ، وذلك باجلائهم عن ارض الاندلس وحملهم على الهجرة منها الى حيث يشاؤون .**

في هذه المدة التي تزيد عن قرن كامل بنحو ستة عشر سنة ، كان قد تنصر من المسلمين بالاندلس من تنصر ، وفر بدينه من استطاع سبيلا الى الفرار ، وصمد الباقون يتظاهرون بالطاعة ، ويختلفون الى الكنائس كما يختلف النصارى ، فاذا عادوا الى بيوتهم اغلقوها عليهم واقاموا صلاتهم ، وقرأوا القرآن ، وتوجهوا الى الله يطلبون منه ان يكشف عنهم البلاء .

وفي هذه المدة ايضا ، نشا بين المسلمين بالاندلس، جيل جديد معوج العقيدة ملتوي الضمير ، موزع بين الايمان بهذا الدين الذي رأى آباءه يقيمون شعائره في خفية، ويحرصون عليه رغم التنكيل والعذاب والامتحان العسير ، وبين هذا الدين المنتصر الغالب ، الذي تقام شعائره في الكنائس الكبيرة المليئة بالاثاث والزخرف والنقوش والتماثيل ، وعلى اصوات الموسيقى الهائلة المؤثرة ، وترانيم الصبية والعذاري من الراهبات والاخوات ، نشا هذا الجيل موزعا بين ذلك، ونشا موزعا أيضا بين الكراهية لهؤلاء يحتقرونه ويعذبونه ويعذبون قومه ، وبين الاعجاب بمجموع صفاتهم التي آتتهم القوة والغلبة ، نشا مترددا حائرا لا يستقر على شيء ، ولا يكاد يؤمن بشيء حتى يجذبه اليه غيره .

واخيرا ، وعند ما قرر المسيحيون في الاندلس ، ان يتخلصوا نهائيا من المسلمين ، كتب على هذا الجيل الذي نتحدث عنه ، ان يتعرض لمحنة اخرى ، كادت تهد فيه بقية الايمان بدينه وقوميته ، ذلك ان المسلمين عبروا البحر من الاندلس ليتفرقوا في بلاد الاسلام فرارا بدينهم ، او ببقايا دينهم ، لكنهم تعرضوا اثناء هجرتهم في بلاد المسلمين نفسها الى كثير من القلق والخوف ، تعرضوا لتنكيل اللصوص وبطشهم وقسوتهم ، تعرضوا للغش والتدليس والمساومة ، تعرضوا للبهيمية الجامحة التي لا تعرف الحدود ، تعرضوا لكل انواع البلايا التي يمكن ان يتعرض لها مهاجر يصحب معه ابناءه وبناته وكل ما يملك من متاع ، وفي ظروف عدم استقرار وامن بالبلاد التي يهاجر اليها ، فقد كان العالم الاسلامي كله في اوائل القرن السابع عشر ، مسرحا للظلم العثماني من جهة ، ومسرحا للفوضى والاضطراب من جهة اخرى .

واستقر هؤلاء المهاجرون أخيرا بمختلف البلاد الاسلامية ، بالمغرب العربي ، ومصر ، وسورية ، وغيرها ، ووصل بعضهم الى القسطنطينية ، وآن لهم

اخيرا أن يعرفوا الامن والراحة والهدوء والاطمئنان ، لكنهم كانوا بحاجة الى مدة طويلة جدا ، قبل أن يتم انصهارهم، وقبل ان يمتزجوا بمواطنيهم الجدد امتزاجا كاملا ، وقبل ان تشفى نفوسهم من كل ما كان قد الم بها من المحن المادية والمعنوية .

وكان من الطبيعي ان يكون حظ المغرب من هؤلاء المهاجرين الاندلسيين الحظ الاوفر ، لقرب المسافة ، وللصلات القوية التي ظلت تربط تاريخ الاندلس بتاريخ المغرب احقابا متتالية ، وهكذا استقر معظم المهاجرين الى المغرب من الاندلس ، بتلمسان وفاس وتطوان والرباط .

وفي الرباط بالذات ، كان للجالية الاندلسية المهاجرة تأثير كبير في مجرى الاحداث التاريخية التي نتناولها اليوم بالكلام .

*

كنا مضطرين ان نقف هذه الوقفة لنقول ذلك ان محمد العياشي كتب عليه ان يعود الى سلا على اثر هذه الهجرة الجماعية من الاندلس الى المغرب ، وكتب عليه ان يستأنف الدعوة الى الجهاد في سلا والرباط معا، في بيئة غير مستقرة ، ينعدم الانسجام بين اصحابها انعداما كليا ، وتتعدد فيها الاتجاهات، وتختلف المصالح، وتضطرب النفوس .

كانت سلا والرباط تعيشان في هذه الفترة — كما اسلفنا — عملية (صهر) صعبة ومعقدة ، وكان من اللازم على من يريد ان يقوم بعمل ايجابي فيهما ان يتريث قليلا حتى يهدأ المرجل ، ويصفو الجو ، ويتحدد الاتجاه .

لكن محمد العياشي لم يتريث ، واني له ان يفعل، والعدو على الابواب ، يستحل دماء المواطنين واموالهم، ويستذل كبرياءهم ، ويعيث فسادا في ارضهم ، وهذه (المهدية) و (العرائش) يحتلهما الاسبان ويحكمون السيف في رقاب اهليهما كما يحكمه البرتغال في رقاب اخوانهم (بالجديدة) وهكذا حاول العياشي مرة اخرى ان يلهب حماس السكان بسلا والرباط كما فعل من قبل في آزمور وناحيتها ، وحاول ان يكون من السكان جميعا في المدينتين المتجاورتين قوى شعبية يحارب بها الاسبان في المهدية والعرائش .

وكما ضيق العياشي الخناق على البرتغاليين بالجديدة من قبل ، فقد استطاع ان ينكل بالحامية الاسبانية بالمهدية ، ويذكر المؤرخون انه قتل من الاسبانيين في اول التحام بينهم في المهدية وبين جيش التحرير المغربي بقيادة البطل محمد العياشي نحو من اربعمائة جندي ، كما قتل من المواطنين مائتان وسبعون .

وطارت اخبار النصر الى مراكش لتقلق مرة اخرى راحة الملك السعدي زيدان وحاشيته الوفية المخلصة، ولتنبههم من جديد الى هذا الخطر الموهوم عليهم وعلى العرش ، لقد كانوا يظنون انهم تخلصوا من هذا العياشي ومن نشاطه الذي لا حد له ، فاذا هو يبعث في الواجهة الاخرى ، واذا ينتصر فيها كما انتصر في سالفتها من قبل ، فماذا يكون من امرهم وامر العرش لو تمادت المعارك بالعياشي من نصر الى نصر ، ولو استطاع ان يكتل حوله من القوى الشعبية ما لا قبل لهم به ولا قدرة لهم عليه .

واجتمع الراي سريعا على ان محمد العياشي يجب التخلص منه باي ثمن ، واذا لم يكتب النجاح في ذلك من قبل ، للقائد محمد السنوسي الذي كان على راس الحملة التاديبية التي ذهبت الى آزمور لتاتي براس محمد العياشي ، فربما نجح في ذلك الآن القائد (الزعروري) قائد الفرقة العسكرية الاندلسية المقيمة بالرباط ، وجاء الامر الى (الزعروري) بالرباط لينفذ الخطة المدبرة ، لكنه آثر قبل الاقدام عليها ان يستشير ضباط الفرقة العسكرية الاندلسية ، فكان الراي الاخير ، ان يتريثوا قليلا ، وان يحيطوا العياشي بجماعة منهم لتتجسس عليه وتختبر نواياه الحقيقية ، لتعرف دخيلة امره وما هو عازم عليه .

واحس العياشي بالجو من حوله مكفهرا مظلما ، وزكمت رائحة الخيانة الكريهة انفه مرة اخرى ، واحس انه مغدور ، وان الغدر لا ياتيه في هذه المرة في صورة حملة تاديبية ، وانما يأتيه من المحيطين به والاقربين اليه ، ياتيه من هؤلاء الذين يعتمد عليهم في نصرته ، والذين كانوا الى الامس القريب معه في الواجهة يحاربون معه الاسبانيين في المهدية جنبا الى جنب .

وكما قرروا هم ان يتريثوا قليلا ، فقد قرر هو ايضا ان يتريث ، وان يكتفي بمراقبة الاحداث والاحوال ، وان يصمت فلا يتكلم ، وبهذا فلا يتحرك ،

حتى يتيقن من مواطيء اقدامه ، وحتى يعرف اصدقاءه من اعدائه وخصومه ، وحتى يتبين الوجوه ، فيعرف من بينها من يلازمه ايمانا بدعوته ومبدئه ، ومن يلازمه لانه يتحين به الفرصة ، ليقدمه قربانا رخيصا على مذبح الخيانة والغدر والارتشاء .

وهكذا لازم البطل محمد العياشي بيته ، وارخى العنان قليلا للاحداث لتسير وحدها كما تشاء ، وقد سارت بالفعل، فاذا هؤلاء الاندلسيون الذين كانوا عيونا عليه لمصلحة الملك السعدي زيدان ، قد انقلبوا حربا على الملك نفسه ، وذلك في قصة تاريخية لا صلة لها بالموضوع الذي نعالجه ، وثاروا بقائده (الزعروري) عليهم ، فقتلوه ونهبوا بيته ، فبعث اليهم الملك من طرفه قائدا آخر ، فقتلوه كما قتلوا سلفه من قبله ، واعلنوها حربا سلبية على الملك ان صح هذا التعبير ، حرب عصيان وخروج عن الطاعة ، حرب فوضى واضراب وسلب ونهب وتعد على الحرمات والاموال .

اما محمد العياشي ، فقد كان لا يزال حتى هذه الساعة ساكتا يرقب الاحداث ، وينتظر هدوء العاصفة، ليستانف دعوته الى التحرير والجهاد .

كان محمد العياشي ، يحصر همه في حرب العدو الدخيل ، اما الثورات والفتن الداخلية ، فقد كان سلبيا بالنسبة اليها ، ربما لانه لم يكن يميز فيها وجه الصواب ، وربما لانه كان يرى كل المشتركين فيها ظلمة ، فكان يصعب عليه ان يحدد موقفه منهم جميعا ، كان يريد ان يلقى الله بريئا من الفتنة ، كان يريد ان يلقاه شهيدا مجاهدا نقي الصحيفة سليم القلب مرتاح الضمير .

كان محمد العياشي ينتظر ان تهدا العاصفة ، ولكن السكان فكروا ان هذه العاصفة لا يمكن ان تهدا الا على يديه، فقرروا ان يخرجوه من صمته، وان يحملوه على عمل شيء ما ، شيء يقضي على آثار الفتنة ، ويعيد الى الناس الهدوء والاطمئنان ، ويشغلهم بحرب عدوهم عن التفكير فيما بينهم من خلافات او حزازات ، ولم يمتنع محمد العياشي عن الاستجابة لهذه الرغبة ، لكنه اشترط لذلك ان ياخذ على الناس العهود والمواثيق حتى لا يعودوا فينفضوا من حوله ، او يصبحوا حربا عليه ، وحتى لا ينتقل الى اذنيه مرة اخرى ما يتهامس به بعض الناس من أن حرب العدو لا تحل الا في ركاب السلطة الشرعية الرسمية ، او بموافقتها على الاقل .

كان محمد العياشي قد اصبح في نظر الناس جميعا المنقذ الوحيد الذي تنعقد عليه الآمال وتتوجه اليه الانظار ، اصبح رمز التحرير والجهاد ، أصبح زعيما روحيا وحربيا وسياسيا ، فلم يكن من الصعب أن يحصل على ما يطلبه من العهود والمواثيق ، وتدفقت عليه فتاوي العلماء من اطراف المغرب بمشروعية الحرب المقدسة التي يتزعمها ضد المستعمرين والمحتلين واسلس اليه رؤساء العشائر قيادهم ، وامضوا له بالمبايعة والطاعة والوقوف رهن اشارته ، واتباعه فيما يسعى اليه .

وعزم العياشي امره على ان يبدا من جديد ، وفكر في هذه المرة ان يجعل نقطة البداية جمع كلمة المواطنين بكل وسيلة ممكنة ، حتى بالحرب ان اقتضى الحال ، فان القضاء على العدو الدخيل يستلزم اولا القضاء على روح الفتنة والتمرد في الداخل ، كما يستلزم القضاء على الخيانة التي يعتمد عليها العدو في الدرجة الاولى للانتصار على المواطنين والفت في عضدهم وتفريق كلمتهم وحملهم على الاذعان والاستسلام ، ان الانتصار في الحرب التحريرية يستلزم الا يكون بين المواطنين خارج ، او منحرف ، او خائن متخاذل ، او مرتش طماع ، يجعل مصلحته الشخصية هي العليا وفوق كل اعتبار ، وهكذا بدا العياشي هذه الجولة بالقضاء على رؤوس الفتنة في القبائل القريبة والمجاورة ، وامتد نفوذه الفعلي الى فاس التي كانت تشكو هي الاخرى من فتنة محلية ، فقصدها بنفسه وطهرها ، واعاد اليها الامن والنظام ، واستطاع بكل ذلك ان يكون له مجال نفوذ واسع ، وان يجمع حوله كلمة المواطنين في جزء مهم من الوطن الذي يدافع عنه ، واحس من نفسه الثقة بالنصر اذا هو واجه العدو في جولة اخرى .

وكانت هذه الجولة في المهدية ضد الاسبانيين مرة ثانية ، وتعددت الاشتباكات بين الفريقين ، وكثر القتلى والجرحى ، وكان النصر منذ البداية حتى النهاية حليف المجاهدين المغاربة بقيادة زعيمهم محمد العياشي، واسر في هذه الاشتباكات المتعددة كثير من الجنود الاسبانيين ، فيهم بعض الضباط ، واطلق سراح كثير من المغاربة الذين كانوا من قبل أسرى عند الاسبانيين يعملون في تسيير السفن الاسبانية ، ويكلفون باداء اشق الاعمال ، وانتهى محمد العياشي من هذه الجولة ضد العدو الدخيل ليعود لتصفية حسابه مع الخيانة من جديد .

وكانت الخيانة فى هذه المرة ايضا من الجالية الاندلسية التي كابد منها ما كابد من قبل .

كان الاندلسيون ابان هذه الحرب تجارا محتكرين يختزنون الاقوات ويختصون بها انفسهم ويغلون ثمنها على من يطلبها من المواطنين والمجاهدين .

وكانوا فى صفوف المجاهدين مثبطين متقاعسين يبخلون بالخدمة ويماطلون فيها ، وقد اعتمد عليهم العياشي مرة فى صنع سلالم طويلة ، كان يريد ان يستعملها المجاهدون فى اعتلاء اسوار المهدية ، فوعدوه بذلك ، وظلوا يماطلون فى تنفيذه الى ان وصلت الامدادات الحربية الى الاسبانيين فلم تعد السلالم تغني شيئا عن المجاهدين .

بل انهم فعلوا اكثر من ذلك ، فقد كانوا خلال المعركة عيونا للاسبانيين ينقلون اليهم اخبار المجاهدين ونواياهم وخططهم ، وكانوا عونا للاسبانيين يمدونهم بالطعام وغيره .

وقد حاول بعض المؤرخين المغاربة ان يعلل هذه الظاهرة الغريبة ، فان الذي كان منتظرا من المهاجرين الاندلسيين الذين جاءوا الى المغرب فرارا من عسف الاسبانيين واضطهادهم ، ان يغتنموا الفرصة التي واتتهم للانتقام من اعدائهم ، والشدة فى حربهم ، لا ان يكونوا عونا لهم وعيونا لصالحهم .

واهتدى هذا المؤرخ الى تعليل قد لا يبعد كثيرا عن معنى الكلام الذي قلناه سابقا ونحن نتحدث عن المحنة الروحية التي عاشتها الاجيال الناشئة بالاندلس بعد الاحتلال المسيحي وقبل الهجرة الجماعية الاخيرة ، تلك المحنة التي استمرت كما ذكرنا مائة وستة عشر سنة ، عاشها هذا الجيل الناشيء او الاجيال الناشئة بالاندلس فى خوف واضطراب وقلق كبير ، وفى حيرة قاتلة زعزعت ايمانهم ، ونالت من اعتزازهم بدينهم وقوميتهم .

يقول المؤرخ المغربي (احمد الناصري) فى كتاب (الاستقصا) عند التحدث عن دور الاندلسيين فى المعارك التي دارت فى المهدية بين العياشي وبين الاسبانيين ، يقول : (وكانت تلك الرابطة بين اهل الاندلس والنصارى متوارثة من لدن كانوا بارضهم ، فكانوا آنس بهم من اهل المغرب)

وعلى كل فانها ظاهرة معقدة ، متعددة الجوانب، تحتاج الى كثير من الشرح والفسير والتحليل والايضاح .

المهم الآن ، ان محمد العياشي قد قرر بعد الفراغ من امر المهدية ان يصفي حسابه مع الجالية الاندلسية، وان يقلم اظفارها ويعيدها الى رشدها ، وقد بدا من ذلك باستفتاء العلماء ورجال الدين اولا ، فافتوه بجواز قتالهم ، وتردد بعضهم فى ذلك ، وهو الفقيه المشهور عبد الواحد بن عاشر ، صاحب المرشد المعين ، الى ان تأكدت لديه خيانتهم وممالأتهم للعدو وخدمتهم له ، فافتى هو الآخر بذلك ، واجتمعت الكلمة اخيرا على ان افراد هذه الجالية خارجون على الامة محاربون لها مساعدون لاعدائها عليها ، فاعمل محمد العياشي السيف فى رقابهم ، فقتل منهم كل من ثبتت الحجة عليه ، وفر كثير منهم داخل المغرب وخارجه ، واعلن الباقون توبتهم واستعدادهم للتكفير عن خطاياهم ، واعطوه على ذلك العهود والمواثيق .

وبذلك اطمان العياشي على صفوفه ، وبدا يعد العدة لجولة اخرى مع الاسبانيين ، وكانت الجولة هذه المرة فى العرائش ، ونحن لا نرى موجبا هنا للدخول فى تفاصيل حربية اخرى ، المهم ان محمد العياشي قد انتصر فى العرائش اخيرا فى معركة فاصلة بعد مناوشات متعددة ، ويروي التاريخ انه قد قتل فى هذه المعركة الفاصلة من الاسبانيين نحو الالف ، وفر الباقون منهم برؤوسهم وجلودهم لا يلوون على شيء .

عاد العياشي بعد ذلك الى سلا ، حيث تفرغ مدة لاستقبال الوفود القادمة اليه من أطراف المغرب ، تهنئه بالنصر والتوفيق ، وتعلن له طاعتها وولائها ، ومناصرتها ، وترجوه ان يمضي فيما هو بصدده حتى يحقق النصر الكامل ، وحتى يحرر الشواطىء المغربية نهائيا من الاسبانيين والبرتغاليين ، وكان فى هذه الوفود علماء كثيرون ، خصوصا من مدينة فاس .

انتهى العياشي من الاسبانيين بالمهدية والعرائش، فعاد من جديد يفكر فى البرتغاليين بالجديدة .

البرتغاليون !! لقد كان خليقا ان يكون قد انتهى من امرهم لولا تدخل الملك زيدان السعدي ، ولولا حملته التاديبية التي كان قد بعثها من مراكش برئاسة القائد « محمد السنوسي » تلك الحملة التي راى محمد العياشي ان يتجنب الاشتباك معها ، وان يفر « هاربا » من وجهها تحت جنح الليل .

لقد مر على ذلك حتى الآن خمس وعشرون سنة، مات فيها زيدان ، وتعاقب على العرش بعده ثلاثة من ابنائه ، هم عبد الملك ، والوليد ، ومحمد الشيخ .

واذا كان العياشي لم يتعرض لشيء من كيدهم بسلا او فاس او المهدية او العرائش او غيرها ، فانما كان ذلك لبعد هذه النواحي عن العاصمة « مراكش » ولضآلة ما كان الملوك السعديون يتمتعون به من نفوذ بهذه النواحي في هذه الفترة ، لقد كان نفوذهم الفعلي لا يتعدى نهر ام الربيع ، وبذلك استطاع العياشي ان يكسب في الشمال حرية التصرف والعمل ، اما الجديدة فانها قريبة من العاصمة ، قريبة من متناول ايدي الملوك السعديين ابناء زيدان ، لذلك سيكون على العياشي فيها ان يحارب البرتغاليين من جهة ، وان ياخذ حذره حتى لا يصطدم بالسعديين من جهة اخرى .

ومع كل ذلك ، فقد اقدم العياشي على حرب البرتغاليين بالجديدة ، او على استئناف الحرب معهم اذا اردنا الدقة في التعبير ، وكان النصر حليفه هنا ايضا كما كان حليفه من قبل في كل حركاته ، اذ اشتبك مع البرتغاليين ايضا في معركة فاصلة لم ينج فيها من البرتغاليين الا القليل ، اما الملك السعدي محمد الشيخ، او صاحب مراكش كما يدعوه بعض المؤرخين المغاربة ، فقد فاجأته الحركة ، وفاجأه النصر السريع ، لكنه لم يملك لكل ذلك الا ان (يستنكره) ويتأسف له ، وان يتأسف معه افراد حاشيته والمحيطين به والمقربين اليه، وقبل ان يظهر لهذا الاستنكار اي اثر عملي ، كان العياشي قد عاد الى سلا ، بجيوشه ، ليستأنف السير منها الى فاس ، فقد كانت فاس في هذه المدة في اشد الحاجة اليه لتسوية خلاف داخلي بها بين السكان المواطنين .

وهكذا كان العياشي دائما حركة دائبة لا تنقطع ، يعمل في كل ميدان ، كان يحارب العدو المحتل ، وكان يحارب الخيانة ، وكان يعمل لاجتناب الاصطدام بالسعديين ، وكان يجمع صفوف المواطنين ويعالج ما يقع بينهم من خلافات او مشاكل ، وكانت الطريق لا تزال امامه طويلة ، ومشاريعه كثيرة ، وكان يريد ان يفعل الكثير جدا اكثر مما فعل ، لكن العصر الذي كتب عليه أن يوجد فيه لم يقدم له المساعدة الكاملة ، والمواطنين الذين كان يخدمهم لم يكن لديهم استعداد صحيح للاستجابة ، او للصمود والاستمرار .

*

ومع ذلك فقد كان كل شيء متوقعا الا شيئا واحدا فقط ، لم يكن من السهل توقعه ، ذلك ان يقتل البطل الشعبي محمد العياشي بايدي مواطنيه ، لكن هذا هو الذي وقع بالفعل ، ولم يكن له مع ذلك أي سبب مباشر معقول .

ولو كانت القصة التي نسوقها اليوم خيالية لعد من فشل كاتبها ان يضع لها مثل هذه النهاية الباردة ، لكن التاريخ لا يتطلب عنده ان يرتب الاحداث ترتيبا فنيا ، او ان يختار لها النهايات المناسبة ، ان جريان الاحداث التاريخية لا يعترف بالقواعد الفنية ، بل انه احيانا ينكر حتى المنطق نفسه ، ان المطلوب من التاريخ، فقط ، ان يروي ، وان يحلل الاحداث ، ويعللها ما استطاع سبيلا الى التعليل ، وان كانت الاحداث التاريخية تستعصي على التعليل في كثير من الاحيان .

*

وقصة مقتل العياشي ، قصة تافهة باردة ، لا تتناسب مطلقا مع بطولته وكفاحه واقدامه ، ولا تكاد تتصل بالاحداث التاريخية الكبرى في حياته ، وان كانت تتصل اتصالا وثيقا بما كان يسود العصر من فساد ، وما كان في صفوف المواطنين من خلاف واضطراب وعدم انسجام .

ونحن لا نزال نذكر قصة الجالية الاندلسية بالرباط ، والموقف الاخير الذي اتخذه العياشي منهم بعد حرب المهدية ، وبعد استفتاء العلماء والفقهاء واقناعهم بجواز قتالهم ، وما كان من قتل من ثبتت عليه الحجة منهم ، وفرار كثير منهم داخل المغرب وخارجه ، وقد التجا بعض هؤلاء الفارين الى الزاوية الدلائية بتادلا.

كانت الزاوية الدلائية في هذه المدة في عنفوانها وشرخ شبابها ، كانت مركزا من مراكز العلم والنفوذ الروحي الكبير ، وكان الدلائيون مرشحين للعرش من بين المرشحين له في هذه الفترة الحالكة من تاريخ المغرب.

وقد حاول الدلائيون ان يشفعوا للفارين من الجالية الاندلسية عند محمد العياشي ، لكنه لم يقبل فيهم شفاعة ، والدلائيون لم يتعودوا ان ترد شفاعتهم او ان يبخس قدرهم ، يضاف الى ذلك ، ان الدلائيين كانوا قد بدأوا هم انفسهم يتغيرون على محمد العياشي ويتجاهرون بعدم الاطمئنان اليه ، وقد وجدوها فرصة سانحة لتأليب المواطنين عليه والدعوة الى حربه ، وعند ما كان العياشي راجعا الى سلا من طنجة في احدى حركاته ، وجد الدلائيين مترصدين له بالطريق في جموع من اتباعهم والمشايعين لهم من نواحي تادلة وغيرها مما استطاعوا ان يحشدوه اثناء الزحف .

وحاول العياشي على عادته في مثل هذه الظروف ان يتجنب الاصطدام ، حاول ان يتنكب طريقهم بالفعل ، وان يفر من وجههم فلم يفلح في ذلك ، واضطر اخيرا الى الدخول في الفتنة التي ظل يتجنبها طيلة حياته ، ولم يكن رجل فتنة ، فلم يستطع ان يصمد فيها ، وانهزم لاول مرة في حياته .

انهزم البطل ... واضطر الى الفرار ، ولجأ الى قبيلة (الخلط) في الشمال الغربي من المغرب ، لحمايته . وفي ظروف غامضة غدرت القبيلة بالبطل اللاجىء اليها ، فقتلته ، وقطعت راسه ، ووضعت بذلك حدا لآلامه ، كما وضعت بذلك حدا لمرحلة من مراحل الكفاح الوطني الشريف .

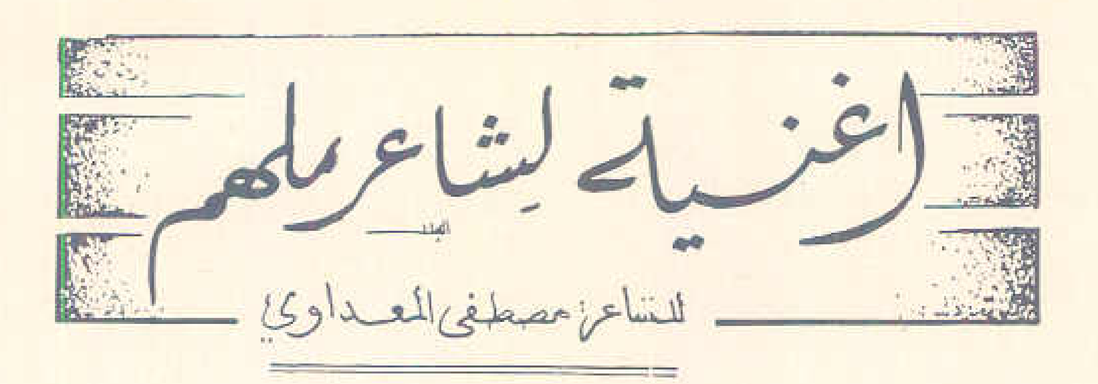
*

وهكذا انتهت حياة محمد العياشي بمأساة ، لا لانه قتل ، ولكن لانه قتل بايدي مواطنيه الذين وقف حياته على خدمتهم والذب عنهم والكفاح من اجلهم ، وقف حياته على تحريرهم ، وقف حياته على جمع شملهم وتطهير صفوفهم وتوحيد كلمتهم وحضهم على قتال عدوهم .

ولئن كان العياشي لم ينجح في حركة التحرير كل النجاح ، فانه قد نجح في انجاز حلقات مهمة منها ، ومهما يكن ، فقد بذل من اجلها جهده ، ووقف عليها حياته وراحته وفكره ، فاستحق بذلك ان يخلده التاريخ ، وان يحتفظ له باجمل الذكريات وانبلها ، وكفى بذلك شرفا في الدنيا ، والله عنده اجر عظيم .



تعد « يفران » اعظم مركز للاصطياف بالاطلس المتوسط ، وتمثل الصورة منظرا لاحدى ضواحي القرية الجميلة ، حيث يقضي المصطافون الوقت في الرياضة وصيد الاسماك .



﴿ الى اخي الشاعر « احمد المجاطي » تحية مني ومن اخواتي الصغيرات ﴾



يا شاعري ... يا مبعث الوحي الجديد الناضر
يا منشدا لحن الخلود على بساط ساحر
ومرددا نغم الحياة على تمايل ضامر
ذا نورك الوهاج يملأ بالضياء محاجري
فتسيل بالعبرات كل جوارحي ونواظري
ذا عطرك الفواح يسبح في بساط ساحر
ويضج ، يعبق بالوداعة والجمال الباهر
آمنت فيك بصيحة ملكت جميع مشاعري
فسبحت خلفك كالفراشة في الضياء الوافر
مشتاقة للحن يرقص في الضباب الهامر
مشتاقة للنور يسطع في لحاظ الشاعر
ذا صوتك المحبوب يملأ مهجتي وخواطري
ويرن كالامل المشعشع في محيط مشاعري
ذا وجهك الوضاء يبهر بالاشعة ناظري
ذا حلمك التياه يرفل في وشاح زاهر
نشوان يحمله الاثير على بساط طائر
للمنبع الفياض ينهل من شذاه العاطر
يا شاعري

ضحك الربيع وباركت خلجات نهد عامر
وتمايلت زمر الصبايا بالف خصر ضامر
فرنا خيالك يستعيد مع الاصيل الساحر
ذكرى ترددها الحسان والف طير زائر
ذكرى يغنيها الرعاة لكل طيف عابر
ذكرى يواكبها الحنين الى الحبيب السائر



قرات ضمن محتويات العدد الماضي من هذه المجلة ، مقالا نقديا للسيد محمد الحلوي حول قصيدة موكب الربيع للسيد عبد الكريم التواتي ، وقد اعجبني المقال كمحاولة « لتدشين » ميدان النقد الادبي الذي ظلت هذه المجلة تشكو فراغها منه منذ صدورها ، اي منذ سنة كاملة .

كما قرات في نفس العدد ، لكاتب المقال ايضا ، قصيدة طويلة بعنوان « صرخة الجزائر » وفي رايي ان القصيدة في مجموعها تعتبر من الشعر العاطفي الجزل ، الذي يستهويك فيه ما اودع من عواطف جياشة ، تتمثل في صور بديعة ، ناطقة بجمال الفن ، ولطافة التعبير ، وقوة التاثير ، فهي ترسم في دقة الجو الرهيب الذي يعيشه الشعب الجزائري الشقيق، والآلام التي يتجرع مرارتها صباح مساء ، والمظالم التي لا ينفك الاستعمار يقذف بشواظها في وجهه .

وقد يكون من الطبيعي ان قصيدة تتنيف على الستين بيتا كقصيدة السيد الحلوي لابد ان تختلف مقاطعها قوة وضعفا ، وان يكون للتكلف وانعدام الطابع الشعري اثر ظاهر في بعض ابياتها ، فخذ مثلا قوله يخاطب ابن الجزائر :

زعموا ارضك الجزائر ملكا
لفرنسا تسلمته اغتناما

فما زاد الشاعر على ان ردد هنا صدى ما نسمعه كل يوم على امواج الاثير ضمن تصريحات وتعاليق عادية . واستمع الى هذين البيتين :

لم يرعك العدو يفتك بالشـ
ـعب ويسبي النساء والايتاما
يصعد الآه من فظائعه السـ
ـود ، ويشكو من عسفه الالاما

فاينا يستسيغ هذا الخلط في الضمائر ؟ ففي يفتك ويسبي ـ في البيت الاول ـ ضمير يعود الى العدو ، ولكنه في يصعد ـ بأثرهما في البيت الثاني ـ اراده الشاعر ان يعود الى الشعب ، رغم أن محور الكلام ، او المسند اليه كما يعبر اهل البلاغة ـ هو العدو ـ . ويقول الشاعر :

كلما هاله اقتحام المنايا
في مجالاتها وهاب الصداما

وهنا اسال السيد الشاعر عن مجالات ، من اين له هذا الجمع ؟ اهو قياس على مقامات ، والقياس ـ فيما اعلم ـ هنا لا يجوز ، ام هو محض ابتكار شخصي ؟ فاللغة لا تعرف هذا الجمع ، ثانيا ماذا يعني بالصدام ؟ اذا كان يعني انه مصدر لصادم فليس بموجود ، اللهم الا اذا التجا فيه ـ هو ايضا ـ الى القياس على صارعه وقاتله واشباههما ، اذ الموجود في اللغة ان الصدام داء في رؤوس الدواب، ومحال ان يكون هذا المعنى مرادا للشاعر .

واقرا معي هذين البيتين :

كلما مر عام ترجوا
لانتصاراتهم على الحق عاما
وانتصار الضلال والباطل الزاهـ
ـق شيء يقارب الاحلاما

فاية طلاوة شعرية تجدها فيهما ؟ واي معنى جميل احتوياه ؟ وما السر في عطف الباطل على الضلال ي ثم اليس في الاخبار (بشيء) في البيت الثاني منتهى الابتدال ؟ ما ابعد البيتين عن الاسلوب الشعري الانيق الذي تلمسه في بعض مقاطع القصيدة.

وهل يسعفني السيد الحلوي فيطلعني على ما يريده بقوله — مخاطبا المستعمرين :

فارقبوا منه لعنة ملؤها الخز
ي تعضون بعدها الاقداما

الذي اعرف ان الفريزة البشرية تجعل الانسان يعض بنانه — لا قدمه — ندما ، فمتى اصبحت الاقدام تعض ولو من فرط الندم ؟ اهو شيء جديد في الفريزة الانسانية ؟ ام هي صورة من وحي عبقرية الشاعر ؟؟ اما انا فقد قصر خيالي عن تصور ملعونين يعضون الاقدام . . . وقد توقفت مليا عند قول الشاعر :

ان لله اعينا تتقراكم وبطـ
ـشا يزجي به الاياما

فهل لا يرى القارىء معي ان كلمة يزجي في البيت اكرهت على مكانها اكراها والا فاي معنى مستقيم يكمن في قول الشاعر : ان الله يزجي بالبطش الايام ؟ .
اما قوله :

ارمها يا فتى الجزائر نارا
تسكن الداعر الاثيم الرجاما

فاظن ان الصناعة البلاغية تستنكر فيه فقدان التوازن بين الداعر — وهو مفرد — والرجام وهو جمع ، وانا اربا بالسيد الحلوي ان يلجأ في رد هذه الملاحظة الى بعض الافتراضات المتكلفة ، التي منها — مثلا — ان (الـ) في الداعر للجنس فهو على نية الجمع ، فمثل هذا اذا استساغه الذوق الادبي قبل اليوم ، فلا ينبغي باي حال ان نعتمده في تحليل شعر يتسم بالطابع العصري ، كما لا استحسن — لنفس السبب — الحذف والتقدير في قوله :

واسق ارضا قد كان قبلك اجـ
ـداد سقوها دماءهم ان تضاما

وعلى اي فهذه ملاحظات اشهد انها لا تفسد جمال القصيدة ، ولا تذهب بروتقها ورشاقتها .

***

بقي هناك شيء ، طالما كنت اود ان اهمس به في اذن السيد الحلوي ، ذلك انني لا اعرف كيف اوفق بين صفتين متناقضتين فيه ، فهو شاعر مطبوع ، ما في ذلك عندي شك ، الا انه لا تكاد تسلم قصيدة واحدة له من خلل في الوزن تمنى به في بيت او ابيات ، بل لم تسلم منه حتى بعض قصائده التي نالت فيما اذكر جائزة العرش ، وعلى سبيل المثال تحضرني القصيدة التي نشرت له في العدد التاسع من هذه المجلة تحت عنوان : **(يوم ابصرتها)** ولا اريد ان اعود اليها بعد ان مضى على نشرها اكثر من شهرين . **« وصرخة الجزائر »** نفسها لم تسلم من تلك العاهة المشؤومة ، بل لعل حظها منها كان اوفر ، كما لم تسلم من تكرار بعض القوافي ، الشيء الذي يمجه الذوق الشعري السليم ، وان كان مباحا عند العروضيين وفق شروط
والى القارىء الابيات «المرضوضة» مع استسماح الشاعر في اعادة نشرها بنصها :

ويشبونها جحيما على الـرا
عي ليلقي من قبضته الزماما

*

كلما مر عام ترجوا
لانتصاراتهم على الحق عاما

*

وارى القوم كيف تفترس الفيـ
ـد ويخشى المستأسدون الرئاما
ارسلي النظرة الحنون شواظا
يتنزى ويزدري الاعجاما

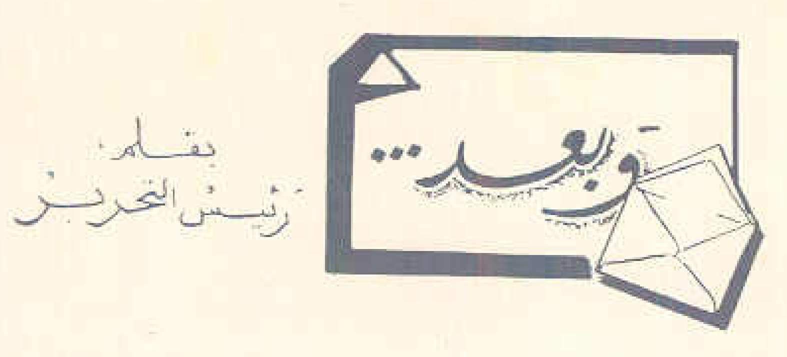
*

لهفي للايدي النواعم كانت
تنسج البرد او توشي اللثاما
لهفي للايدي النواعم تدميـ
ـها قيود المستعمرين انتقاما

*

واظنني في غنى عن تنبيه الشاعر الى مواطن الكسر في الابيات ، ولعله — وهو فيما قيل لي — مدرس العروض بالقرويين ! يعرضها على محك (الخفيف) حتى اذا تبين له ما اصيبت به من رضوض ، جبر كسرها ، واقامها على نسق بقية الابيات الاخرى .

ملاحظ



وبعد ، فقد انهت مجلة « دعوة الحق » بهذا العدد الممتاز سنتها الاولى ، وكان من حقها ان تنهيها بعددها العاشر ، جريا على العادة المألوفة من المجلات الثقافية الشهرية ، ولكنا آثرنا مع ذلك ان نستمر بها الى العدد الثاني عشر ، لتنهي سنتها الاولى مع انتهاء الموسم الثقافي . ومع حلول فصل الصيف ، الذي تعسر فيه الكتابة الجادة والقراءة الجادة معا ، والذي لا يبقى فيه مجال الا لما اصطلح على تسميته بلغو الصيف .

كان من حق المجلة ان تنهي سنتها الاولى بالعدد العاشر ، لكن كان عليها ـ لكي تستطيع ان تتمتع بهذا الحق ـ ان تكون قد وفقت في اختيار الوقت المناسب لابتداء سنتها ، اما عذرها في ذلك ، فهو انها لم تكن تملك الوقت الكافي للاختيار ، لقد كان عليها ان تبرز الى الوجود باية وسيلة ممكنة او غير ممكنة ، لتسد الفراغ الفكري المخيف الذي كنا نعيشه ونتبرم منه ، ولتبدد سحب الملل والكسل والياس ، ولتستجيب الى الرغبة الملحة التي ظلت تدعوها الى الظهور ، وهكذا ، سرعان ما تطورت « المجلة » من فكرة ، الى مشروع ، الى حقيقة واقعة ، وفي ظروف كهذه كان من الصعب علينا ان نطيل الوقوف لاختيار الوقت المناسب لابتداء العمل ، لقد كان علينا ان نفعل شيئا ما لانقاذ الموقف ، وان نعجل به ، وغاية ما نرجوه الآن ان تكون قد وفقنا ولو بعض التوفيق .

**

اننا لا نستطيع ان ندعي اننا قد نجحنا ، ولكننا نستطيع ان نؤكد اننا قد بذلنا جهده كله ، وقد اخلصنا للغاية التي رسمناها منذ البداية ، وقد صمدنا لكل المعوقات التي صادفتنا في اول الطريق ، والتي كان على راسها ان القادرين على الكتابة لا يريدون ان يكتبوا ، والقادرين على القراءة لا يريدون ان يقراوا ، وان البيئة كلها لا تظهر الحاجة الى العمل الفكري او الغذاء الفكري، ولا تطلبه او تسعى اليه .

وطبيعي ، ان المجلة ـ اية مجلة ـ لا يمكن ان يتصور لها وجود اطلاقا اذا لم يكن هناك كاتب وقارىء.

بل ان المجلة ـ اية مجلة ايضا ـ لا تعدو ان تكون اهدافا يتعاون الكتاب والقراء معا على خدمتها والعمل من اجلها .

**

لقد صمدنا ، ولكننا اكتشفنا اثناء العمل ، اننا لسنا وحدنا في الطريق ، وان الازمة الثقافية التي نشكوها من الممكن الا تكون مستفحلة الى الحد الذي نتصوره ، وان رصيدنا من الطاقات الفكرية ، لا يختلف عن رصيدنا في الميادين الاخرى ، الا ان الاعمال الفكرية تطلب التفرغ لها والتوفر عليها ، ونحن امة قد عشنا زمنا ، ولا نزال نعيش حتى اليوم ، ظروفا خاصة ، تقتضينا ان نجند كل قوانا للتخلص من الاستعمار ومن آثار الاستعمار ، وقد وضعنا جميعا هذه الغاية نصب اعيننا ، وانصرفنا الى تحقيقها عن كل ما عداها ، ونسينا في غمرة العمل من اجلها كل شيء ، وكان طبيعيا في جو كهذا الا نجد الوقت الكافي للاعمال الفكرية الجادة التي تطلب كثيرا من الاناة ، وكثيرا من الوقت ، وكثيرا من الصبر والتوفر والاحتمال ، وتطلب الى جانب كل ذلك حالات عقلية ونفسية خاصة ، لا يمكن ان تتوفر الا مع الهدوء والامن والاستقرار ، والا مع الحرية الكاملة ، التي لا يحدها الا القانون والحق ، والتي لا يستطيع الفكر مطلقا ان يعيش بدونها ، الا اذا كان من الممكن بالنسبة للانسان ان يعيش بدون شمس ولا هواء ولا ماء .

وهكذا لم تكد المجلة تقطع نصف المرحلة من سنتها الاولى حتى اكتشفت انها ليست وحدها في الميدان ، وانها لن تخاف الموت من انقطاع مادة الحياة عنها ، وان البيئة التي تعمل فيها ـ بعكس ما كان يبدو عند البداية ـ تتوفر على طاقات فكرية هائلة ، كما تتوفر على كثير من المواد الخام ، وانه ليس عليها الا ان تزيد في صمودها ، وان تستمر في دعوتها ، وان تعمل بدون انقطاع على تحريك القرائح والاقلام ، وعلى تشجيع المحاولات الجادة الهادفة .

وهكذا ايضا ، لم تكد المجلة تنهي المرحلة كاملة من سنتها الاولى ، حتى بدات تطمئن الى النجاح .

نعم ، ان بلادنا كما اسلفنا تتوفر على طاقات فكرية هائلة ، ولكننا لم نبرز بعد بكل قوانا الفكرية الى ميدان الكتابة والتحرير والتاليف ، ولذلك اسباب : كان على راسها من قبل : الاستعمار ، ولا يزال على راسها حتى الآن مخلفات الاستعمار وتركته الثقيلة المقنة ، التي تشغل الفكر ، وتخلق المشاكل ، وتشعب السبل ، وتعقد الاشياء .

اننا لا نريد ان نتخذ من الاستعمار مشجبا نعلق عليه كل نقائصنا وخطايانا ، ولكننا نريد فقط ، ان نوضح الحقيقة ، وان نضع اصابعنا على مكمن الداء ، على الا يشغلنا كل ذلك على البحث من اسباب اخرى ، قد تكون اسبابا قائمة بذاتها ، وقد تكون مجرد مضاعفات او مظاهر للداء الاصلي الذي هو الاستعمار .

**

ان فى بلادنا جيلا كاملا من المثقفين ، كان لافراده بيننا فضل دق ناقوس الخطر، وفضل الاثارة والتوجيه، وفضل التعليم ، وفضل الكفاح فى جميع الميادين ، وفضل التبشير بمستقبل حر ، وفضل العمل من اجل تحقيق الاستقلال ، ومن اجل تطوير الحياة الاجتماعية والنهوض بها ، لاكنا مع ذلك ، نكاد نخسر هذا الجيل فى ميدان الكتابة والتحرير والتاليف .

لماذا ؟

لان افراد هذا الجيل لم يتعودوا ان يكتبوا !!

اما لماذا لم يتعودوا ان يكتبوا ، فان المسؤول عن ذلك هو الاستعمار ، الاستعمار الذي يخاف الكلمة المكتوبة لانه يعرف معناها وعملها وتاثيرها ، ويستطيع فى نفس الوقت ان يقف فى وجهها وان يمنعها بوسائل قد لا تتاح له فى مقاومة الكلمة المنطوقة ، وان كان خوفه من هذه ايضا لا يقل عن خوفه من اختها السابقة .

وهكذا تعود افراد هذا الجيل ان يتكلموا ويقنعوا وان يجلوا فى الكلام ، وان يتفقوا منه عن سعة وعلم وادراك وخبرة وفلسفة وثقافة ، كانوا يتكلمون خارج بلادهم الى الساسة والعلماء والحكام والنواب ومحرري الصحف ومندوبي الاذاعات ، وكانوا يتكلمون داخل بلادهم الى الطلاب والعمال والفلاحين ، وكانوا يدافعون عن مشروعية حركتهم، واعمالهم فى جلسات الاستنطاق، وفى محاكم الاستعمار، بالحجة والمنطق والعقل والقانون، كانوا يتكلمون فى كل مكان يستطيعون ان يغافلوا فيه الاستعمار ، فاذا اضطروا الى مواجهته ، تكلموا ايضا : دفاعا عن حقهم وحق وطنهم فى الحرية والكرامة والاستقلال ، لكنهم مع ذلك لم يكونوا يستطيعون ان يكتبوا .

فاذا حاولوا الكتابة ، فان عليهم ان يضعوا نصب اعينهم مقدما ، قلم الرقابة ، وقاضي التحقيق ، والمحاكمات الشكلية ، وتهم المس بالدولة الحامية ، ثم ما يتبع كل ذلك من السجن والنفي والعذاب والتشريد .

وبالتدريج ، فقد افراد هذا الجيل القدرة على الكتابة ، لان الكتابة مران ورياضة ، وظل مكانهم شاغرا فى الصحيفة والمجلة والكتاب ، وتركوا فراغا فى ميدان الكتابة والتحرير والتاليف ، قد لا يستطيع غيرهم ان يملاه ، الا ان تتاح له ثقافتهم وتجربتهم وخبرتهم واتصالاتهم الواسعة ، ومعرفتهم باصناف الناس ، وبطبيعة الجماهير وحاجاتها ، وغير ذلك مما هو نتيجة نحو من ثلث قرن ، قضاه افراد هذا الجيل فى العمل والكفاح والتبشير ومغالبة الاستعمار .

واذا كان بعض افراد هذا الجيل — واعني الاستاذ علال الفاسي — قد شذ عن هذه القاعدة ، وقد استطاع ان يحتفظ رغم كل ما ذكرنا ، ورغم اشياء كثيرة اخرى ، بمقدرته الخارقة على الكتابة والمحاضرة والتاليف ، فانما ذلك — كما يعبر عنه غير واحد من افراد طبقته نفسها — « معجزة » وهم يعنون انها حالة خاصة ، ترجع الى عوامل اخرى شخصية ذاتية ، مما لا يتاتى لكل الناس .

**

وهناك الجيل الناشىء نفسه من المثقفين ، وقد تعلم كثير من افراده فى ارقى المدارس والكليات داخل القطر وخارجه ، وحصلوا على ارقى الشهادات ، وشغلوا ارقى المناصب فى الدولة ، وفيهم من يقرا باستمرار رغم مشاغله الكثيرة ، ومن يتوفر على افكار وآراء خليقة بان تكتب وتقرا ، لكن الخسارة فى هؤلاء ايضا انهم تلقوا تعليمهم كله بلغة اجنبية ، ولم تتح لهم الفرصة ليتعلموا لغتهم فيستطيعوا ان يكتبوا بها ، ليساهموا فى اثرائها من جهة ، وليساهموا من جهة اخرى فى خلق ثقافتهم القومية الخاصة ، وعند ما نبحث عن اصل الداء هنا ايضا، نجد انه الاستعمار والاستعمار لا غير .

واذا كان بعض افراد هذه الطبقة ، قد اتيح لهم ان ينفذوا من السد المنيع الذي اقامه الاستعمار فى وجوههم ، فعرفوا لغتهم وعرفوا حاجتهم اليها ، وتعلموها بالقدر الذي يساعدهم على الاستفادة منها والافادة بها ، اذا كان بعض افراد هذه الطبقة قد اتيح

لهم ذلك، فانهم يقومون اليوم بيننا بانتاجهم وافكارهم تعبيرا صريحا عن الخسارة التي منينا في اخوانهم الاخرين، في الميدان الذي نتحدث عنه، ميدان الكتابة والتاليف والتحرير.

اما الذين اتيح لهم من الجيل الناشيء ان يتلقوا تعليمهم باللغة العربية، فقد كانت الاساليب الذي كتب عليهم ان يكونوا بها ثقافتهم، اساليب عتيقة جامدة، او مفككة مضطربة، تنقطع اليوم لتستانف غدا، وتمشي دائما في خطوط ملتوية معوجة، بدون هدف اصلا، أو بهدف غير واضح، وكان السبب هنا ايضا، كما كان في غيره، هو الاستعمار، الاستعمار الذي كان يقف في وجه كل تطور في التعليم العربي، وكان يعمل على القضاء على كل حركة لتطويره في مهدها، ذلك لانه كان يريدنا جهلة، فاذا كان لابد من تعليم بعض الافراد، فليكن ذلك على يده، وبلغته، وبالاسلوب الذي يختاره، والذي يتمشى مع اهدافه ويحتفظ له بوجوده، او يكون اداة للاحتفاظ له بهذا الوجود.

**

وكان المفروض نتيجة لكل ما تقدم، الا تجد فينا اليوم من يمسك قلما او يخط حرفا، ولكن الواقع عكس ذلك، فقد خرجنا من المعركة منتصرين في كل ميدان، حتى في ميدان القلم، في ميدان الكتابة والتحرير والتاليف.

واذا كنا لا زلنا حتى اليوم لم نقدم من انتاجنا الفكري الا القليل مما يستطيع ان يشهد بانتصارنا في هذه المعركة، فان ذلك لا يعني الا شيئا واحدا، هو اننا لا نزال – كما اسلفت – مشغولين بالعمل للتخلص من آثار الاستعمار، ومن تركته الثقيلة المقنة.

**

على ان المسالة لا تنتهي عند هذا الحد، ولا ينبغي ان تترك للمجهودات الفردية والمحاولات الخاصة. ان على الدولة ان تتحمل مسؤوليتها كاملة في ميدان الفكر، كما تحملها في كل ميدان آخر، ولن يكفيها لذلك ان تفتح المدارس، وتشجع التعليم، وتؤسس الجامعة.

ان الاستعمار كان يعمل لتجهيلنا وفق خطة محكمة وبرنامج محضر محبوك، ونحن نعمل للتخلص من آثار الاستعمار، فيجب ان يكون رد الفعل من طرفنا قويا قوة الفعل نفسه.

اننا ننادي هنا بفتح **(مصلحة للفكر)** تزود بالعدد الكافي من الكفاءات، وتضم مجموعة من رجال القلم والفكر، تعتبرهم الدولة موظفين لديها، وتوفر لهم الجو المناسب للدراسة والبحث والتنقيب والكتابة والتاليف، وتنفق على اعمالهم عن كرم وسخاء وسعة، وتحدد مهمتهم، فقط، في ان يقراوا وان يكتبوا، ان يتصفحوا المخطوطات التي تهم تاريخ المغرب السياسي او الفكري، وينفضوا عنها الغبار، ويصححوها، ويقدموها للمطبعة لتعرف عن طريقها النور والهواء، ولتعرف عن طريقها ايدي القراء، تجعل مهمتهم ان يجيبوا عمليا عن هذه الاسئلة وعن اسئلة اخرى كثيرة غيرها : هل كان لنا ادب ؟ وهل لنا في حاضرنا ادب ؟ وهل لنا ماض في الفكر نعتز به ونعلنه للناس ؟ وما هي الاسس التي ينبغي ان نبني عليها ثقافتنا وادبنا وبرامجنا في التعليم.

(مصلحة للفكر) تقوم في الامة بمثابة الدماغ المفكر، لاهم لها الا ان تفكر في بعد عن جميع المؤثرات الخارجية، وان تعلن نتيجة تفكيرها بحوثا، ومقالات، ومحاضرات، ومشاريع، وكتبا مؤلفة او مترجمة.

ان الدولة تعنى بكل شيء، تعنى بتوفير القمح، ومد القنوات، واصلاح الطرق، وبالمجاملات الدبلوماسية فما الذي يمنعها من ان تزيد الى اعبائها عبئا آخر، قد لا يكلفها كثيرا، ولكنه يعطي نتائج لا تقل اهمية عن النتائج المطلوبة من الاعمال الاخرى ؟.

ما الذي يمنعها من ان تحتضن الفكر، وتتبناه، وتنفق عليه ؟

ما الذي يمنعها من أن تزيد الى عدد موظفيها الكثير جدا، عددا آخر قليلا، تكل اليه ان يقرا ويكتب وينتج ويصحح ؟

اننا لا نطلب الى الحكومة ان تفعل كل شيء، ولا ندخل في حسابنا ان عملا كهذا الذي نقترحه قد يغني عن المجهودات الخاصة، ولكنا نريد ان نقول فقط، ان حاجتنا في ميدان لفكر اكبر من أن تترك للمجهودات الخاصة وحدها، وأكبر من ان يكفي في علاجها ما يفضل من الوقت على هامش الاعمال والمشاكل والمسؤوليات.

اننا ننادي بفتح **(مصلحة للفكر)** تدعى **((الاكاديمية))** او تدعى **((معهدا للدراسات))** او تدعى باي اسم آخر، المهم ان تكون، وان تبرز الى الوجود في اقرب وقت ممكن، لان الحاجة اليها شديدة، ولانها – فيما نرى – علاج، قد لا يكون حاسما، ولكنه من غير شك، علاج مفيد، ومفيد جدا، بل ضروري لا يمكن الاستغناء عنه باي حال من الاحوال.

فهرس العدد الثاني عشر



بهذا العدد تنهي مجلة « دعوة الحق » سنتها الاولى ، وستحتجب المجلة عن الصدور بهذه المناسبة مدة الصيف ، ثم تستانف العمل بصدور العدد الاول من السنة الثانية ، فى موعد يعلن عنه فيما بعد .

وترجو المجلة من حضرات السادة الكتاب والادباء والشعراء ، ان يوالوا فى هذه المدة امدادها ببحوثهم ومقالاتهم وقصصهم وقصائدهم ، حتى يتسنى لها ان تاخذ اهبتها كاملة لسنتها الثانية .

وتؤكد المجلة بهذه المناسبة ، انها ليست وقفا على طبقة معينة ، او موضوع معين ، وانها لا تستهدف فى اختيار ما تنشره الا شيئا واحدا فقط . هو أن يكون من مستوى فكري معين . لا ينبغي لمجلة تحترم نفسها واهدافها أن تنزل عنه ، أو تتسامح فيه .

لذلك فنحن على استعداد لتشجيع كل المحاولات الجادة الهادفة .
والمجلة تفخر بانها اكتشفت فى سنتها الاولى كتابا وشعراء من الشباب الصاعد ، يبشر انتاجهم الذي نشرته لهم المجلة بمستقبل زاهر ، وينبيء عن استعداد **طيب .**

وستظل المجلة وفية لمبادئها واهدافها ، مستعدة لافساح المجال لكل عمل فكري أو فني ، لا يقل عن المستوى الذي تطلبه وتشترطه .
والى اللقاء فى العدد الاول من السنة الثانية .

دعوة الحق

الربيع فى المدينة الاثرية الخالدة
شالة .

مطبعة فضالة ــ فضالة

